

دار البشير
للثقافة والعلوم
مفاجأة
النسخة الأصلية pdf لرواية
حَنين
رواية
ياسمين قنديل
SAMA DESIGN
www.darelbasheer.com
00201152806533


حَنِين



اسم الكتاب: حنين

التأليف: ياسمين قنديل

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 416 صفحة

عدد الملازم: 26 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2016 / 7173

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 538 - 4

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 0115280653 – 01012355714

1437 هـ
2016م



ياسمين قنديل



إهداء

إلى كل مَنْ أصاب قلبه الحنين،

ولا يعرف متى ينتهي..

(1)

إن لم يكونوا يومًا من نصيبنا إذًا لماذا ظهروا في حياتنا من البداية؟!!

كيف تسللوا بخفة إلى قلوبنا فتمكنوا منها إلى هذا الحد..

نفعل الكثير؛ لنتحرر من سطوتهم ولا نفلح، فنعود واقفين على أعتاب أرواحنا نرجو الرجوع إلى ما كانت عليه سابقًا..

الرجوع إلى حياتنا قبل ظهورهم..إلى أنفسنا القديمة..

فنكتشف الحقيقة وقتها أن لا رجوع!!

أغلقتُ دفتري الرمادي ووضعتُ القلم جانبًا بعد أن كتبتُ تلك الخاطرة؛ لتخرج قليلًا مما يجول بصدري.

نظرتُ باتجاه النافذة وأنا جالسة على مقعد مكتبي أراقب شعاع الشمس وهو يتسلل ببطءٍ إلى أرضية الغرفة ويطل بخيوطه الذهبية على كل شيء بداخلها فيكشف عن سحر خاص لها وكأنها تبدلتْ وتغيرتْ بمجيئه.

تحرك بانسيابية نحوي وبدأ دفؤه يداعب أطراف أصابعي، مددتُ كلتا قدميّ لأنعم بأكبر حصة منه..

تقدم تدريجيًّا وهو يضم أطرافي شيئًا فشيئًا، أغمضتُ عيني وبقيتُ ساكنة مستسلمة لاحتوائه.

كنتُ أحاول تعويض جسدي عن ليلة باردة سابقة نالتْ منه، فمع حلول فصل الشتاء على مدينة القاهرة وازدياد الصقيع يصبح أي يومٍ مشمسٍ مثل هذا فرصةً عظيمة يجب استغلالها جيدًا..

كثيرًا ما تمنيتُ وصول هذا الدفء لثنايا روحي وأن يتغلغل بحنايا قلبي فتهدأ الريح بداخلي، ويذهب ذلك البرد الدائم المصاحب لهما.

قمتُ من مقعدي وسرتُ نحو النافذة، رفعتُ المزلاج، ودفعتُ دفتيها ببطءٍ؛ ليدخل أكبر قدر من ضوء الشمس فتدفأ الغرفه..

استدرتُ برأسي وأنا أنظر إلى غرفتي وقد توهجت بأكملها، تلك الفراشات الثلاث الرقيقة اللامعة ذات اللون الوردي اللاتي وضعتهن فوق سريري قد ازدادت بريقًا ولمعانًا، بينما اختفتْ تمامًا النجوم الملصقة بالسقف فهي تُضاء فقط ليلًا عندما تنطفئ الأنوار وتزداد الظلمة.

أحب غرفتي كثيرًا.. أحب بساطةَ مقتنياتها وأثاثَها ذا الطراز القديم، أتذكر عندما اشتراه أبي وأنا في سن السابعة من عمري وقد قرر هو وأمي أنه حان الوقت لأحصل على غرفة بمفردي، كانت المرة الأولي التي أشعر فيها بمعنى الاستقلالية وأن هناك مساحة أرضية بشقتنا ملكي ولا تحق لأحد غيري، حاولتُ أن أقنع أبي بتغيير طلائها من اللون الكريمي إلى اللون الوردي لكنه رأى أن لونها يتناسب أكثر مع أرضيتِها الخشبية وأثاثِها ذي اللون البني الفاتح..

أشعر بالراحة في سريري وأحمدُ الله أنني لا أتقلب كثيرًا في أثناء نومي فهو متوسط الحجم ولا تسمح مساحته بكثير من التقلبات، خزانة ملابسي من ضلفتين إحداهما مزينة ببعض الورود التي قمتُ برسمها منذ زمن، ومكتبي صغير يعج سطحه بالكثير من الكتب في شكل عمودي على اليمين واليسار يتوسطها حاسوبي وبجانبها كوبٌ مليءٌ بالأقلام بأنواعها المختلفة ودرجان بطول المكتب يحتويان على دفاتري وأشيائي السرية التي لا يعرفها أحد.

أحاول بين الحين والآخر أن أضيف إلى الغرفة لمستي الأنثوية الخاصة، أزينها بالفراشات والورود والنجوم... أكتب بعض العبارات وأعلقها هنا وهناك... جعلت منها عالمي الخاص الذي أشعر بالخصوصية وأنا بداخله وأسعد وأنا أصنعه.

استندتُ إلى حافة النافذة بظهري وأنا أنظر إلى جدرانها، وأفكر ماذا يمكنني أن أجدد بها؟

قاطع تفكيري صوتُ طرقاتٍ على الباب يعقبها صوت أمي منادية:

- «حنين..حنين»

- «نعم يا أمي»

- «هيا يا حبيبتي الفطور جاهز»

- «حسنًا أنا قادمة»

عدلتُ هندامي أمام المرآة التي تلتصق بإحدى ضلفتي الخزانة، ولممتُ خصلات شعري المنسدلة على وجهي بطوق بسيط مزين بورود صغيرة..

خرجتُ وتمشيتُ في الرواق لأصل إلى غرفة الطعام..

أنعم الله علينا ببيت كبير وواسع، واستغل أبي وأمي هذا فلم يزحماه بكثير من الأثاث، أكثر أثاث بيتنا بسيط قليل الحجم ويختلف عن طراز الأثاث القديم المليء بالزخارف والنقوشات فلا يحتوي الكثير منها.

أتعجب من بعض شقق صديقاتي ذات المساحات الصغيرة وهي تعج بكثير من الأثاث الضخم الباهظ الثمن، فينتج عن ذلك ضيق المساحة، وجلب الكآبة لكل مَنْ يراه.

وصلتُ إلى غرفة الطعام، فوجدتُ أبي بانتظاري ويزين محياه ابتسامته المعهودة التي تحوي بين طياتها فرحة مشتاق برؤية حبيبه.

كان أبي أصلع الرأس، تكسو الشيبة لحيته وحاجبيه فتضيف إليه وقارًا وحكمةً، وملامحه تعلوها الطيبة والود، ولكن وضع الزمان بصمته عليها فظهر ذلك في بعض التجاعيد والخطوط التي تحيط بكلتا عينيه.

ألقيتُ السلام ورَدَّهُ أبي، ثم قال –وهو لا يزال مبتسمًا-:

- «كيف حال حبيبتي الصغيرة؟»

- «الحمد لله بخير يا أبي.. انتظرتك بالأمس على العشاء كثيرًا ولكن غلبني النوم ولم أستطع الانتظار أكثر»

- «لا عليكِ أنا بالفعل تأخرتُ بالأمس، كيف كان حال يومك بالبارحة؟»

- «بخير الحمد لله»

أطلتْ أمي (بروبها) القرمزي، ويحيط شعرها وشاح باللون نفسه معقودٌ بشكل جمالي وتظهر منه غرة رأسها...

ما يعجبني في أمي هو حفاظها على أناقتها، واهتمامها بالتفاصيل الصغيرة المتعلقة بزيها وشكلها بالرغم من كبر سنها.

وضعتْ أمي الطبق الذي بيدها على المائدة، هممتُ بالوقوف، فأشارتْ إليَّ بيدها أن أجلس قائلة:

- «اجلسي.. كان هذا آخر طبق»

نظر إليها أبي وعلى وجهه علامات التساؤل قائلًا:

- «أين آسر؟ ألم يستيقظ بعد؟»

- «استيقظ منذ زمن ولكنه أمام حاسوبه»

- «أمازال مشغولًا بإتمام هذه اللعبة الإلكترونية؟!»

- «نعم»

قال أبي ممتعضًا:

- «يا لهذا الزمن! في الماضي كان اجتماع العائلة على مائدة الطعام من أساسيات أي بيت، الآن أصبح الكل منشغلًا بهذه الأجهزة البغيضة»

ردتْ أمي -وهي تتناول إحدى حبات الزيتون وتضعها في فمها-:

- «يا طارق كلُّ زمنٍ يختلف عن سابقه، ولا يوجد شيء يدوم على حاله، كلُّ جيلٍ ينظر للذي بعده أنه الأسوء، ألا تتذكر كيف كان ينظر أجدادُنا وآباؤنا إلى جيلنا؟»

تنهد أبي وهو يعقد يديه وتظهر عليه علامات الاستياء.

بدأتْ أمي في مناداة آسرعدة مرات حتى خرج أخيرًا لينضم إلينا، كان الإرهاقُ واضحًا على وجهه، وبياضُ عينيه يحمل بعض الشعيرات الحمراء من الجانبين مما يدل على أنه لم ينم جيدًا، وأن عينيه متعبتان من طول النظر إلى شاشة الحاسوب..

بدأ أبي في معاتبته وتحذيره من خطر ما يفعل على صحته، شاركته أمي العتاب وكررتْ شكوتها المعتادة من قلة تناوله للطعام؛ فجسد آسر الهزيل واسمرار لونه يدلان على حاجته إلى التغذية الجيدة.

أخذ أبي في سرد بعض القصص التي قرأها في بعض الجرائد أو سمعها من أصدقائه بهدف النصح لآسر خاصة ولنا عامة..

أُحِبُّ كثيرًا خوف أبي وحرصه علينا، فعلى الرغم من انشغاله بأعمال المقاولات فإنه يحرص على اجتماعنا؛ ليسمع منا ما حدث في يومنا، وماذا جَدَّ في حياتنا، وتشاركه أمي في ذلك فهي تهتم بأدق تفاصيلنا، ضحتْ في الماضي بفرص عمل نادرة برواتب مجزية؛ من أجل أن تتفرغ تمامًا لتربيتي

أنا وأخي، أحيانًا يراودها تحقيق حلمها القديم الذي سعتْ إليه منذ تخرجها من كلية رياض الأطفال وهو أن تبني مؤسسة لتعليم الأمهات الجدد كيفية التعامل مع أطفالهن وتنشئتهم نشأة سليمة نفسيًّا..

حاولتْ إقناعي عندما انتهيتُ من المرحلة الثانوية أن ألتحق بالكلية نفسها؛ حتى نتعاون معًا ونحقق هذا الحلم الكبير خاصة أنني أحب الأطفال مثلها، لكن كان لدي شغفٌ من نوع آخر أريد أن أشبعه وحلم أطمح أن أحققه، فحبي للكيمياء والمعادلات والتفاعلات والتراكيب بجانب مجموع الدرجات التي حصلتُ عليها أَهَّلَانِي للالتحاق بكلية الصيدلة، كانت هي الخيار الأمثل بالنسبة لي، وهذا العام هو عامي الأخير بها.

آسر هو أخي الأصغر في الصف الثاني الإعدادي، يصغرني بسبعة أعوام.. أتذكر مدى حزني عندما أخبرتني أمي أنها علمتْ أننا سنرزق بصبي وليست فتاة، لكن سرعان ما ذهب هذا الحزن وتبدَّل مكانه حبٌّ مع مرور الأيام.. شاركتُ أمي في تربيته حتى أنني أشعر أحيانًا أنه ابني وليس أخي، وعلى الرغم من مشاغبته المستمرة فإنه عامل أساسي في دب الحياة في بيتنا.

أسرتي صغيرة وبيننا روح جميلة، أحب ذلك الجو الدافئ الذي أشعر به وأنا بجوارهم..

كنتُ أتمنى فقط أن نكون أكثر من ذلك، أن يكون لدي الكثير من الإخوة والأخوات ولا يهدأ بيتنا من المشاغبات والسمر الذي يحدث بالضرورة مع كثرة العدد، أنوي تعويض ذلك عند تكوين أسرتي..

شردتُ وأنا أتناول ببطء حلقة من الخيار وأضعها على شفتيّ مفكرة..

أسرتي.. تُرى كيف ستكون؟ كم سيكون عددها؟ كم سأنجب من الصبيان والفتيات؟ ومن سيكون شريكي بها؟

- «في ماذا تشردين يا حنين؟» انتبهت لسؤال آسر، وهو يخطف باقي حلقة الخيار من يدي، وضعتُ كفي على فروة رأسه، فخرج شعره الطويل من بين أصابعي وحركتها يمنة ويسرة، وأنا أقول:

- «لا شيء أيها المزعج»

ظهرتْ علامات الضيق على وجهه وهو يزيح يدي عن رأسه سريعًا قائلًا:

- «قلتُ لكِ مرارًا وتكرارًا لا تقتربي من شعري»

- «ولهذا أنا لا أقترب إلا منه»

ضحك أبي وأمي، وسأل أبي آسر وسط ضحكه:

- «هيا يا بطل أخبرنا كيف كانت مغامراتك بالأمس؟»

أعتقد أن سؤال أبي اليومي هذا هو أحد أسباب سعادة آسر؛ فهو الوسيلة التي من خلالها يستطيع أن يقص علينا عجائبه وغرائبه التي حدثت خلال يومه.

انتهينا من الطعام وآسر لم يتوقف عن الكلام بعد، كان متحمسًا جدًّا وهو يحكي كيف أنه نجا بأعجوبة من اصطدامه بالحائط وهو يركب دراجته بعد أن كان بينهما خمسة سنتيمترات فقط، كنا نضحك من طريقة سرده المسترسلة واندماجه في الحدث كأنه يحدث الآن..

انتهى آسر من حديثه وقمتُ بتحويل الأطباق إلى المطبخ، بدأ أبي وأمي في حديثهما اليومي المعتاد عن ماذا سنأكل اليوم على الغداء، وتفرع الحوار إلى مَنْ يود أبي زيارتهم وما تود أمي عمله ولكن لا وقت لديها...

توقف أبي عن الحديث وكأنه تذكر شيئًا ما، وسأل أمي:

- «مديحة.. هل أرسلتِ الغداء بالأمس إلى حمزة كما أخبرتك؟»

شعرتُ بجفاف في حلقي، تركتُ الطبق الذي بيدي لكنني رفعته ثانية على الفور حتى لا يلاحظ أحد، فمجرد ذكر اسمه أصبح يصيبني بالتوتر..

أجابت أمي:

- «نعم يا طارق أرسلناه إليه.. لا تقلق»

وضع أبي إحدى يديه على الأخرى وأسندهما إلى الطاولة، عقد حاجبيه وهو يقول:

- «نريد أن نقترب منه أكثر فمنذ أن كشف لي سره وأنا أفكر في أمره كثيرًا»

مع كلمات أبي الأخيرة رجعتْ ذاكرتي بالزمن إلى الوراء؛ لأتذكر الأحداث كلها..

وكيف بدأ كل شيء...

●●●

(2)

مال قرص الشمس عن كبد السماء وبقي قليلٌ من ضوئها وقد توارت بالحجاب، بدأ الظلام بإسدال ستائره شيئًا فشيئًا معلنًا عن قدومه.

كانت أمي تجلس في ذلك اليوم وهي تتأبط إبرتين طويلتين تحت ذراعيها وتحيك كنزة صوفية حمراء اللون لابنة جيراننا الصغيرة وقد استقرت على أرنبة أنفها نظارتها مستطيلة العدسات، وهي تقوم بنسج الغرز بشكل آلي وسريع يدل على مهارة اكتسبتها عبر زمن من الممارسة، فمنذ أن علمتْ أن لجيراننا الجدد ابنة قررتْ أن تصنع واحدة لها من باب كسب الود وإشعارهم بالألفة بيننا..

تمارس أمي هذه الهواية منذ زمن، أتذكر مدى إعجاب أقاربنا بكنزاتنا الصوفية التي كانت تصنعها ونحن صغار، ويطلبون منها أن تصنع مثلها لأبنائهم.

دخل أبي إلى البيت بخطوات مسرعة وهو ينادي أمي على عجل:

- «مديحة.. مديحة»

قامت أمي من مكانها تاركة ما بيدها، وتقول بصوت يشوبه القلق وهي تخلع نظرتها:

- «خير يا طارق.. هل حدث شيء؟»

أمسك أبي بيدها ليذهب عنها قلقها، وهو يقول:

- «لالا..اطمئني»

أخرجت زفرة تنم عن الارتياح وقالت متعجبة:

- «اعتدتُ أن أول ما تفعله عند دخول البيت أن تلقي السلام فلما رأيتك تناديني مسرعًا تخيلتُ أنه حدث شيء ما.. أخبرني ماذا هناك؟»

جلس أبي وهو لا يزال ممسكًا بيدها، وأجلسها أمامه قائلًا:

- «كنت أفكر في أمر ما، وأريد أن أستشيرك به»

- «تفضل»

- «من قرابة ثلاثة أسابيع وجدتُ شابًّا في المسجد يصلي العصر معنا كان لا يحمل أي شيء سوى حقيبة صغيرة، لم أنتبه إليه كثيرًا حينها ولكن لاحظته في بقية الأيام يصلي جميع الصلوات فتخيلت أنه انتقل حديثًا إلى منطقتنا، وكما تعرفين أي شخص جديد نحب أن نرحب به ونشعره بالألفة بيننا، ذهبتُ وتعرفتُ عليه لم يخبرني الكثير عنه، ولكن عرفت أنه أتى إلى هنا لزيارة صديقه عمر -رحمه الله- أتتذكرينه؟»

هزت أمي رأسها:

- «نعم أتذكره رحمه الله»

- «لكنه لم يكن يعلم بخبر وفاته وتفاجأ حينما أخبره أهالي المنطقة عندما سألهم عنه، وأخبرني عثمان حارس المسجد أنه لا يملك مكانًا ليذهب إليه، فعرض عليه المبيت بالمسجد، واليوم وجدتُ عثمان يقول

له إن عليه إيجاد مكان آخر بدءًا من الليلة؛ لأن ذلك يخالف تعليمات إدراة المسجد ومن الممكن أن يلحق هذا الضرر به، ذهبتُ إليه وسألته ماذا سيفعل، فوجدت الحيرة في وجهه، وقال إنه سيحاول أن يتصرف في الأمر، تذكرتُ حينها غرفة السطح وأنها فارغة إلا من بعض الأثاث القديم ففكرت لِمَ لا نستضيف هذا الشاب بها هذه الفترة حتى يجد مكانًا ينتقل إليه، فما رأيك؟»

نظرت أمي مليًّا، وقد بدت عليها علامات التردد قائلة:

- «عهدتك سبَّاقًا للخير طوال عمرك يا طارق، ولكن تريد أن تسكن شابًّا لا تعرف عنه شيئًا في بيتنا!! لا نعرف مَنْ هو ولا من أين أتى؟ ولماذا منذ مجيئه وهو يبيت بالمسجد أليس له أقارب أو أصدقاء آخرون يبيت عندهم؟ وإن لم يكن له فلماذا مكث هنا كل تلك الفترة؟»

أجاب أبي سريعًا، وكأنه كان يعلم كلام أمي مسبقًا:

- «أعلم أن كل كلامك صحيح مئة بالمئة يا مديحة ولكن من خلال معاشرتي له وجدت في ذلك الشاب حسن الخلق والخير وارتحت له كثيرًا، ولا أظن أنه شخص مخادع وأرجو ألا يخيب ظني به»

جذبت أمي يدها من يد أبي، ووقفت وهي تقول مستنكرة:

«أية معاشرة تتحدث عنها يا طارق؟! أنت لم تعرفه سوى من بضعة أيام!! أنت طيب القلب، وتظن أن الناس جميعهم مثلك، لا تنخدع

بالمظاهر يا عزيزي.. فكر معي ما الذي يجعل شابًّا يأتي إلى منطقة لا يعرفه بها أحدٌ إلا شخص واحد ويمكث بها هذه الفترة؟! أليس من المنطقي أن يعود بعدما وجد صديقه قد توفي؟ ما أدرانا ربما يكون فعل فعلة كبيرة ويريد الهروب، أو ربما سرق مبلغًا ضخمًا وأراد أن يختبئ، أو يكون قد قتل أحدهم وجاء هنا لينجو بفعلته، أو ربما...»

قاطعها أبي، وهو يقف ويقول مستغربًا:

- «كفى.. كفى.. ما كل هذه الظنون!! لماذا نظن السوء بالناس مع أن الأصل أن نحسن الظن بهم؟!»

اقتربتْ منه وربتتْ على كتفه بيدها قائلة:

- «لأن هذا هو الواقع يا أبا آسر»

ظل أبي وأمي يتبادلان الجمل، وأنا جالسة على الأريكة بالقرب منهما أراقب نقاشهما، وقد احتد ما بين رفض أمي ومطلب أبي..

لم يقطع حديثهما إلا جرس الباب، ذهبتُ بالقرب منه وسألتُ:

- «مَنْ؟»

أتاني ذلك الصوت الأجش:

- «أنا خالك محمود يا حنين افتحي»

فتحتُ الباب سريعًا فدخل خالي وضمني بحنان فتغلغل عطره في أنفي، قبلني وأعطاني كيسًا كبيرًا من الفاكهة..

سمعنا صوت أقدام آسر وهي تجري في الرواق حتى وصل إلى خالي وقفز في محاولة منه للوصول إلى عنقه ليحتضنه، رفعه خالي بجسده الهزيل إليه، وهو يقول مبتسمًا:

- «أهلًا بالولد الشقي»

أنزل خالي آسر وهو ينظر إلى أبي وأمي ويشير إليهما في تساؤل مستنكرًا:

- «ماذا أصابكما؟ أسمع صوتكما من بداية الدرج»

ردت أمي:

- «حمدًا لله أنك أتيت الآن يا محمود احضرنا في هذا الموقف»

جلس خالي محمود، وبدأت أمي تقص عليه كلام أبي..

خالي محمود هو أخو أمي من الرضاعة، كان أبوه وأمه جيرانًا لجدتي -رحمها الله-، توفيت أمه في أثناء ولادته فأولته جدتي الرعاية بجانب والده، وأرضعته مع أمي التي تكبره بشهرين فصارا أخوين من الرضاعة..

هيئته الضخمة، وبنيته الطويلة، وكرشه المتدلي أمامه، وبشرته البيضاء المشربة بحمرة، وعيناه الضيقتان، وصوته الأجش كل هذا يعطي انطباعًا أنه شخص قاسي شديد الطباع، ولكن ما إن تجلس معه حتى تكتشف طيبة قلبه وصفاء روحه، يشعر بالتعب مع زوجته فهي ترهقه بطلباتها المادية غير مراعية ظروفه وراتبه القليل، ويشغل بالها حياة الآخرين ومستوى معيشاتهم فتعقد مقارنات بين حياتهم وحياتها فتغضب ساخطة على وضعها..

كانت أمي تصبره وتعلل ما هي فيه أنه ربما انعكاس لشعورها بالحزن لأنهما لم يرزقا بالأطفال وقد تقدما بالسن، وتنصحه بالتزام الدعاء أن يصلح الله حالها ولا يجعل للشيطان بينهما سبيلًا.

انتهت أمي من سرد موقف أبي وهي منفعلة، حَكَّ خالي ذقنه اللامعة التي يبدو أنه حلقها للتو، وقال وهو يفكر:

- «لا أعلم ماذا أقول.. أعلم يا طارق أن حب الخير بداخلك كبير، وأنك تقدم على مساعدة الآخرين دون النظر إليهم، ولكن أشعر أن مديحة معها حق في هذا الشأن، أن تسكن هذا الشاب في بيتك يعني أنه ربما تتستر على أمر ما قام به وتساعده على الهرب بفعلته»

قال أبي وقد تملكه الضيق:

- «أنتما تقولان هذا لأنكما لم ترياه، أنتما تطلقان تلك الأحكام كلها جزافًا لمجرد أنه كان يبيت بالمسجد، ربما أراد الرجوع فقطعه عذرٌ أو حبسه حابسٌ فظل هنا»

قالت أمي:

- «ولماذا لم يخبرك بذلك؟»

أجابها بشيء من الغضب:

- «لكل شخص أموره الخاصة يا مديحة وله الحق بإخفائها ولا دخل لي أنا بهذا، أريد استضافة هذا الشاب من باب المعروف لا أكثر»

ثم قام وهو ينظر أمامه، وقد عقد كفيه خلف ظهره، وأكمل بهدوء:

- «لقد اتخذت قراري لن أدع هذا الشاب يتخبط بين الطرقات اليوم لمجرد ظنون سيئة لا أساس لها، سأستضيفه بغرفة السطح حتى يجد مأوى آخر له»

ثم نظر إلى أمي وخالي:

- «أما بالنسبة لشكوككما وأسئلتكما فسوف أطرحهاعليه، وأنا متأكد أنه سيجيبني بأسباب منطقية وسيخيب ظنكما»

قالت أمي باستغراب مذهولة:

«ما هذا ياطارق؟ منذ متى ونحن نتعامل بهذا الشكل؟! لم يُتخذ أي قرار في هذا البيت إلا بعد موافقتنا معًا عليه، منذ متى وأنت تفرض قراراتك؟!»

هَمَّ أبي بالرد ولكن أوقفه خالي بيده وهو يشير إلى الاثنين؛ ليتمهلا ويتحلَّيا بالهدوء، ثم قال في محاولة منه لتلطيف الجو:

- «حسنًا سنقسم البلد نصفين»

نظر إلى أمي وتابع:

- «سيأتي هذا الشاب كما يريد طارق، وسيسكن بغرفة السطح حتى يجد مسكنًا آخر»

ثم التفتَ إلى أبي، وقال:

- «أتفهم حسن ظنك يا طارق ولكن مديحة محقة فيما تفكر به؛ لذا يجب أن تسأله عن سبب مكوثه هنا حتى الآن، ومن أين أتى حتى تطمئن قلوبنا»

هزت أمي رأسها وأشاح أبي بوجهه عابسًا وهو يهز رأسه في دلالة منهما على اقتناعهما بكلام خالي، رمق خالي أمي بطرف عينيه وحركهما وهو يميل برأسه قليلًا تجاه أبي في إشارة منه إليها لتلين الوضع..

فهمت أمي أشارته، قالت -وهي واضعة إحدى يديها تحت ذقنها، وتنظر بعيدًا عاقدة حاجبيها-:

- «إذًا متى سيحضر؟ حتى أتصل بأم سعد كي تأتي وتساعدني في تنظيف الغرفة»

انفرجت أسارير أبي، وقال:

- «سأذهب الآن إلى المسجد وأخبره، وسيأتي معي بعد صلاة العشاء»

نظرت أمي إلى الساعة المعلقة على الحائط، ثم قامت وهي تقول:

- «لم يبق كثير من الوقت على صلاة العشاء سأقوم الآن واتصل بها حتى تستطيع المجئ»

قام خالي ورفع رأسه إلى أعلى وهو يضم ياقة قميصه قائلًا:

- «حسنًا سأذهب على طريق طارق فلدي كثير من الأشياء التي يجب أن أنجزها»

زمجر آسر غاضبًا، وقلتُ بحزن:

- «لكنك لم تجلس معنا يا خال»

اقترب مني باسمًا وهو يربت على كتفي:

- «سأعوضها قريبًا إن شاء الله»

رفع آسر عينيه إليه وقد امتلأت بالحزن:

- «وعد؟»

ربت خالي على رقبته، وقال:

- «وعد».

نزل خالي مع أبي بينما اتجهت أمي لغرفتها لتجري اتصالًا بأم سعد، كنتُ أرى أن أمي معها كامل الحق فيما قالت، فجميعنا يعلم طيبة قلب أبي واندفاعه قليلًا مما عرضنا سابقًا للخديعة والغش من قِبل بعض الأفراد الذين وضع ثقته بهم سريعًا، وعندما كنا نناقشه في أفعالهم الغريبة يدافع عنهم حتى تظهر حقيقتهم، ويندم على تسرعه، ولكن تظل طيبة قلبه تغلبه، أرجو أن يكون مُحقًّا هذه المرة وصائبًا في ظنه، وألا يورطنا هذا الشاب الغريب في المزيد من المشاكل والمصائب.

انتهت صلاة العشاء وعَمَّ الهدوء على منطقتنا، وبقيتُ في حالة سكون وانتظار لتدب بها الحياة من جديد عند صلاة الفجر وبزوغ الصباح، سمعتُ صوت طرق مميز على الباب الذي أعرف منه أن الطارق أبي..

دخل أبي ومعه آسر، وبدأ حديثه معي قائلًا:

- «السلام عليكم يا حنين، هل أمك هنا؟»

- «وعليكم السلام يا أبي، لا أمي لا تزال بالأعلى مع أم سعد»

- «أتى معي الضيف الآن، سأدخله ريثما تنتهي أمك.. اعدي له مشروبًا ثم اتصلي بوالدتك وأخبريها أننا هنا»

- «حسنًا يا أبي»

تحركتُ إلى الداخل، وأسدلتُ الستار الفاصل بين صالة الاستقبال ورواق البيت، سمعتُ أبي بعدها يقول:

- «تفضل يا حمزة.. تفضل يا بني»

لم أسمع أي شيء بعدها لم يُحدث أي صوت، تساءلت في نفسي باستغراب وأنا عاقدة حاجبيَّ.. مَنْ هذا؟ أهو اللهو الخفي؟ ضحكتُ بيني وبين نفسي بضحكة مكتومة، اتصلتُ بأمي لأخبرها بما قاله أبي، أعددتُ لهما مشروبًا باردًا وأعطيته لآسر من خلف الستار، كانت ملامح آسر باردة على غير عادته لم أر على وجهه ذلك الحماس عند قدوم شخص جديد لبيتنا؛ حيث كان يبدأ في التعرف عليه ويوجه له أول أسئلته المعتادة عن أي نوع يُفضل من الألعاب الإلكترونية، ويظل يتحدث حتى يُصاب الضيف بالصداع، لم أسمع صوته هذه المرة كان صامتًا، ربما يشعر بالضيق من هذا الشخص لأنه السبب في احتدام المناقشة بين أمي وأبي اليوم كما أنه لم يستطع الجلوس مع خالنا لأنه كان يسوي الخلاف بينهما، لا زال آسر صغيرًا ولا يدري أن جميع البيوت تمر بهذه المشاكل العابرة.

وضع آسر الصينية على الطاولة التي تتوسط غرفة الاستقبال، واستأذن منهما ودخل إلى غرفته، هممتُ بالدخول وراءه إلى غرفتي أنا أيضًا لولا أنني سمعتُ أبي يقول:

- «حمزة أريد أن أخبرك بشيء»

ظلتْ نفسي تتأرجح ما بين أنه يجب أن أدخل إلى غرفتي ولا أسترق السمع وبين فضولي لأعرف ماذا يريد أن يقول أبي حتى استسلمت لفضولي بالنهاية..

أكمل أبي بصوت يكسوه الود:

«قمت ببناء هذا البيت منذ زمن وعشت به أنا وأسرتي فقط، ولكن فكرت فيما بعد لماذا لا أستفيد من هذه الشقق المغلقة وأقوم بتأجيرها، وأجَّرتُها جميعًا بالفعل.

جميع ساكني هذا البيت أنا أعرفهم جيدًا عائلة عائلة، فردًا فردًا، وأنا أظن بك الخير يا بني، ولكنك ستدخل بيتنا من الليلة وستصير جارًا لنا، وأنا لا أعرف عنك شيئًا سوى أشياء قليلة، وأرجو ألا يضايقك هذا ولكن أريد أن أعرف لماذا تمكث إلى الآن بمنطقتنا وليس لك فيها أقارب أو أصدقاء؟ ومن أين أتيت؟ وما هي طبيعة عملك؟ أعلم أن لكل إنسان خصوصياته ولكن أظن أشياء كهذه يعلمها جميع من حولك عنك، كما أنني أريد أن أعرف جاري الجديد أكثر»

خَيَّمَ الصمت بعض الوقت، ثم سمعتُ صوتًا هادئًا يقول:

- «عمي طارق لا أعرف ماذا أقول لك أمام صنيع معروفك لولا الله ثم أنت لكنت الآن أتجول في الطرقات؛ بحثًا عن مكان للمبيت، ويكفي سيرتك التي يشهد بها جميع أهالي المنطقة، ودومًا يتردد اسمك في المسجد مثالًا للأمانة والكرم، ووضح هذا جليًّا في موقفك معي، لكن أرجوك أكمل صنيعك واعفني من الرد على كل هذه الأسئلة، سيأتي الوقت المناسب الذي أستطيع أن أشرح لك فيه كل شيء»

سمعتُ صوت أبي وقد تغيرتْ نبرته قليلًا:

- «أتفهمك يا حمزة وأحترم رغبتك،، وإِنْ كنت أفضل أن تخبرني بهذه الأمور الآن، ولكن لن أضغط عليك، وأتمنى أن يأتي الوقت الذي تعطيني فيه ثقتك قريبًا وتخبرني أكثر عنك»

- «يا عمي المسألة لا تتعلق بالثقة ولكن الأمر متعلق بي أنا وبظروف تحوطني»

انتقل صوت أبي لأعرف أنه اقترب منه، وقال بصوت منخفض بالكاد سمعته:

- «يا بني لا تثقل على نفسك، كتمان الأمور بكثرة يجعلها مثل الجبل على الصدر.. أحيانًا يحتاج الإنسان أن يبوح قليلًا؛ ليخفف عبء قلبه ويهون على النفس ما تحمله.. لا أعلم إِنْ كان أبوك لا يزال على قيد الحياة وهل هو مسافر أم هنا، ولا أعلم إن كان لديك أخ أو أخت أو صديق تبوح لهم، ولكن إذا شعرت بأي وقت أنك تحب أن تتكلم فستجدني حينها كلي آذان صاغية ولن تجد مني غير النصح»

- «شكرًا لك ياعمي، وأنا لن أذهب لأحد غيرك»

قاطعهما صوتُ طرقٍ متصلٍ على الباب، فقام أبي بفتحه، سمعتُ صوت أمي بعدها في نبرته المعتادة:

- «السلام عليكم»

- «وعليكم السلام ورحمة الله.. مرحبًا يا مديحة تعالي أعرفك على جارنا الجديد حمزة»

- «أهلًا بك» قالتها أمي باقتضاب شديد، رد حمزة بلطف:

- «مرحبًا يا خالة، أعتذر كثيرًا أن أتعبتك كنت أود أنا القيام بهذا الأمر»

- «لا عليك»

قال أبي وكأنه أراد أن ينهي هذا الحوار حتى لا يُحرج حمزة من معاملة أمي الجافة:

- «حسنًا هيا بنا يا حمزة، لا بد أنك متعب وتريد أن تنام، اسبقني إلى الأعلى وأنا سأتبعك»، خرج حمزة بعد أن ألقى السلام..

سمعتُ صوت خطوات أمي تقترب فتحركتُ سريعًا إلى باب المطبخ، وكأنني خرجتُ منه توًّا، دخلتْ أمي إلى الرواق وتبعها أبي قائلًا:

- «هل انتهيتم من كل شيء؟»

- «نعم نظفناها جيدًا ونظمنا أثاثها»

استدار أبي؛ لكي يذهب، فأوقفته أمي سائلة:

- «هل سألته؟»

- «نعم»

عقدت أمي حاجبيها، وقالت مترقبة:

- «وماذا قال؟»

- «لم يرد الإجابة»

قالت مستنكرة:

- «ولِمَ؟»

- «لم أدرِ يا مديحة.. لم أدرِ، قال لي إنه سيخبرني فيما بعد»

قالت أمي والحنق يملأ صوتها:

- «ولماذا فيما بعد وليس الآن؟ لماذا لا يريد الإجابة إن لم يكن وراءه شيء لا يريد أن يعلمه أحد؟»

زفر أبي بضيق وهو يهز رأسه يمنة ويسرة وكأنه مَلَّ من كثرة المناقشة في هذا الأمر، وأدار ظهره وذهب.

لامس شعور أمي شعوري، فهدوء صوته، وكلامه القليل، وإجابته المغلقة بالغموض، أشعرتني أن وراءه أمرًا ما وسرًّا..

سر كبير جدًّا...

●●●

(3)

ألقيت حقيبتي الجلدية ذات اللون الأسود جانبًا، واستلقيت على ظهري فوق السرير فاردة ذراعي، وأنا أنظر إلى السقف بعينين مثقلتين من التعب.

أطلت أمي برأسها من خلال الباب بعد أن طرقته بهدوء، وقالت:

- «هل أعد لكِ الطعام حبيبتي؟»

نظرتُ تجاهها، وهززت رأسي ببطء نافيةً:

- «لا يا أمي لقد أكلت في الجامعة»

فتحتْ أمي الباب أكثر -وهي واضعة يدها اليمنى على المقبض ويدها اليسرى على خصرها-، وقالت بضيق:

- «ألم أحذرك مئات المرات يا حنين من تناول الطعام بالخارج، خاصة من تلك المحال التي تنتشر بكثرة أمام الجامعات ولا نعرف من أين يأتون بمكونات وجباتهم ولا كيف يعدونها»

- «كان يومًا مليئًا بالمحاضرات وشاقًّا، وشعرت بالجوع فلم أستطع الانتظار حتى أرجع إلى البيت»

- «عرضتُ عليكِ مرارًا وتكرارًا أن أعد لكِ الشطائر بالبيت وأنتِ ترفضين»

قلت لها وأنا أبتسم:

- «كبرنا على الشطائر يا أمي»

أكملتُ وأنا أرسم بيدي هيئة كوب وأحاول أن أشغلها عن هذا الحديث قائلة:

«كل ما أحتاج إليه الآن هو كوب دافئ من الحليب»

- «حسنًا سأعده لكِ»

قالتها أمي وهى تجذب الباب وتهم بالخروج، ولكن دفعته ثانية وقالت:

- «ما رأيك خلال هذا الوقت تبدلين ملابسك وتخرجين تجلسين معنا قليلًا؟ فأبوكِ على وصول وأنتِ تعرفين أنه يفرح كثيرًا عندما يجدكم جميعًا بانتظاره»

- «حسنًا سآتي»

أغلقتُ الباب وراءها وذهبت، أدرتُ نظري إلى السقف، ثم جلستُ بمنتصف السرير وأنا عاقدة قدميّ أمامي وأضع يديّ عليهما، نظرتُ حولي وأنا أتنهد..

لا أريد الخروج.. لا أريد الجلوس مع أبي وآسر بالرغم من حبي للقائهما، صرتُ أخشى التجمع معهما فهما لا يكفان عن الحديث عنه.

فأبي دائمًا ما يمدح في أخلاق حمزة وسمته وحفاظه على دينه، كنتُ أشعر أنه يريد أن يثبت لأمي أنه كان على صواب في قراره عندما أراد القدوم به إلى بيتنا وأنَّ ظنها به ليس بمحله.

ولكنه لم يعِ ماذا فعل على جانب آخر، ذلك الجانب الذي بداخلي.. الجانب الذي لم تهطل به الأمطار بعد.

لقد وضع أبي بذرة حب حمزة في قلبي دون أن يدري، كل صفة يذكرها به تلمس شيئًا بروحي؛ فهذه الصفات هي ما أريدها في فارس أحلامي.

متدينٌ.. خلوقٌ.. مُهذبٌ.. عاقلٌ.. رحيمٌ.

حتى آسر الذي لم يتقبله في البداية صار يحبه ويجذبه اطلاع حمزة الجيد على العالم الإلكتروني، بل إن آسر بالرغم من إلحاحنا الشديد عليه بأن يمارس أية رياضة وأن يحد من عكوفه على تلك الألعاب الإلكترونية فإنه بدأ بالابتعاد عنها قليلًا هذه الأيام؛ لأن حمزة نجح في إقناعه بممارسة كرة القدم معًا لمدة ساعة يوميًّا؛ لأن ذلك سيكون جيدًا لتقوية جسده وعقله أكثر من الألعاب الإلكترونية.

أصبحتُ تدريجيًّا أهتم لسماع أخباره، وأنتظر أن يقول عنه أبي أو آسر أي شيء، أحس أنني أتورط بمشاعري أكثر كل يوم رغمًا عني، فمشكلة الحب أنه يتسلل بنعومة داخل قلبك ويبدأ يكبر ويكبر رغمًا عنك حتى تقف ذات يوم وتُذهل من حجمه.

الحب هو ذلك الطريق الذي تجد نفسك واقفًا عليه فجأة فلا تستطيع الرجوع ولا تعلم ما أنت مُقبل عليه.

أحيانًا أشعر بالحيرة في أمري، هل هو يستحق هذا الشعور؟ وهل به من الصفات ما أتمناها حقًّا؟ ولهذا تعلقت به؟

أم أنه قلبي التَّعِبُ يريد أن يرتاح قليلًا على ضفة حب تمنحه الحيوية من جديد فينبض نبضًا مختلفًا طالما اشتاق إليه.

ولكن ما يجعلني أعدل عن تفكيري الأخير هذا هو أنني منذ أن دخلت الجامعة وأنا أرى الكثير من الشباب حولي، إِنْ كان قلبي يلهث وراء حب والسلام لماذا لم يلفت نظري أحدهم؟ قد لا أعلم عنهم الكثير؛ وذلك لقراري من بداية الجامعة بعدم الاختلاط أو الجلوس في تلك التجمعات بين الشباب والفتيات للتسلية، وبعدم الحديث مع أي شاب إلا للضرورة إلا أن بعض الشباب بدفعتي ذاع صيتهم بحسن خلقهم وبتفوقهم ولم يجذبني أحد منهم مطلقًا.

حككْتُ جبهتي وأنا أشعر ببوادر صداع تجتاح خلايا عقلي؛ فيحل ضيفًا ثقيلًا على رأسي هذه الليلة.

سمعتُ صوت أبي خارجًا وهو يلقي السلام، قمتُ بخطوات متثاقلة، وخلعتُ سترتي، وألقيتُ بها على المشجب، وبدأتُ في ارتداء ملابس البيت.

أخذتُ وقتًا طويلًا حتى استطعتُ الخروج، كان الإرهاق يتملكني وانعكس ذلك على تحركاتي الكسولة.

خرجتُ من غرفتي متجهة لغرفة المعيشة ببطء وخمول، قام آسر من مقعده عندما رآني ومدَّ ذراعيه وأحنى رأسه بشكل درامي قائلًا:

- «ها قد أتت الملكة وتكرمت على الرعية بحضورها»

ضحكتُ وأنا أنظر إليه، قائلة:

- «تعبى اليوم لن يساعدني في الرد عليك أيها المشاغب»

نظر إلي أبي مشفقًا، وهو يقول:

- «لماذا لم تنامي يا حنين وتريحي جسدك يا حبيبتي؟»

ابتسمتُ وأنا أتحرك نحوه، وقفتُ خلفه لففتُ يدي حول رقبته قائلة:

- «كيف أنام وأبي حبيبي لم أره طوال اليوم؟!»

نظرتْ إلينا أمي نظرة ساخرة وعلقت:

- «أدام الله العشق بينكما»

ثم نظرتْ إلى آسر الذي كان منهكمًا بطبق كبير من الفيشار المحلى بالكراميل، قائلة:

- «يا لحظنا يا آسر ليتنا نحظى بجزء منه»

نظر إليها أبي وهو يربت على يدي، ويقول:

- «حنين حبيبتي هي وآسر ولكن أنتِ يا مديحة لك وضع خاص بقلبي.. أنتِ الأساس»

ظهر الخجل على وجنتي أمي وهي تبتسم ببراءة وتنظر إلى أسفل.

سحبتُ يدي وأنا أنظر إلى أبي بغيرة كاذبة، وأقول متجهة لمقعدي:

- «اللهم ارزقنا يا رب»

ضحكنا جميعًا، وفتحنا -كعادتنا- كثيرًا من الأحاديث من هنا وهناك، عن يومنا وكيف كان، والأحداث الجديدة التي طرأت على أقاربنا كخطبة أحدهم، أو وضع إحداهن لمولود جميل، كان الصمت يلازمني مع ابتسامتي الدائمة وأنا أستمع إليهم في انتظار أن يمضي الوقت سريعًا؛ لأذهب إلى سريري، فكرتُ في الاستئذان قبل أن يأتوا بسيرته، ولكن شيئًا بقلبي دفعني للجلوس؛ رغبةً في الاطمئنان على أحواله اليوم.

نظر أبي إلى ساعته، ووَجَّهَ حديثه لآسر قائلًا:

- «هيا يا آسر اصعد إلى حمزة، واطمئن عليه، وتأكد أنه أخذ الدواء»

أومأ آسر برأسه موافقًا، واتجه صوب الباب، أشاحت أمي بنظرها بعيدًا وهي تطلق زفرة تنم عن ضيق، وقالت:

- «لازلتَ تصر على مكوثه في البيت يا طارق بعد ما حدث اليوم!! كنتُ أظن أنك ستطلب منه الرحيل».

وضع أبي يده على ذقنه وبدتْ الحيرة على وجهه، كان كلام أمي غريبًا ولا أفهمه.. عن أي حدث تتكلم؟ وما قصة الدواء التي ذكرها أبي في البداية؟

رفعتُ كوبَ الحليب الذي أعدته أمي إلى شفتيّ وأنا أتصنع اللامبالاة، وسألتها بعد أن أخذت رشفة منه:

- «وماذا حدث اليوم؟»

اتجهت أمي نحوي وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال لتحكي ما حدث، قالت -وهي منفعلة-:

- «لم يصلِ حمزة مع أبيكِ منذ يومين مما دفعه للقلق عليه اليوم صباحًا والصعود إليه فوجده مريضًا جدًّا»

قاطعتُ أمي ولا تزال اللامبالاة تلزمني:

- «وماذا به؟»

- «أُصيب ببرد شديد وارتفعت حرارته، وكانت حالته سيئة، اتصلنا بالدكتور مرتجى زوج صديقتي سعاد؛ للكشف عليه وقال إنه أُصيب بنزلة

معوية ومن الأفضل نقله للمشفى حتى يتم رعايته جيدًا، والعجيب في الأمر أن حمزة رفض تمامًا ذهابه للمشفى، وعندما سأله أبوكِ لماذا؟ رَدَّ برده المعتاد (لسبب متعلق بي)!!»

ثم اتجهتْ بالحديث إلى أبي وهي على انفعالها:

«ما هو السبب؟!! ما كل هذا الغموض وهذه الأسرار.. لماذا يُحيط نفسه بكل هذا الكتمان؟! من حقنا أن نطمئن لمن يسكنون بيتنا يا طارق، أعلم أنك تراه شابًّا جيدًا وأنك تحسن الظن به، ولكن طريقته هذه تثير الكثير من الأسئلة حوله»

رَدَّ أبي ولا تزال الحيرة بادية على وجهه:

- «لا أعلم.. أنا كذلك في حيرة من أمري، لماذا أَصَرَّ بهذا الشكل على عدم الذهاب إلى المشفى؟! هذه الأمور بدأت تثير ريبتي أنا أيضًا»

ثم نظر إلى أمي، وأردف:

- «على العموم وصف له دكتور مرتجى علاجًا، وقال إنه سيتحسن خلال أسبوعين سنرعاه فيهما، ولن أضغط عليه بأية أسئلة»

صمت أبي برهة، ثم قال -وهو يعقد حاجبيه- حازمًا:

«وبعد الأسبوعين إما أن يخبرني بأمره أو أن يعود من حيث أتى»...

•••

(4)

أيقظني صوت دقات قطرات المطر على نافذتي، هببت من سريري وأنا ألتقط أطراف شالي الأرجواني وأدثر به جسدي؛ خوفًا من برد محتمل.

كنت أريد أن أُمتع عيني بمشهد هطول المطر؛ فسماء القاهرة بخيلة ولا تجود بالكثير منه.

اقتربت من النافذة ومددتُ يدي نحو المقبض وحركته، فلفحني الهواء البارد ولامستْ وجنتيّ بعضُ قطرات المطر المنحرفة عن مسارها، شعرتُ وكأنها أنامل رقيقة تداعب وجهي بخجل.

نظرت إلى السماء وقد غطتها السحب بلونها الفضي، فأضفت عليها سحرًا خاصًّا، أغمضتُ عيني وأنا أردد الدعوات بداخلي.. دعواتي التي لا أستطيع أن أخبرها لأحد.

ما كان يقطعني عن هذا الجمال سوى الضجة التي كانت تحدثها أم سعد بسبب جر الأثاث لتنظيف المنزل، فتحتُ الباب في ضجر متجهة إلى الحمام بكسل، توقفتْ أم سعد عن جر إحدى المقاعد عند رؤيتي، وسألتني بلكنتها الريفية وقد بدا على وجهها القمحي القلق:

- «هل أيقظتك؟»

- «لالا يا أم سعد أيقظني المطر»

- «أرأيتِ يا حنين كيف هطل المطر بغزارة؟! كانت الشمس مشرقة من ساعة واحدة.. سبحان الله»

أكملتْ وقد ظهر على ملامحها علامات الإشفاق:

- «آسر المسكين نزل إلى مدرسته قبل أن تمطر»

دلفتُ إلى الحمام، وأغلقتُ الباب، وأنا أُطمئنها:

- «لا تقلقي يا أم سعد.. آسر يرتدي الكثير من الثياب في الشتاء»

كلما نظرتُ إلى أم سعد تذكرتُ حكمة الله في توزيع الأرزاق؛ فبعضنا يرزقه الله الجمال وبعضنا يرزقه المال، وآخرون يرزقهم الله الصحة مثل أم سعد، رأس مالها هو صحتها التي تستطيع بها أن تساعد بعض العائلات؛ لتحصل على قوتها وقوت أولادها الذين أتت بهم من إحدى القرى بعد وفاة والدهم؛ ساعية لرزق يمنح عائلتها الأمان.

بدأتُ بفرش أسناني ببطء وأنا أنظر إلى المرآة، أوقفني قرع جرس الباب المستمر، تعجبتُ وأنا أتساءل بداخلي مَنْ يأتينا الآن؟!!

فتحتْ أم سعد الباب، سمعتُ صوت خالي وهو يقول مستغيثًا:

- «أحضري لي منشفةً يا أم سعد.. أغرقني المطر»

خرجتُ سريعًا، فوجدته يقف ساكنًا كالتمثال عند مدخل البيت، وتتساقط منه قطرات الماء، أضحكتني وضعيته، فقلت بتهكم:

- «ما هذه المفاجأة الرائعة؟»

قال خالي منزعجًا:

- «حقيقة لم تكن مقصودة، كنت في طريقي للعمل حتى هاتفني صديق لي وقال إنه من الأفضل أن أرجع؛ لأن الطرق توقفت بسبب المطر، ولم أجد ما يرجعني إلى البيت وكنتم الأقرب لي، فتمشيت إليكم وأخذت هذا الحمام البارد»

صمتَ برهة، ثم أكمل متعجبًا وهو ينثر بعض القطرات عن يده:

- «لا أدري من أين أتى كل هذا المطر!! كان الجو مشمسًا منذ ساعة واحدة فقط»

اقتربتُ منه قليلًا وأكملتُ:

- «الحمد لله أنها أمطرت حتى نراك يا خال، ستقضي اليوم معنا بدلًا من العمل»

ابتسم لي وقد ذهب عنه الضيق، ثم سألني:

- «أين آسر؟ هل ذهب إلى مدرسته؟»

- «نعم، وأظن أنه يندب حظه الآن بعد تغير الجو»

ضحكنا أنا وخالي ونحن نتخيل منظر آسر، أتت أم سعد وأعطته المنشفة وبعض الثياب الجافة من ملابس أبي، وهي تخبره:

- «سأعد لك مشروبًا ساخنًا حتى تدفأ يا سيد محمود»

عدتُ إلى غرفتي؛ لحين انتهاء خالي من تبديل ملابسه، فتحت الدرج وأخرجتُ بعض الأوراق بيدي، وتناولت باليد الأخرى قلمين من أقلام الخط العربي من الكوب المليء بالأقلام على المكتب.

أطل خالي مبتسمًا، وأنا بانتظاره بغرفة الطعام أجلس على المائدة وقد بدا أفضل حالًا.

ابتسمتُ وأنا أشير إليه بالأقلام قائلة:

- «مضى زمنٌ ولم نمارس هوايتنا المفضلة معًا»

ظهر في عينيه ذلك الشغف الطفولي، وقال متحمسًا:

- «نعم، هيا لنبدأ»

أتذكر عندما كنت طفلة وأنا أتابع خالي باهتمام وهو يمسك بإحدى أقلام الخط العربى ويكتب لنا لوحاتنا المدرسية فتخرج بشكل جمالي رائع.

غرس بداخلي حب هذا الفن وتعلمتُ على يده أنواع الخط المختلفة، وبرعتُ في الديواني منها، وصرنا نمارس هوايتنا معًا كلما سنح الوقت بذلك.

أجمل ما في الخط العربي سلاسته ونعومة جريان الحبر على الورق، فتخرج الحروف بشكل بسيط وأنيق، لكن بالرغم من بساطته فهو يحتاج لكثير من التركيز والتدريب؛ للتحكم بزوايا القلم فينتج عن ذلك لوحة فنية بديعة من الكلمات.

لا أعلم كم مَرَّ من الوقت ونحن نكتب.. نكتب آيات قرآنية، وحروف متفرقة، وأبيات من الشعر.

لم يكن يقطعنا عن الكتابة غير بعض مشاغبات آسر بعد رجوعه من المدرسة، أو وقت الغداء، أو محادثات أمي مع خالي لكننا كنا نرجع ونكمل ثانية بالحماس نفسه.

كنتُ أنتبه بشدة وأنا أكتب؛ خشية أن تخط أناملي حروف اسمه بتلقائية بعد أن كتبتها مرات ومرات سابقًا.

كنتُ أكتب ولازال حديث الأرزاق -الذي بدأته صباحًا- عالقًا بذهني، رزقني الله بالكثير وأمتلك ما يود أي أحد امتلاكه، ستر من الله، وعائلة جميلة، وبيت واسع.. أمن وطمأنينة.

لكن هناك رزق لم يأتِ بعد.. رزق يراودني طيفه فيثير الحنين بداخلي إليه رغم عدم معرفتي إياه.

أعلم أن رزقي سيأتيني يومًا ما، كان قريبًا أو بعيدًا لا يهمني، المهم عندما يأتي يرزقني الله الرضا به والسرور بقدومه.

أوقفنا عن الكتابة جرس الباب، نظرنا إلى بعضنا بعضًا باستغراب، وسألني خالي:

- «أ تنتظرون أحدًا اليوم؟» هززت رأسي بالنفي.

فتحت أم سعد الباب، ثم اتجهت لغرفة مكتب أبي وقالت:

- «أستاذ طارق، جاركم السيد حمزة على الباب ويريد رؤيتك»

رد أبي من الداخل:

- «أدخليه يا أم سعد»

سمعنا خطوات تنتقل بخفة مسرعة تأتي نحونا، أطلت أمي وهي تهمس لخالي:

- «إنه الشاب صاحب غرفة السطح، أرجوك يا محمود اخرج وتعرف عليه وطمئني، فطارق طيب القلب وينخدع بالمظاهر وليس لديه خبرة في رؤية حقائق الناس»

أومأ خالي برأسه موافقًا، ثم خرج صوب غرفة الاستقبال.

بقيتُ وحدي بالغرفة وقد شغلني التفكير، تُرى ما سبب مجيء حمزة إلى بيتنا؟!! مَرَّت عشرة أيام منذ مرضه الأخير.. أحدث شيءٌ جديدٌ؟

تحركتُ في خطوة سريعة؛ لمعرفة ما يحدث بالخارج، لكنني وجدتُ أم سعد قادمة أمامي وتدخل إلى المطبخ؛ لتعد مشروبًا لهم، أوقفتها قائلة:

- «أم سعد تأخرتِ اليوم يمكنك أن تذهبي وسأعد أنا المشروب»

- «حسنًا يا حنين لقد تأخرت بالفعل، اقترب الغروب ولا أحب أن أمشي ليلًا، العصير بالثلاجة ضعي لهم منه، وسأذهب أنا الآن»

- «حسنًا في أمان الله.. مع السلامة»

دخلتُ إلى المطبخ وأخرجتُ بعض الكؤوس من الضلفة الزجاجية ذات النقوش الملونة، سمعتُ أبي وهو يقوم بالتعارف بين خالي وحمزة، توقفتُ عن الحركة تمامًا، والتزمت السكون حتى أسمعهم جيدًا، سمعتُ أبي وهو يكمل حديثه قائلًا:

- «حمدًا لله على سلامتك يا حمزة.. أرى أنك أفضل حالًا الآن»
- «نعم، الحمد لله تحسنت كثيرًا»

صمت حمزة برهة، ثم سأل:

- «هل الخالة هنا؟»

رد أبي متعجبًا:

- «نعم هنا.. هل تريدها؟»
- «نعم أريدكما أنتما الاثنين في أمر هام»

ثم قال وكأنه تذكر خالي محمود الجالس أمامه:

- «ومعنا عم محمود بالتأكيد»

شعرت بضربات قلبي تتزايد، مَرَّ في خاطري للحظة أنه ربما علم أن أبي لديه ابنة وأتى لخطبتي.. ربما..

ألقت أمي التحية على حمزة باقتضاب، وقالت:

- «خيرًا يا حمزة؟ قال لي طارق إنك تريدنا في أمر مهم»
- «نعم يا خالة»

ساد الصمت برهة، ثم أكمل بصوت متردد قليلًا:

«أعلم أن لديكم الكثير من الأسئلة عني وعن سبب مكوثي هنا، ومَنْ أنا، ومِنْ أين جئت؟ خاصة أنني أحسست بريبة عم طارق تجاهي بعد رفضي الذهاب إلى المشفى، وليس من اللائق أن أقابل استضافته لي في بيته ببث

الخوف والشك في قلبه؛ لذلك أنا هنا الآن لأفصح عن أمري وأزيل غموضي، ولكن ما سأقوله أرجو أن يظل سرًّا ولا يخرج عبر هذه الجدران»

أردف بصوت متقطع:

– «أنا.. أنا.. أنا لم أكن مسلمًا من قبل، أسلمت منذ عامين ونصف، حمزة هو اسم أطلقته على نفسي بعد أن قرأت جزءًا من سيرة النبي ﷺ وأعجبت بشخصية حمزة عم الرسول، لم ينجب أبي وأمي غيري، من محافظة المنيا وأعمل بمجال البرمجة، توفي أبي منذ سنوات عدة، وأمي امرأة طيبة القلب ولكن بعد وفاة أبي تعلقت بي كثيرًا وخوفها من الفقد جعلها شديدة الطباع معي؛ مما دفعني لكتمان أمر إسلامي عنها لعلمي أنها ربما لن تتقبل هذا الأمر، وخشيت أن تغضب، وكان مقابل هذا الكتمان شعور بالمعاناة طوال فترة وجودي بالبيت، فلم أكن أعبد الله كما يجب، ولم أستطع الحفاظ على صلواتي أو صيامي؛ لذلك أخبرتها أنني سأسافر إلى صديق لي وسنفتح شركة معًا مما يستلزم الإقامة معه؛ لكي نستطيع متابعة المشروع معًا، ولم أكن أكذب في ذلك فصديقي الذي عرفني على الإسلام وأسلمت على يديه هو عمر جاركم بالمنطقة، كان بيني وبين عمر تواصلٌ مستمرٌ ثم انقطع فجأة ولم أدرِ أية وسيلة للوصول إليه فهاتفه دومًا خارج الخدمة، حاولت أن أتذكر عنوانه حتى نجحت في معرفته، فحزمت حقائبي وشددت رحالي إلى هنا، ولما وصلت وسألت عنه أخبرني الناس أنه توفي في حادث، وآلمني هذا كثيرًا، فيعلم الله مقدار حبه ومعزته بقلبي، شعرت بالتخبط ولم أدرِ ماذا أفعل حينها، وجدت

باب المسجد مفتوحًا أمامي فدخلت وصليت ركعتين بكيت فيهما لله وظللت أدعو لعمر بالرحمة ولي بأن يجعل لي مخرجًا، ولم يكن في المسجد سوى عم عثمان الحارس الذي سمع بكائي فتقدم نحوي سائلًا إياي ما بي، فأخبرته أنني صديق عمر وكان يعرفه، أخذ يهون عليّ وأخبرني أنه إذا لم يكن لي مكانٌ فيمكنني المبيت بالمسجد»

صمت برهة، وتابع:

– «بقيت طوال فترة إقامتي بالمسجد أفتح حاسوبي بين الصلوات وأبحث عن وظيفة عمل مناسبة ولم أجد؛ فمجالي يوجد به الكثير من المحرمات والحصول على الحلال فيه أمر صعب حتى جاء يوم وأخبرني عم عثمان ذات يوم أنني لن أتمكن من المبيت في المسجد ثانية، ويجب أن أجد مكاناً آخر من الليلة، وقتها شعرت بضيق كبير في صدري فليس لي أحد هنا أستطيع أن أبقى لديه حتى أجد عملًا مناسبًا، ولا يوجد أمامي سوى الرجوع، جلست أفكر ماذا يمكنني أن أفعل حتى وجدت عم طارق يدخل المسجد ويخبرني أنه يريد استضافتي في بيته دون أن يعرف عني أي شيء سوى القليل لا يعرف من أكون ولماذا مكثت هنا، أدخلني بيته بحب وكرم، فأي خُلق هذا وأي معدن أصيل يدل على صاحبه.

صرت جارًا لكم، وتقربت من عم طارق وآسر الصغير، أحببتهما كثيرًا، وشعرت أني واحد منكم وفرد في هذه العائلة، وشعرت بالألفة وأنا بقربكم، وحَلَّ الاطمئنان في قلبي بجيرتكم، أحسنتم رعايتي وقت مرضي،

ولم تنتظروا مقابلًا، ووجدت فيكم الصدر الأمين الذي أستطيع أن أخبره بأمري دون خوف، والآن وقد علمتم عني كل شيء لكم حرية اتخاذ القرار بشأني، وأي تصرف ستحكمون به سأتقبله بصدر رحب ودعوات من القلب على حسن استضافتكم الفترة السابقة وجميل صنيعكم معي منذ البداية»

أنهى حمزة كلامه، وخَيَّمَ الصمت على المكان لدقائق، لم يتفوه أحد ببنت شفه، أعلم وقع المفاجأة عليهم تمامًا مثل وقعها عليّ..

بدأ أبي بشق هذا الصمت، وقال مرتبكًا:

- «والله لا أدري ماذا أقول لك يا بني، أمرك فاجأني ولا زال عقلي يحاول الاستيعاب»

لم تعلق أمي بأي شيء وربما هذا ما لاحظه حمزة، فقال:

- «لا أريد أن يسبب لكم وجودي إحراجًا، يمكنني أن أرحـ .....»

قاطعه أبي:

- «عن أي إحراجٍ تتحدث يا حمزة؟ اعتبر هذا بيتك وأنك بين أهلك»

- «أكرمك الله يا عم طارق، ولكن مع بداية الشهر سأدفع إيجارًا لغرفتي، فلقد حصلت على فرصة عمل مناسبة»

- «دعنا نتكلم في هذا الموضوع لاحقًا»

- «حسنًا، لقد أطلت عليكم كثيرًا ولا أريد أن أهدر وقتكم أكثر من هذا»

أوقفه خالي قائلًا:

- «على رسلك.. أنت لم تحكِ لنا كيف هداك الله لهذا الطريق»

- «هذه قصة يطول شرحها.. ربما آتي في وقت آخر وأقصها عليكم»

قام حمزة بعد أن ألقى السلام، قام معه أبي وأوصله للباب، توقف حمزة وقال لأبي موضحًا:

- «أنا لم أستطع الذهاب إلى المشفى حينها؛ لأن أوراقي جميعها باسمي القديم ولم أحولها بعد وإذا ذهبت إلى المشفى سيطلبون بطاقتي وكنت وقتها ستتفاجأ؛ لذلك لم أرد الذهاب حتى أشرح لك القصة كاملة أولًا يا عم طارق»

- «لا عليك.. اتضحت لي كثير من الأمور الآن» ودعه أبي وعاد لأمي وخالي، قالت أمي:

- «طارق أتدرك ماذا تفعل؟ هل تدرك حجم المشاكل التي من الممكن أن تأتينا من وراء هذا الشاب؟ لماذا نقحم أنفسنا بأمورٍ هكذا؟!»

علق خالي:

- «وأنا أرى ذلك؛ فوجوده هنا سيسبب لكم الكثير من المشاكل، أظن أنه ذكر حصوله على وظيفة وسيدفع إيجارًا للغرفة، من الممكن أن يرحل ويدفع هذا الإيجار بمكان آخر»

قال أبي بحدة:

- «ومَنْ قال إنني سأطلب منه الرحيل؟!! لن أتركه يذهب لأي مكان بعدما أخبرنا بأمره»

قامت أمي وهي تقول منفعلة:

- «حسنًا لن أتناقش فلقد مللت من كثرة النقاش في هذا الأمر، ولا أعرف ماذا فعل بك هذا الشاب، لن تدرك ماذا تفعل ولن تفيق إلا عندما نتورط جميعنا بمشاكل لا حصر لها، ولكن أية أذية ستحدث لنا من تحت رأس هذا الشاب ستكون أنت المسئول أمامنا عنها يا طارق»

سمعتُ خطواتها وهي تتجه للداخل بعد أن أنهت كلامها، خرجتُ من المطبخ مسرعة قبل أن تراني، قفلتُ باب غرفتي ببطءٍ حتى لا يُحدث صوتًا وجلستُ على سريري وأنا أضم ساقيّ إلى صدري وأحيطهما بذراعي؛ لكي أهدأ قليلًا مما سمعت.

هذه المرة الأولى التي أميل فيها لقرار أبي وأظن مشاعري هي السبب في ذلك، لا أفكر بالأمر كما يفكر خالي وأمي.

فأنا أريده أن يبقى.. رغبت في معرفة سره بشدة، والآن وقد عرفته أشعر أنه انتقل لمكانة مختلفة تمامًا بقلبي..

مكانة أكبر وأعمق بكثير...

•••

(5)

كانت الأوراق منتشرة على الأرض في فوضى عارمة وكأن قنبلة أُلقيتْ على المكان.. وقفتُ فوق سريري وأنا أحك فروة رأسي ناظرة حولي مفكرة في الطريقة المثلى لتنظيف الغرفة بأقل جهد، غالبًا تصل إلى هذه المرحلة بعد خوض حرب شرسة مع اختبارات نهاية العام.

دومًا تنهرنى أمي عن المذاكرة بهذه الطريقة الفوضوية وأنني فتاة مما يعني أنه يجب أن أكون مرتبة ومنظمة في كافة أمور حياتي، أفهمتها أنني أشعر بأن تحصيلي يكون جيدًا وأنا أغرق في كومة من الأوراق، وتحاوطني كلماتها من كل جانب، ولكنها لم تقتنع.

وضعتُ سماعات هاتفي بأذني، وأدرت مكيف الهواء على درجة متوسطة؛ فَحَرُّ الصيف بدأ في الاشتداد.

بدأت أجمع الأوراق من بين أرجاء غرفتي، وأزيل الوريقات من على الحائط في حركة سريعة، أريد أن أنتهي قبل مجيء أم سعد، فيجب أن أساعدها اليوم؛ فلأمي بعض المراسم الخاصة بتنظيف البيت وترتيبه مع حلول فصل الصيف ويجب أن تتم على أكمل وجه.

أكملت عملي ونظفت الغرفة حتى انتهيت أخيرًا، وقد رجعت لحلتها

السابقة، ولم يتبقَ غير بعض الأوراق المبعثرة على المكتب، بدأت بترتيبها وتنظميها ووضعتها بالدرج السفلي.

لمحت وأنا أدفعه للداخل ذلك التوقيع فى ذيل إحدى الأوراق..

«مع تمنياتي بالتوفيق للجميع..

تجميع وترتيب هاشم جلال»

ابتسمت وأنا أتذكر حديث صديقاتي عن هاشم ومدى إعجابهن به؛ فهاشم شاب مهذب، ومتفوق، ودائمًا يحصل على المرتبة الأولى بدفعتي، طويل القامة، نحيل الجسد، ذو بشرة سمراء، وشعر أسود مجعد.

أكثر ما يميزه هو حبه لمساعدة الآخرين، يعطي أوراق مذاكرته الخاصة للجميع ولا يحجب أية معلومات؛ ليتفوق هو أو يتقرب من أحد من أجل مصلحته الشخصية، ولعل هذا سر حب الدفعة له، وهو ما جعل له قاعدة كبيرة من المعجبات أيضًا.

دومًا تتحدث صديقاتي بسيرته ويحاولن معرفة تفاصيل حياته، كل واحدة منهن كانت تتمنى أن يهم بخطبتها، وسؤالهن المتكرر هل سيهم بالارتباط مباشرة بعد التخرج أم سيكمل الدراسات العليا أولًا.

أتذكر نفسي وأنا أسدي النصائح إليهن ألا يتعلقن بالحبال الذائبة والأماني المعلقة غير الواضحة، فتوجه لي واحدة منهن سؤالًا باستنكار:

- «وأنتِ يا حنين ألا تعجبين بهاشم؟!»

فأجيب نافية بقوة:

- «أنا معجبة بإصرار هاشم على النجاح وليس شخص هاشم»

لو تعلم إحداهن ما أصاب قلبي مِنْ تعلق..

ما أعقلنا حين نرتدي ثوب الحكمة لنطل به على الآخرين ونملي عليهم نصائحنا، ونجده أمام عواطفنا مهترءًا رثًّا لا يسمن ولا يغني من جوع.

جلستُ على مقعد مكتبي لأرتاح قليلًا، وقع نظري على حاسوبي فمددتُ يدي إليه وفتحته، دخلتُ على موقع الـ Facebook متجهة إلى خانة البحث، بدأتُ في الكتابة نقرًا «ح..م..ز..ة» ظهر حسابه الشخصي، نقرتُ عليه فذهب بي إلى صفحة الحساب وأنا أتطلع إليها بشغف، زفرتُ بضيق وأنا أقول بداخلي «لم ينشر أي شيء منذ البارحة» أغلقتُ الحاسوب، وأنا أتذكر الفترة السابقة فلقد مرت عدة أشهر على وجود حمزة ببيتنا، وأصبح كل شيء حولي يدفعني لزيادة شعوري نحوه دفعًا مهما حاولت الهرب، كنت أراه أحيانًا بالطريق أثناء عودتي من الكلية ويتصادف هذا مع مروره، وما زاد الأمر تعقيدًا هو اكتشافي لحسابه الشخصي على الـ Facebook من خلال رده على مسابقة أجراها المسجد وكان في الإمكان إرسال الإجابات على الصفحة المهتمة بشؤون المسجد.

كنت أنا صاحبة هذه الفكرة أن ننشيء صفحة لنشاطات المسجد؛ لكي نشجع شباب المنطقة على الذهاب إليه، وتمت الموافقة من قِبل الإمام على أن أقوم بإدارتها.

أتذكر وقت أن رأيت اسمه أعلى الرسالة كم كانت فرحتي حينها كأنني اكتشفت كنزًا ثمينًا، لم أقم من أمام جهازي طوال الليل؛ لأرى جميع ما نشره في السابق.

كان يكتب الكثير من الأدعية والمناجاة، وأحيانًا عن وحدة قلبه، وأحيانًا أخرى أبياتٍ من الشعر عن الحب، أكثر ما لفت انتباهي (نور)، فهي تقوم بالرد عليه باستمرار وتضع علامة الإعجاب على جميع منشوراته وتناقشه في بعض ما يكتبه فيدور نقاشٌ طويلٌ بينهما.

تُرى مَنْ تكون؟ومِنْ أين تعرفه؟ فمن الواضح أنهما مقربان من بعضهما بعضًا.

أتكون هي مَنْ يقصدها بأبيات الحب التي يكتبها؟ أتكون هي المعنية بإجابته عن إحدى أسئلة موقع الـ ask.fm، «هل عشت حبًّا من قبل؟» فكان رده «لا، ولكنني أظن أنني على مشارفه»

أصابتني شظايا الغيرة منها، إنها الغيرة الحمقاء أن تغار على شيء ليس بملكك.

قضيتُ وقتًا كبيرًا بعدها في المكوث على موقع الـFacebook وأنا أتابع بشغف جديد ما ينشر، كنتُ أقوم بفتح حسابه الشخصي؛ لأنظر إليه هكذا فقط، أشعر أنه الشيء الوحيد الذي يجعلني بالقرب منه، أريد أن أعرف عنه أكثر.. أن أكتشف شخصيته أكثر..

أعرف بماذا يشعر الآن؟ وماذا يحب وماذا يكره؟ مَنْ أصدقاؤه؟ وأين يذهب؟

ولم يكن أمامي وسيلة لمعرفة هذا كله إلا بملازمة هاتفي الذكي أكثر الوقت، فيلاحظ هذا أبي وأمي، ويسخر مني آسر قائلًا «أنا أصابني إدمان الحاسوب وحنين أصابها إدمان الهاتف»

عقدتُ عزمي مرات عدة على التوقف وعدم العودة ثانية، ولكن سرعان ما يغلبني شوقي وأذهب لحسابه بعد يوم أو يومين..

صار يضايقني هذا الشعور كثيرًا؛ أنني صرت ضعيفة لهذا الحد ولا أستطيع أن أتحكم بقلبي ولكن مَنْ في الدنيا قلبه بيده؟!

مشاعره تنبض داخلي بقوة، أحاول أن أتحكم بزمام أموري ولا أتورط بمشاعري أكثر من ذلك، ولا أعرف السبيل لهذا.. أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته ببطءٍ، قمت من غرفتي متجهة للخارج؛ لأبدأ ببعض الأعمال بالشقة، وأشغل نفسي عن التفكير، سمعت جرس الباب، اتجهت إليه وفتحته فوجدت الطارق أم سعد، وقد عرّق جبينها الحر.

قضينا نصف النهار أنا وأمي في مساعدة أم سعد، وتخلل هذه الساعات حوارات كثيرة من هنا وهناك وبعض أكواب من الشاي، كنا نترك أم سعد تستريح فقد بدأ الكبر يتسلل إلى صحتها وينال من جسدها، بينما أنا وأمي نكمل العمل وننجز بعض الأشياء حتى شرفنا على الانتهاء.

ابتسمت أم سعد بعرفان قائلة:

– «بارك الله فيكِ يا حنين أنتِ والسيدة مديحة فمنذ أن دخلت إلى هذا البيت وأنتِ صاحبة الستة أعوام كنتما تساعداني في أعمال البيت.. لم تعاملونني يومًا أني خادمة عندكم.. بل دومًا تحسنون معاملتي»

اقتربت منها وربتُّ على كتفها، قائلة:

– «ماذا تقولين يا أم سعد، أنتِ واحدة منا شهدتِ معنا الفرح والحزن، أنتِ من أصل هذا البيت»

وزادت أمي مؤكدة:

– «أنتِ أقرب إلينا من بعض أقاربنا يا أم سعد»

ظهر عليها الخجل من كلامنا، وهي تقول:

– «وأنا والله أشعر كذلك أنني واحدة من هذا البيت»

ثم نظرت تجاهي وتابعت:

«يعلم الله كم أحبك يا حنين، وأحب أن أراكِ يومًا مع مَنْ يرعاكِ ويحافظ عليكِ»

ثم رفعت بصرها إلى أعلى حيث تقبع أمي على السلم الخشبي؛ لتنظيف الستائر وقالت سائلة:

– «سيدة مديحة، هل إذا تقدم شاب لخطبة حنين توافقون؟» تفاجأتُ من سؤالها هذا، ردت أمي ساخرة:

- «ماذا يا أم سعد هل أصبحتِ تعملين خاطبة من ورائنا؟»

- «يا ليتني أستطيع ومن يرفض أمرًا مثل هذا.. المهم لم تجيبي على سؤالي»

- «لا أدري إن كان لديكِ أحد بمواصفات جيدة أخبرينا بها ونرى»

شعرت بالدماء تصعد إلى رأسي، فقطعتُ هذا الحديث الدائر:

- «أنا لا أفكر في هذا الموضوع الآن لا يزال أمامي الكثير لأفعله.. لا زلت صغيرة»

نظرت إليّ أمي نظرة ساخرة، وقالت مستنكرة:

- «صغيرة!! أنتِ عشرين عامًا يا حبيبتي مَنْ هم في مثل سنك لديهم أطفال الآن»

- «أنا لا أفكر في الأمور بهذا الشكل»

- «ومَنْ منا يفكر؟! إننا لم نسعَ لشيء ولكن فرصة أتت إلينا لماذا نرفضها؟!»

بدأت أمي في النزول من على السلم الخشبي، وهي تتابع:

- «أخبريني عنه أكثر يا أم سعد»

تلقفت سؤالها أم سعد وأجابت متهللة:

- «هو شاب من أسرة كريمة وطيبة الأخلاق لا تختلف عنكم في شيء.. يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، خلوق، ومتدين، وحسن الهيئة، طبيب، ولديه عيادة خاصة يكسب منها قوت معيشته»

حَكَّتْ أمي ذقنها وهي تفكر:

- «مواصفات ممتازة، ومناسبة لنا، لكن هل أنتِ واثقة فيهم؟»

- «نعم.. أنا أعمل لديهم منذ زمن وكانت أمه توصيني إِنْ وجدت له عروسة جيدة أخبرها بها على الفور، وكنت سأخبرها عن حنين، ولكن انتظرت حتى تنتهي الامتحانات، وأكلمكم بالأمر أولًا»

قالت أمي وقد بدا عليها الحماس:

- «حسنًا سأخبر أباها وأبلغك»

نظرت إلى أمي وقلت منفعلة:

- «أمي أرجوكِ كفى»

ضحكت أمي متهكمة:

- «يا لدلال الفتيات.. يظهرن الرفض لأمر الزواج ومن داخلهن يتمنونه، يتمنعن وهن الراغبات»

تركتُ ما في يدي وذهبتُ إلى غرفتي مغلقة الباب ورائي، أسندتُ ظهري إلى الباب وأنا أهز رأسي نافية وأردد بداخلي، لا.. لن أوافق على هذا العريس أبدًا.

اقتربتُ من سريري وجلستُ على الأرض، أسندتُ جنبي إليه وأنا أفكر.. ولكن ماذا سأفعل إن اقتنع أبي بهذا العريس بعد أن تخبره أمي ووافق؟ بماذا سأعلل رفضي حينها؟ فحجتي واهية ولن أستطيع إخبارهما بأمنيتي الخفية، وإِنْ

أخبرتهما سينعتاني بالمراهقة الحمقاء التي تعلقت بشخص من خلال الحديث عنه فقط ولم تعاشره ولم تقترب منه حتى، وسيوجهان لي سؤالًا لا أملك إجابته وهو «ماذا بعد إعجابك؟» لن يستطيع أي أحد أن يخبره بمشاعري ويجبره على التقدم لي، وفي الوقت نفسه لن أقدر الارتباط بشخص وقلبي معلق بشخص آخر، ولن تتفهمني أمي أبدًا، ربما يتفهمني أبي إِنْ لمحت له بالأمر من بعيد..

ربما...

***

مرت الساعات سريعًا، وأتى الليل بسكونه، ولا زلت بغرفتي على حالي غارقة في حديث نفسي، أفكر فيما سأقوله لأبي.

لم تكف أمي وأم سعد عن التحدث في تفاصيل هذا العريس طوال النهار، لم أخرج للعشاء فبالتأكيد ستتكلم أمي عن هذا الموضوع وتخبر أبي، وقد تغضب مني إذا أخبرتهما بإصراري على الرفض.

سمعت صوت دقات خفيفة على الباب وبصوت خافت يقول:

- «حنين هل لا زلتِ مستيقظة؟»

صعدت إلى السرير واعتدلت في جلستي:

- «نعم يا أبي تفضل»

دلف أبي إلى الغرفة، وأغلق الباب وراءه جاذبًا مقعد المكتب؛ ليجلس أمامي وهو ينظر إلى عيني باسمًا:

- «كيف حال حبيبتي التي لم أرها طوال النهار؟»

- «بخير يا أبي الحمد لله.. تعبت قليلًا من التنظيف فأحببت أن أرتاح بغرفتي»

- «ولماذا لم تتناولي العشاء معنا؟»

- «لم أشعر بالجوع»

صمت أبي برهة، وتابع:

- «إذًا سأتحدث في الموضوع مباشرة، أخبرتني والدتك عمَّا حدث اليوم، وعن هذا العريس»

ابتلعتُ ريقي وأنا أنظر بعيدًا، اقترب مني وهمس قائلًا:

- «فما رأيك أنتِ؟ أراه شابًّا ذا مواصفات جيدة»

نظرتُ إليه كنتُ أود أن أخبره بكل شيء، ولكن الكلمات انحصرت عن شفتيَّ وأُلجم لساني..

تابع بود:

- «أعلم أن الأمر جديد عليكِ، ومن الممكن أن يسبب لكِ بعض الخوف، ولكن تأكدي أننا لن نرغمك أبدًا على أمر الزواج من شخص لا تريدينه يا حنين، هي مجرد موافقة أن يأتي لبيتنا وتجلسان معًا، ومَنْ يدري لعلك تشعرين بالراحة تجاهه بعدها»

صمت برهة وزاد:

- «صلي استخارة أولًا، وتوكلي على الله، ثم ننتظر لنرى لأي اتجاه ستجري الأمور»

قام أبي بعد أن أنهى حديثه، وقبَّلني بين عينيّ ثم ودعني؛ كي ينام، ترددتُ داخل نفسي؛ فجملته «لعلك تشعرين بالراحة تجاهه بعدها» بدا كلام أبي منطقيًّا.

ربما إن جلست مع هذا الشخص أرتاح إليه وأنسى أمر حمزة ويختفي تعلقي به، ثم إلى متى سأنتظر؟ أنا أتمسك بأملٍ يدفعني للانتظار لعل يحدث ما أتمناه، لكنه أملٌ كاذبٌ لا أساس له، وما أدراني بعد هذا كله ورفضي للفرص أن أستيقظ ذات يوم على خبر خطبته لإحداهن!! فهو لا يعلم بوجودي من الأساس ولعل هذه الفرصة هي الخير الذي ظللتُ أدعو بها طوال حياتي أن يكتبه الله لي حيث كان ويرضيني به.

لا تصري على الرفض يا حنين.. لا تكوني غبية وتعلقي نفسك بالأوهام.. أنتِ في حاجة لحبٍّ يُحيي تلك الورود الذابلة بقلبكِ، ويزرع بنفسك الأمان من جديد.

أنتِ بحاجة لهذه الحياة..

وافقي وابدئي بداية جديدة وانسي كل ما مضى...

●●●

(6)

شعرتُ بالبرودة وهي تتسلل إلى جميع أطرافي، وبخفقات قلبي تتزايد عند سماع جرس الباب، جلستُ على طرف السرير وأنا أمسح العرق الذي تندى على جبيني، أغمضت عيني وسحبت الهواء إلى رئتي في نفس عميق؛ كي أهدأ قليلًا..

لم أتعرض لهذا الموقف من قبل ولا أعرف كيف أجيد التصرف.

وقفتُ أمام المرآة وأنا ألف حجابي ببطء، مضت ربع ساعة لم يتركني فيها التفكير.. تُرى كيف ستكون الجلسة؟ في ماذا سنتكلم؟ وعن أي الأشياء يجب أن نتحدث؟

باغتني طرق أبي الهادئ على الباب، وأطل برأسه قائلًا:

- «حنين هيا يا حبيبتي.. حمزة في انتظارك»

رجعتُ بذاكرتي عندما نطق أبي باسمه عند هذا الوقت قُبيل الفجر، بعد يومين من جلسة أبي معي ليلًا ومحاولته إقناعي بالجلوس مع العريس الذى أتت به أم سعد، وأخبرهم صباح اليوم التالي بموافقتي..

كان أبي وأمي يجلسان على أريكة ليست بالبعيدة عني، وأنا أمارس إحدى هواياتي المفضلة كي الملابس التي كانت مجالًا جيدًا لسخرية آسر مني معظم الوقت، ويقول لي متهكمًا «ستجني الكثير من الأموال إن قررتي العمل كصبي

مساعد في إحدى محال الكي بدلًا من أن تقومي بفتح صيدلية بعد أن تتخرجي».

بدأ أبي حديثه قائلًا:

- «هل أخبرتِ أم سعد يا مديحة؟»

- «لا ليس بعد، هي قادمة غدًا، وسأخبرها بموافقتنا؛ لتبلغهم ونتفق على موعد يأتون فيه إلى البيت إن شاء الله»

صمت أبي قليلًا ثم تابع:

- «إذًا سأعتذر له بعد صلاة الفجر»

- «نعم اعتذر له وأفهمه الأمر»

- «أخاف أن يؤثر الرفض على جيرتنا»

- «لا لن يؤثر يا طارق إن شاء الله، هو شاب متدين ويؤمن بالقسمة والنصيب، ثم إنني لا أفهم كيف يُقدم على طلب كهذا وهو بمثل ظروفه!!»

لم يعلق أبي على كلامها الأخير وأكمل:

- «ألا ترين أنه يجب أن نخبر حنين؟»

- «لالا يا طارق، ولماذا نخبرها بأمر مرفوض من الأساس؟»

تعجبتُ من جملة أمي الأخيرة، ولم أفهم عن ماذا يتحدثان في آخر حوارهما..

شقت تكبيرات صلاة الفجر سكون الليل، وقام أبي متجهًا إلى غرفته مرورًا بي سائلًا:

- «هل انتهيتِ من كي قميصي الأبيض يا حنين؟»
- «هو في يدي الآن يا أبي سأنتهي منه وأحضره إليك»

مضت دقائق انتهيت خلالها من كي القميص، مشيتُ إلى غرفة أبي وأنا أفكر هل أسأله عن ماذا كانا يتحدثان؟ أم ألتزم الصمت؟..

وصلتُ إلى الغرفة وطرقتُ الباب بدقات خفيفة وأنا أدفعه ببطء قائلة:

- «تفضل القميص يا أبي»
- «شكرًا لكِ حبيبتي»

ابتسمتُ له، وأدرتُ ظهري عائدة إلى حيث كنتُ لكني توقفتُ في منتصف الطريق، وفكرتُ في العودة إليه وسؤاله، اتخذتُ طريق الرجوع فوجدتُ أبي واقفًا أمام المرآة يمشط لحيته وشعره، وقد انتشر أريج عطره بالغرفة بعد أن رشه على جسده استعدادًا للصلاة قلت:

- «أبي»
- «نعم»
- «اممم عندما كنت أقوم بكي الملابس.. سمعتك أنت وأمي تتحدثان عن أمر أظنه متعلق بي.. هل هناك شيء يدعو للقلق؟»

أجاب أبي وهو يضم طرفي ياقة قميصه إلى بعضهما بعضًا:

- «لالا يا حبيبتي اطمئني.. كل ما في الأمر أن ابنتنا الجميلة كبرت وأصبحت عروض الزواج تنهال عليها»

- «أهناك أحد آخر عرض عليكم أمر الزواج؟»
- «نعم تكلم معي أحدهم بالأمس وأراد التقدم إليكِ ولكنني سأعتذر له»
عقدتُ حاجبي مستغربة وقد غلبني الفضول:
- «ومن يكون يا أبي؟»
نظر إلي عبر المرآة باسمًا:
- «وهل يهمك الأمر؟»
شعرتُ بالإحراج فحولتُ بصري سريعًا إلى الأرض..
لاحظ أبي هذا فقال ضاحكًا:
- «أعلم أن الفتيات تحب أن تتباهى بكثرة عروض الزواج بين صديقاتها»
ابتسمت في حرج:
- «لا ليس الأمر كذلك يا أبي، هو مجرد استغراب من هذا التوقيت الذي اكتشف فيه الجميع فجأة أن لديكم ابنة ويريدونها للزواج»
أدار أبي وجهه إلي وقال:
- «حسنًا سأخبرك، الأمر ليس بالسر»
تابع وهو يغلق أزرار كُمَّي قميصه:
- «العرض الثاني كان من جارنا.. حمزة»
شعرتُ عندما نطق باسمه وكأنني حلقتُ بقلبي إلى آفاقٍ بعيدة في

أعالي السماء، وأتمايل طربًا وفرحًا بين الطيور المحلقة المتنائية عن تعاسة الأرض ووحشتها..

تعجبتُ كثيرًا.. تأتي أمنيتي الآن بعد أن أعرضتُ عنها؟!

بعد أن قررت أن أتخذ طريقًا آخر غير طريقها..

هذا القانون الغريب الذي يحكم كثيرًا من الأشياء في هذه الدنيا

عندما تزهد في الأشياء تأتيك وعندما تُقبل عليها تُعرض عنك..

اشتعل بيتنا بعدها عندما أبديت موافقتي على الجلوس مع حمزة، نعتتني أمي بالجنون؛ لرفضي الطبيب الناجح ذا المكانة المرموقة وموافقتي على شخص بمثل ظروف حمزة..

كانت تقول لأبي -وهي تدق على الطاولة بأصابعها-: «لن أسمح بالموافقة على أن يأتي لبيتنا ويجلس مع حنين؛ فمعنى هذا أننا نرضى بإمكانية حدوث هذا الارتباط وهذا غير ممكن، قد يكون شابًّا جيدًا كما تقول، وأنا أقدر ظروفه، ولكن بعيدًا عن ابنتي، لن أغامر بابنتي الوحيدة في حياة مضطربة مثل تلك، ماذا سنقول للناس وهو يجلس وحيدًا في الخطبة دون أهله.. مع مَنْ سنتفق على شروط الزواج ولمَنْ سنرجع عندما يحدث خلافٌ بيننا؟، ثم ما يدرينا لعله يرجع عن الإسلام يومًا ما.. ماذا سيكون موقفنا حينها؟!.. بجانب أنه لم يحصل على عمل إلا من فترة قريبة ولا زال في بداية حياته، وحنين مدللة هنا يأتيها كل ما تريده في أي وقت تشاء

ولن تستطيع أن تعيش حياة صعبة كهذه، أنا أعرف كيف تفكر هي بالأمر.. هي تريد أن تسانده في حياته ووحدته وأن تأخذ بيده، ولكن بناء البيوت لا يعتمد على هذه الأمور وحدها، حنين فتاة حالمة وتفكر بقلبها لا بعقلها، هي لا تدري أين مصلحتها، وأنا أعلم أن مصلحتها بعيدة عن هذا الارتباط»

أما موقف أبي فكان في حيرة من أمره، يرى كلام أمي منطقيًّا، ولكنه يرى أيضًا أنه يجب ألا يجبراني على أي موقف سواء بالموافقة أو الرفض، وينبغي أن يفردا لي مساحة من الحرية؛ وأن أحصل على حقي كاملًا في الاختيار.

لم يوافقني أحد في البيت سوى آسر كان يقف معي بقوة، ويدافع عن حمزة ويراه شخصًا مناسبًا.

ربما كانت أمي محقة فيما تقول، ولكنني أفكر في الأمر بشكل مختلف، فأنا أرى شخصًا مثل حمزة وظروفه التي تعرض لها تجعله إنسانًا قادرًا على أن يتحمل مسئولية نفسه بنفسه وليس بحاجة لأحد.

لم يكن يشغلني كلام الناس وماذا سيقولون، كل ما أفكر به أن أبقى بجانبه.. ألا يتعرض لشيء جديد في الحياة وحده، أن نكون معًا في السراء والضراء، وأن نصعد بحياتنا خطوة بخطوة دون مساندة أحد.

لم أكن أريد أن أقف أمام أمي وأكون تلك الفتاة المتمردة التي تعبث المراهقة بقلبها، حاولت عدة مرات أن أجلس معها وأوضح موقفي، فتذهب ولا ترغب في الاستماع إلي وهي تستشيط غضبًا من إصراري على الموافقة.

لم تعرف ماذا تفعل في نهاية الأمر غير الاتصال بخالي؛ ليأتي ويجلس معي ويحاول إقناعي، فهي تعلم مكانته بقلبي، أتى خالي وظل يردد كلامها نفسه، ولكن بهدوء مبتعدًا عن تلك العصبية المفرطة التي تلزم أمي من البداية.

التزم أبي الصمت طوال الجلسة بينما كانت أمي تحاول السيطرة على انفعالها وتساند كلام خالي وتضيف إليه.

أنهيا حديثهما على أمل أنهما نجحا أخيرًا في إقناعي، صمتُّ قليلًا، ثم قلتُ بحدة لم يعهدوها من قبل:

«مع احترامي لكما، ولكن هذه حياتي أنا ولن أدع كلام الناس أو مجرد تخيلات قد تحدث أو لا تحدث يجعلاني أرفض إنسانًا لا أرى فيه عيبًا واضحًا جليًّا!!

هل نسيتما خالد ابن عمتي ووقوف العائلة جميعها بوجهه عندما أراد الزواج بإنسانة أحبها وكانت تكبره بعشرة أعوام، وهاجمه الجميع وضغطوا عليه حتى تركها وتزوج بأخرى لم ير السعادة معها يومًا.. أم هبة التي رأت أن حياتها ستكون سعيدة بجانب إنسان لم يكن له ذنب إلا أنه مر بتجربة مريرة انتهت بالطلاق، وكان هذا سبب رفض أهلها، وتزوجت بإنسان لم يرحمها من سباب وضرب لتنتهي حياتها معه بالطلاق أيضًا وهي تحمل على كتفها طفلًا صغيرًا»

تابعتُ وقد هدأت نبرة صوتي:

- «لن أدع حياتي تسير مثلهما يتحكم فيها الجميع ما عدا أنا، صليتُ استخارة عدة مرات وأرتاح لقراري، كل ما أرجوه منكما أن تسمحا لي بحقي في الاختيار، وأنا على ثقة أن كل أقدار الله خير».

أنهيتُ كلامي، وتحركتُ خارجة من الغرفة متجهة لغرفتي، وقد ساد الصمت، وسكنوا تمامًا وكأن على رؤوسهم الطير..

أغلقتُ الباب وجلستُ على مقعد مكتبي، خرج كل ما مررتُ به في الفترة السابقة في تلك الدموع المتسارعة على وجهي وانفجرتُ في البكاء.

مضى قرابة ساعة كنت قد هدأت خلالها قليلًا، سمعتهم وهم يتناقشون فيعلو صوتهم تارة وينخفض تارة حتى ناداني أبي في النهاية، وقد هدأوا، خرجتُ متجهة إليهم والقلق يتملكني، وجدتُ أمي وهي تشيح بنظرها بعيدًا ويظهر عليها الضجر.

وقبل أن يبدأ أبي كلامه قامت من مكانها، وقالت غاضبة:

- «حسنًا إِنْ كنتم تريدون أن تتموا هذا الأمر فكما تريدون، ولكن لن يكون بمباركتي أبدًا»

اقتربتُ منها؛ كي أُهدئها لكنها أزاحتني جانبًا وانصرفت، ابتسم أبي وخالي لي؛ ليخففا عني ردة فعل أمي.

تضايقتُ في البداية أن يتم الأمر دون مباركتها، ولكنني كنتُ على أمل أن ترى في حمزة ما يدفعها إلى تغيير موقفها تجاهه عبر الأيام، وتثني على موافقتي حينها.

راودني شعور القلق بعدها وأرهقني تفكيري بسؤال واحد وهو «ماذا إِنْ اكتشفتُ حمزة آخر مع الوقت؟» أعرف عنه بعض الأشياء ولكن الكثير لا يظهر إلا بالمعاملة المتبادلة.. طوال الفترة السابقة أحببتُ شخصًا غامضًا، بعض الأشياء عندما تقترب منها وتزيل غموضها تزداد حبًّا وتعلقًا بها وبعضها الآخر تتمنى لو أنك لم تقترب منها قط، لو أنها بقيت بغموضها لكان أفضل كثيرًا..

لا أعلم ماذا سأفعل حينها ولكن كلي أمل أن يكون أحسن مما أظن.

أتاني كل ما حدث في لمحات سريعة مرت أمام عيني وأنا أتأبط ذراع أبي وهو يرافقني إلى غرفة استقبال الضيوف، وصلنا فتقدمني أبي بخطوة، وأشار إليَّ بالتقدم والجلوس..

جلس أبي بجانب أمي، وآسر على الأريكة، وقد ظهر على وجه أمي قليلٌ من علامات رفضها..

وددتُ أن ألقي السلام ولكن أحسستُ أن صوتي ذهب من حلقي وأنني أتنفس بصعوبة كأن الأكسجين ينفذ من حولي وأحاول أن آخذ أكبر قدر منه؛ لأستطيع مواصلة الحياة، تمنيت ألا يكون هذا الاضطراب ظاهرًا على وجهي وأن تبقى ملامحي هادئة وثابتة.

شبكتُ أصابعي وأسندتها إلى ساقيّ وأنا أنظر إلى الأرض، لم أستطع أن أرفع بصري عاليًا وأنظر إليه وإن كانت رغبتي غير ذلك..

خيم الصمت قليلًا فقطعه آسر مشاكسًا:

- «إن سكتُّم أكثر من ذلك سأقوم وأكمل لعبتي وستخسرون عضوًا فعالًا وأساسيًّا بهذه الجلسة» ضحك أبي وحمزة وابتسمت أمي.

بدأ أبي في الحديث بعد كلام آسر قائلًا:

- «حسنًا سأقوم بمهمة التعارف بينكما.. حمزة أعرفك بابنتي حنين في كلية صيدلة الفرقة الرابعة تبلغ من العمرعشرين عامًا..

حنين أعرفك بـ....»

قاطع أبي هذا الصوت الهادئ الذي سمعته أول مرة عندما دخل بيتنا وقال بأدب:

- «دعني يا عم طارق أتولى عنك هذه المهمة»

نظر تجاهي وتابع:

- «كيف حالك يا حنين؟»

أجبتُ بصوت يكاد يُسمع:

- «بخير الحمد لله»

- «حسنًا.. أعرفك بنفسي.....»

أخذ حمزة في التحدث عن نفسه بطلاقة، كان حديثه مرتبًّا ومنظمًا، وكأنه قام بترتيبه مسبقًا، تكلم كثيرًا، ولم أمل من حديثه قط.. ربما لاحظ هذا الضيق في عين أمي وشعر بخوفها من الخوض في هذا الارتباط؛ فتحدث في كثير من النقاط المتعلقة به دون سؤاله وبعث برسائل اطمئنان خفية إلى قلبها..

تحدث عن أحلامه وآماله بفتح شركته الخاصة مستقبلًا، وأن عمله الآن في الإشراف البرمجي على عدة مواقع هو مجرد بداية.

كان يُناديني في أثناء الحديث باسمي، ويتكلم عن نفسه أولًا، ثم يتجه إلي سائلًا «وماذا عنكِ في هذه النقطة؟»

حديثه اللين المسترسل استطاع أن يزيل تلك الرهبة بداخلي، فشعرتُ وكأننا جلسنا مرات ومرات من قبل، وتحدثتُ عن نفسي أنا الأخرى بثقة.

أحببتُ مرونته في الكلام، وتابعتُ بحرص صوته وانفعالاته،

بدا أمامي واضحًا وزال غموضه لأزداد به تعلقًا، لم أتمكن من إطالة النظر إليه إلا عندما يتجه بالحديث لأمي أو أبي وآسر، لم أره بوضوح هكذا من قبل.

ملامحه يظهر عليها ثقته بنفسه.. بشرته قمحية، عيناه بنيتان، ذو حاجبين كثَّيْن.. نظارته الزجاجية ذات حامل كحلي اللون، شعره ناعم ممشط للخلف لونه بني مائل للسواد، خفيف اللحية، عريض الكتفين، ذو بنية قوية.

التزمت أمي الصمت طوال الوقت بينما علق أبي وآسر على بعض الأشياء، إلا أنهما تركا لنا المساحة الأكبر للحديث..

مضى الوقت سريعًا، ونظر حمزة إلى ساعته، ثم ابتسم قائلًا:

- «مرت ساعتان ونصف لم أشعر فيها بالوقت، هكذا هو الإنسان عندما يشعر أنه يجلس بين أهله»

ثم اتجه بالحديث إلى أبي وأمي، وتابع:

- «أريد قول شيء قبل أن أرحل»

قال أبي:

- «خيرًا؟»

أكمل حمزة بصوت ودود:

- «أنا اتخذتُ قرار الارتباط بحنين قبل معرفتي أنها ابنتكم، كنتُ أحيانًا ألتقيها بالطريق في أثناء ذهابي إلى الصلاة.. رأيتها خجولة تغض الطرف، كل مرة كنت أراها فيها تتكون داخلي صورة الفتاة التي أود أن تكون سندًا وعونًا لي في ديني ودنياي التي أواجهها وحدي حتى حزمتُ أمري وحملتُ قراري إلى إمام المسجد وسألته إن كان يعرف أهل تلك الفتاة؛ لأتقدم إليها فأخبرني أنها ابنتكم ولم أتعجب حينها كثيرًا أن تكون هذه النبتة الصالحة هي نتاج هذا البيت الطيب، وأنا الآن أشعر بالراحة التامة لقراري هذا، وفي انتظار رد ابنتكم الكريمة»

انتهى من كلامه وهو يرمقني بنظرة عابرة مُحبة، شعرتُ أنه يحاول أن ينقل إلي رسالة مفادها أنني أتيتُ ليس من أجل أن أباكِ صاحب العرفان عليّ ولكنني أتيت من أجلك.. من أجلك أنتِ..

قام حمزة واستأذن للرحيل بعد أن سلم علينا وأوصله أبي للخارج.

دخلتُ إلى غرفتي على الفور، لم أكن أريد التحدث.. لا أريد أن أدخل في مناقشات مطولة تضيع حالة السعادة التي بداخلي.

قفزتُ إلى سريري وأنا أحدق بالسقف وتتراءى أمامي الكثير من التخيلات

خطبتنا.. عقد قراننا.. زفافنا..

فستاني الأبيض وبذلته الأنيقة

بيتنا البسيط.. صلاتنا الأولى وهو يصلي بي إمامًا

حديثنا معًا ومشاهدتنا للقمر..

ابتسمتُ وأنا أتذكر ملامحه، سأحكي له عن كل شيء في حياتي وأشركه في كل أمري.. سأجعل أمطاره تُحيي كل شيء جميل بروحي، وأرعى بساتين قلبي بقربه، ونفجر ينابيع الود معًا بعد سنين عجاف.

تذكرتُ أبيات الشعر التي كان يكتبها على موقع الـFacebook وكلامه الأخير قبل أن يرحل، شعرتُ بالفرح فقد كان يقصدني أنا بها، أنا الحب الذي كتب أنه على مشارفه.

خطر ببالي أنه ربما يكون كتب شيئًا هناك فلقد مرت ساعة على رحيله، قفزتُ من سريري وأنا أنتقل بخطوات سريعة إلى مكتبي وأفتح حاسوبي، دخلتُ على حسابه الشخصي فوجدت آخر ما نشره منذ عشرين دقيقة..

«يا حبيبي فرحة لا تنتسى

ضمنا في حسنها هذا المسا

كاد فيها خافقي أن يلمسا

مهجة النجم ابتهاجًا باللقا»*

وضعتُ يدي على خدي وقد ضممتُ أصابعي إلى باطن كفي، ابتسمتُ خجلًا وأنا أهمس..

نعم.. هي فرحة لا تُنتسى...

●●●

* الشاعر سليم عبد القادر

(7)

نظرت إلى المرآة بنظرة فاحصة متأملة إياي وقد داهمتني الحيرة، اتجهت ببصري؛ لأرى انعكاس ظهري في المرآة الخلفية من خلال المرآة التي تقبع أمامي.

سألت مترددة:

- «أمي.. ما رأيك؟»

أجابت أمي بشيء من الاقتضاب:

- «جيد»

تابعت:

- «أشعر أنه مناسب.. رقيق.. بسيط وليس به الكثير من التفاصيل وملائم لخطبة في البيت»

أدرت رأسي إليها وأنا أكمل بحماس:

- «والأهم من ذلك أنه بلوني المفضل.. اللون الوردي»

أومأت أمي برأسها وهي تتصنع الابتسام، لم أشأ أن أخوض تجربة الفرحة الأولى بكل شيء جديد أقدم عليه في ارتباطي بحمزة دونها فأنا كما تقول هي دائمًا فرحتها المنتظرة.

لا أريد أن أحرمها متعة إحساس الأم بالمشاركة في تفاصيل ارتباط ابنتها حتى إِنْ كانت لا تزال غير مباركة لهذا الارتباط..

أدرت وجهي إلى المرآة؛ لأعيد التأمل بالفستان وهو ينسدل بنعومة قماشته الحريرة وبخصر مزمزم وبه من الأعلى بعض التطريز، نظرت إلى الفتاة التي كانت تقف بانتظار الرأي النهائي قائلة:

- «سآخذ هذا الثوب»

- «حسنًا.. سأحجزه الآن باسمك.. خطبة مباركة يا عروس»

ابتسمت عند سماع كلمتها الأخيرة، نعم أنا عروس.. مر شهر ونصف منذ أن جاء حمزة لطلب يدي وجلست معه خلالها مرتين..

كل مرة كنت أجلس فيها أكتشف الكثير من الأشياء المشتركة بيننا، أو ربما دافع الحب الكبير بداخلي هو ما جعلني أشعر أننا متشابهان.. نصفان ويجب أن يلتحما؛ ليكملَ بعضهما بعضًا.

تركت لقلبي العنان؛ ليدفأ بهذا الشعور الرائع الذي أشعر به لأول مرة في حياتي، خاصة وقد تمكن التعلق بي من حمزة وأرى ذلك جليًّا في عينيه..

اجتاحت مشاعره حنايا قلبي وتغلغلت داخلها بقوة في هذه الفترة القصيرة.

تم الاتفاق على شروط الزواج بينه وبين أبي، عرض أبي أن تكون إقامتنا بإحدى شقق البيت ووافق حمزة بشرط أن يدفع إيجارها كاملًا مثل أي مستأجر، حدد أبي موعد الزفاف على أن يكون بعد الانتهاء من دراستي الجامعية.

كان أبي دائمًا يقوم بتيسير الأمور، لم يبالغ في طلبات الزواج فهو يعلم ظروف حمزة وهو ما لقي اعتراضًا كبيرًا من أمي فهاجمت أبي مستنكرة:

- «لماذ تفعل ذلك بابنتنا الوحيدة؟!! لماذا تكون أقل من بنات أعمامها وعماتها؟! وهي أفضل منهن»

فيجيب أبي:

- «أتانا حمزة بظروفه هذه ووافقنا عليها وليس من المروءة أن أحمله ما لا طاقة له به، وأنا أعلم بحاله»

ويزيد أبي في محاولة منه لإقناعها:

- «ثم يا مديحة ألا تذكرين عندما تقدمت لخطبتك ولم أكن أملك الكثير من الأموال، وسهل أبوكِ -رحمه الله- أمور زواجنا بل إنه ساعدنا من أمواله ليتم هذا الزواج»

قالت أمي بانفعال:

- «لكن ظروف زواجنا مختلفة يا طارق.. لا مجال للمقارنة بينهما، هذا الارتباط له ظروف خاصة ويجب أن نضمن حقوق ابنتنا كاملة»

زفر أبي بضيق وهو يهز رأسه بأسف، وقام بعدها..

أحببت ذلك منه كثيرًا، فأنا أريد أن أكون تلك العروس المباركة قليلة المهر كما أخبرنا رسولنا الكريم.

قام حمزة بتغيير جميع أوراقه الشخصية لاسمه الحالي خلال الفترة السابقة مما دفعه لمصارحة أبي برغبته في عقد قراننا، لكن أبي رأى أن تلك الخطوة مبكرة جدًّا، ومن الأفضل أن تكون هناك فترة جيدة لنتعارف على بعضنا أكثر.

أوشك عيد الأضحى على المجئ ورأوا أنها مناسبة جيدة لتحديد موعد الخطبة لتكون ثالث أيام العيد، أحببت أن نحتفل بها في البيت فالأمر لا يستحق أن يكون بمكان أكبر.

أتذكر يوم شراء خواتم خطبتنا، كان يومًا جميلًا لطيفًا، والخواتم بسيطة ورقيقة، دبلة من الذهب، وخاتم مرصع بالفصوص اللامعة، وخاتم من الفضة لحمزة.. أشياء قليلة ولكنها أسعدتني كثيرًا، لم يكن يهمني أن أشتري الكثير من المشغولات الذهبية.. يكفي أنني أحمل خاتمه.

انتظرت أمي يومها حتى رجعنا إلى البيت لتصرخ وهي تندب حظ ابنتها الوحيدة، وتذكر كثرة الذهب المقدم لبنات أقاربنا في خطبتهن وأنني أقل منهن في كل شيء..

لم ألتفت لهذا العويل فأنا سعيدة بما حصلت عليه، اتجهت لغرفتي فور وصولنا وبداخلي شغف كبير لأطلع على هذا الكتاب الذي أهداه لي حمزة حينها وأعرف محتواه، مررت أصابعي عليه لألتمس مواضع أصابعه فمن المؤكد أنه قرأه قبل أن يهديه لي، وجدتُ الكتاب منبعجًا قليلًا من المنتصف، فحصتُه فوجدتُ زهرة حديثة القطف ذات لون وردي تقبع بين طياته عند بداية فصل يحمل عنوان (الحب بين الزوجين)، كانت مرسالًا يحمل مشاعره إليَّ..

قربتها من أنفي وأغمضتُ عيني وأنا أستنشق عبير عطرها الزاكي وأمررها على وجنتي بلطف، ظلتْ ليلتها بجانبي وهي تنام على وسادتي رفيقًا حنونًا وتهمس لي بكلمات صامتة لا يسمعها أحد غيري...

***

بدأت تكبيرات صلاة العيد تصدح في الأرجاء، وأصداء بهجتها تعم كل شيء، تعالت الأصوات بالتكبير من الرجال والنساء والأطفال..

الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله..

الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

ما أجملها.. أشعر أن جزءًا كبيرًا من فرحة العيد يكمن في التكبيرات.

وقفنا أنا وأمي نتبادل التهاني مع جيراننا بعد أن انتهينا من الصلاة..

وقفتُ بينهم وأنا أنظر بين الناس رمقًا باحثة عنه، مر أسبوعان على آخر جلسة جلسناها معًا حتى رأيتهم من بعيد قادمين نحونا.. أبي وآسر وحمزة، أشحت بنظري لمكان آخر حتى لا يلاحظون مراقبتي لهم، وصلوا إلينا وبدأ أبي حديثه:

- «كل عام وأنتم بخير»

ردتْ أمي:

- «كل عام وأنت بخير يا طارق»

واتجهتْ لآسر قائلة:

- «كل عام وأنت بخير يا آسر»

كان واضحًا أن أمي تعمدت تجاهل حمزة في التهنئة.. ليستوعب هو الموقف سريعًا قائلًا:

- «كل عام وأنتم بخير»

ردت أمي له التهنئة بصوت مضطر.. زاد حمزة لكي يمرر هذا الموقف:

- «العيد هذه السنة مختلف تمامًا بالنسبة لي فهذا أول عيد لي بينكم»

ابتسم له أبي وهو يربت على كتفه، بدأ أبي وأمي حديثهما عن بعض الأمور الخاصة بذبح الأضحية، وكيف سيتم توزيعها على الأسر الفقيرة حولنا..

كنت أسمعهما ولا يشغل بالي هذا الحديث بقدر ما يشغلني حمزة الذي يقف على بعد خطوات مني.. أود أن أبدأ معه الحديث وأهنئه بالعيد ولكن الخجل يمنعني.

باغتني بتحويل نظره إليّ وقال مبتسمًا:

- «كل عام وأنتِ بخير يا حنين»

أجبتُ وقد بدا صوتي مرتبكًا من المفاجأة:

- «كل عام وأنت بخير»

بدتْ على وجهه علامات الاستغراب وهو يسألني مستنكرًا:

- «حنين.. لماذا لا تنطقين اسمي؟ لا أتذكر أنك ناديتِني به إلا مرة أو مرتين»

تابع بشكل طفولي:

- «هيا فلنعد الحوار ثانية.. كل عام وأنتِ بخير يا حنين»

شعرتُ بثقلٍ كبيرٍ على لساني وأنا أقول خجلًا:

«كل عام وأنت بخير يا حمزة»

قال مبتسمًا وقد انفرجتْ أساريره:

- «أشعر الآن أنني سميت من جديد»

ابتسمتُ وأنا أحاول أن أواري إحراجي، تابع وهو يسأل هامسًا:

- «قرأتِ الكتاب؟»

كانت شفتاه تسأل سؤالًا وعيناه تسأل سؤالًا آخر..

كانت عيناه تسأل:

- «هل رأيتِ الوردة؟»

أجبتُه وأنا أبتسم:

- «نعم قرأته»

وعيناي تجيب سؤال عينيه:

- «نعم رأيتها»

لمحتُ طيف ابتسامة تعلو محياه وتعبر عن الكثير من مشاعره، قال وكأنه تذكر أمرًا ما:

- «بالمناسبة، قمت باستئذان عم طارق أن أقوم بإضافتك على موقع الـFacebook وسمح لي،أحيانًا تصادفني منشورات جيدة وأريد أن تقرأيها لنستفيد معًا»

فرحتُ كثيرًا من هذا الطلب فبعد إضافتي أستطيع أن أسأله بوضوح من هي (نور) تلك ومن أين يعرفها؟ ربما لم تعرف بعد أن حمزة هم بخطبتي، رسمتْ تخيلاتي ابتسامة تشفي على وجهي وأنا أتخيل خيبة أملها عندما ننشئ علاقة خطبة بيننا على الموقع وتراها، قال لي حمزة ناظرًا إلى هاتفه:

- «حسنًا، أخبريني باسم حسابك»

نفضتُ تلك التخيلات عن ذهني سريعًا وأخبرته، صمت دقيقة، ثم قال:

- «أرسلتُ إليكِ طلب إضافة الآن»

- «حسنًا سأقبله عندما أرجع إلى البيت»

أخرج مظروفًا صغيرًا وقالبًا من الشكولاتة وأعطاهما لي قائلًا:

- «تفضلي هذه عيديتك»

مددتُ يدي وأخذتُهما على استحياء، قائلة:

- «شكرًا لك»

رأى آسر الموقف فعلق مستنكرًا:

- «ولماذا حنين هي فقط مَنْ تأتي لها الشكولاتة، أنا أيضًا أريد واحدة»

انتبه أبي وأمي على كلامه، رد حمزة وهو يضحك:

- «حسنًا سآتي لك بواحدة أيها المشاكس»

علق أبي مازحًا:

- «انتظر حتى تكبر ثم تخطب أنت الآخر وتأتي لك خطيبتك بالشكولاتة»

فعلق آسر قائلًا:

- «أنتظر حتى أكبر!! سأنتظر للحصول على الشكولاتة حتى أكبر؟!!»

نظر إلي آسر، وقال بشكل عفوي وقد ضيَّق عينيه:

- «أحقد عليكِ يا حنين فأنتِ كبيرة وتفعلين أي شيء، وأيضًا تأتيكِ الشكولاتة»

ظهر صوت أمي بعد طول صمت، وهي تقول بشيء من التهكم:

- «لا تحسد حنين على الشكولاتة يا آسر فهي لا تملك غيرها»

تغير وجه حمزة من تعليق أمي الأخير، وظهر الضيق في عينيه، تضايقت أنا الأخرى فلقد جرحته أمي بكلامها، حاول أبي أن يلطف الجو بعد كلام أمي فسأل حمزة مداعبًا:

- «هل حَضَّرَ العريس ملابس خطبته؟» هَزَّ حمزة رأسه بنعم وهو يبتسم وقد فهم فعل أبي..

تابع أبي:

- «وكذلك حنين قامت بتحضير كل شيء.. أليس ذلك؟»

- «بلى يا أبي»

نظر حمزة إلى أبي وقال:

- «عم طارق سأتصل بك غدًا؛ لتخبرني عن مكان جيد يقوم ببيع قطع الجاتوه حتى أشتري منه ليوم الخطبة»

- «حسنًا سأتصل بك غدًا وأخبرك»

قال أبي وهو ينظر إلى ساعته:

- «يجب أن نذهب الآن حتى نرتب أمور ذبح الأضحية»

قال حمزة:

- «إذا أردت أية مساعدة يا عمي أخبرني»

- «سأخبرك إن شاء الله، نراك على خير يا حمزة.. سلام»

- «سلام»

بدأ أبي وأمي وآسر بالتحرك، وقفتُ برهة وأنا أفكر كيف أخفف عن حمزة كلام أمي الأخير، فتحت الشكولاتة سريعًا وقسمتها نصفين، أعطيت له النصف باسمة، ثم تحركت وأنا أقول له:

- «سلام»

نظر إلى نصف الشكولاتة بيده، ثم نظر إلي مبتسمًا وقال:

- «أراكِ ثالث أيام العيد»

فرحتُ كثيرًا عندما رأيت ابتسامته من جديد، لحقتُ بأبي وأمي وآسر ولا زالت عين حمزة تتبعني، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة...

***

جاء صباح ثالث أيام العيد هادئًا جميلًا يصحبه زقزقة العصافير، استيقظتُ مبكرًا فلم أنم جيدًا طوال الليل؛ ربما السبب هو القلق المعتاد

الذي يصاحب أية فتاة يوم خطبتها أو زفافها، ظللتُ ملازمة سريري أراجع بذهني ترتيب الأشياء..

رتبتُ الأمور كلها بالبارحة، قمتُ بتعليق الزينة وتحضير الطعام مع أمي، رصصنا المقاعد أنا وآسر، وأكدت على مجئ صديقتي المصورة..

قام أبي بدعوة بعض أقاربنا وجيراننا المقربين، ودعوتُ أنا بعض صديقاتي.

إذًا لماذا ينتابني هذا الشعور بنسيان شيء ما؟!.. لا تشغلي بالك يا حنين، فكل شيء مُعد جيدًا وسيكون يومًا رائعًا بإذن الله لا تقلقي..

شبكتُ كلتا راحتي ووضعتهما تحت رأسي وأنا أبتسم..

نظرتُ جانبًا إلى ثوب الخطبة المعلق على خزانتي، وهو جاهز ومهيأ لكي أرتديه، وبجانبه حجاب باللون نفسه، وطوق رقيق من الورود البيضاء الصغيرة.

رفعت يدي اليمنى لأعلى وأنا أنظر إلى إصبعي البنصر..

اليوم سيتزين إصبعي بخاتمه، اليوم سأكون خطيبته رسميًّا أمام الجميع.

قمتُ من فراشي واتجهتُ إلى مكتبي، أخرجتُ الدفتر الوردي المزين بالقلوب والورود والفراشات..

نزعتُ ذلك الغلاف البلاستيكي عنه، وبدأت بالكتابة في أول صفحة منه:

«حين اكتشفتك..

لم يكن قصدي اكتشافك

فأنا الذي ما كنت ضد الحب يومًا

أو معه..

أنا مؤمن أن الفصول الأربعة..

ستظل دومًا أربعة

وبأن شمسًا واحدة

وبأن بدرًا واحدًا..

لكنني حين اكتشفتك..

كل الأمور تغيرت

فأضفت بدرًا ثانيًا

وأضفت شمسًا ثانية

وأضفت فصلًا خامسًا

ما أروعه..*

اليوم يا حمزة خطبتنا، في انتظارك الكثير من الحكايات والأحاديث وأرجو ألا تمل..

ليتك تعلم كم أحتاج إليك.. كم أحتاج أن نجلس معًا،

ليتك تدرك أن كوني جد صغير وأنك أنت فيه فضائي..

أتمنى أن يكون اليوم بداية جميلة لحياة رائعة نقضيها معًا حتى نهاية العمر»

---

* الشاعر عبد العزيز جويدة

دونتُ تاريخ اليوم والساعة، ثم قفلته ووضعته بمكانه السابق.

اشتريت ذلك الدفتر منذ زمن؛ لأدون به خواطري ومشاعري تجاه فارس أحلامي وجاء وقته اليوم، سأكتب كل شيء به وسيكون هديتي له يوم زفافنا، سأجعله توثيقًا لفترة خطبتنا فبداخلي الكثير من المشاعر ولا أستطيع البوح بها الآن إليه، لا أريد أن أبدأ بداية خاطئة.. أريد أن أبدأ حياتي معه بشكل صحيح يُرضي الله؛ ليبارك لنا في حياتنا..

خرجتُ من غرفتي متجهة إلى المطبخ؛ لأعد مشروبي المفضل من الشاي باللبن، أريد اليوم أن أقوم بجميع الأشياء التي أحبها..

أخذتُ الكوب لأعود ثانية إلى الغرفة لأجلس على حاسوبي؛ ربما بعث لي شيئًا أو كتب منشورًا جديدًا، انشغلتُ كثيرًا بالأمس بتحضيرات الخطبة ولم أستطع أن أجلس على حاسوبي وأرى حسابه، وجدتُ في طريقي غرفة مكتب أبي مفتوحة على غير العادة في مثل هذا الوقت، تعجبتُ من هذا، ذهبتُ إليها؛ لأستكشف الأمر، نظرت بداخلها فوجدت أبي وأمي يجلسان معًا، دخلت إليهما وأنا أبتسم:

- «صباح الخير على أجمل اثنين في الدنيا»

اقتربتُ من أبي وطبعتُ قبلة على خده ويده وكذلك أمي، ثم أكملتُ وأنا أضحك:

- «لماذا استيقظتما مبكرًا؟ أتشعران بالتوتر مثلي؟»

ابتسم أبي ولكن ابتسامته كانت خافتة، وعيناه حزينتين، وظهر على أمي الانفعال والضيق، لم أشعر بالاستغراب من فعل أمي فقد اعتدتُ عليه بالآونة الأخيرة، لكن ما أقلقني هو أبي.. وجهتُ له سؤالي بقلق:

- «ماذا هناك يا أبي؟ أحدث شيءٌ ما؟» أشاح أبي بوجهه تجاه النافذة وقالت أمي منفعلة:

- «لم أوافق على هذا الأمر من الأساس ولم يسمع أحد منكما نصحيتي وكانت هذه النتيجة، رضينا بالهم ولفظنا هو»

لم أفهم كلام أمي خاصة الأخير منه ماذا تعني بكلامها هذا؟!!، توجهتُ لأبي ثانية، وأنا أسأله بنظرات واجمة خائفة:

- «ماذا هناك يا أبي؟»

قال أبي بحزن:

- «حمزة منذ الأمس وهاتفه مغلق، وغير موجود بغرفته، ولم يره أحد بالمسجد»

رجعتُ قليلًا، وأنا أبتلع ريقي، وأقول بصوت متهدج:

- «وما.. وماذا يعني هذا؟»

أجابت أمي منفعلة:

«لقد اختفى يا حنين..العريس اختفى في يوم الخطبة، ولم يبالِ بكِ ولا بنا»

نزل كلامها على رأسي كالصاعقة.. كنتُ أود أن يخبراني أنهما يمزحان معي في النهاية، ولكن أمي لن تمزح أبدًا في أمر كهذا..

تركتهما وركضتُ سريعًا إلى غرفتي، فتحتُ حاسوبي، وذهبتُ إلى حسابه الشخصي لكني لم أجده.. ضغطتُ على زر البحث عشرات المرات وتظهر لي النتيجة نفسها كل مرة.. أغلق حسابه أيضًا.

رجعتُ بظهري في المقعد ببطء، وأنا أحس بوغز موجع في قلبي، شعرتُ بدموعي وهي تجري ساخنة متلاحقة على وجهي..

يبدو أن الأمر مثلما قالت أمي تمامًا..

حمزة اختفى...

●●●

(8)

أن تكون شخصًا يهتم بالتفاصيل الصغيرة هذا يعني أنك ستتألم كثيرًا..

أصعب أيام ستمرعليك هي الأيام التي تعقب التعود، أن تقوم بتغيير تفاصيل العالم من حولك..

تتخذ طريقًا آخر غير الذي اعتدت أن تسلكه لارتباطه بهم

تترك ذلك العطر لأنك وضعته ذات مرة وأنت تفكر فيهم..

تبتعد عن حاسوبك وعن هاتفك.. تبتعد عن جنونك وحماستك

وتعود لعاداتك المملة الرتيبة بقلب يحاول أن يثبت وجوده على قيد الحياة بالنبض لا أكثر..

مر شهران على ما حدث ولا زلتُ لا أستطيع استيعاب الأمر، صدري مزدحم بكثير من المشاعر ما بين اشتياق، وفقد، ووجع، وحزن، وحيرة، وأسئلة لا تغادر رأسي..

أين اختفيت يا حمزة؟! ماذا حدث؟!

ولماذا الاختفاء في هذا التوقيت بالذات.. في يوم خطبتنا!!

لماذا وضعتني في هذا الموقف أمام الجميع؟

أتذكرُ المرارة في صوت أبي وهو يهاتف الناس ويخبرهم بإلغاء الخطبة لظروف ما حدثت للخاطب..

لم يستطع أن يقول الحقيقة كاملة.. أن الخاطب اختفى فجأة لأسباب غامضة، هو يعلم جيدًا أنه لو قال هذا السبب لن نسلم من ألسنة الناس..

أنت لا تفهم ماذا يعني أن تترك فتاة يوم خطبتها..

نظل ندّعي أننا لا نأبه لكلام الناس، ولا يشغل بالنا تعليقات المجتمع.. لكننا في الحقيقة غير ذلك..

إننا نتأثر بكلامهم وتجرحنا ردود أفعالهم..

أن تتأخر فتاة في الزواج، أو تفسخ خطبتها، أن تصبح مطلقة، أو تتأخر في الإنجاب.

كل هذه أسباب تجعلها موضوعًا يتداوله الناس، ولا يملون الحديث فيه..

نحن مجتمع إذا لم تسِرْ الفتاة في المسار الذي وضعه لها لن تُرحم..

أكثر ما أتعجب منه أنه بالرغم من حنقي وغضبي تجاه ما فعلتَ إلا إنني أشعر باشتياق وأمل كبير أن ترجع ثانية، أن تظهر لتوضح أسبابك فأقبلها وإن كانت واهية..

أن أسامحك وأتغاضى عن كل ما مضى في مقابل أن تبقى معي..

كلما رن هاتف أبي أو دق جرس بيتنا.. تتزايد دقات قلبي من فرط التمني أن تكون أنت..

أرى الحزن في وجه أبي كلما لاحظ أثر البكاء على وجهي، فيجلس معي يحدثني، ويحاول أن يخفف عني، أما أمي فكانت تتعجب من حالي وتقول مستنكرة:

- «لا أدري لماذا يخيم عليها كل هذا الحزن؟! يجب أن تفرح أن أذهب الله عنا هذا الشخص فمنذ أن دخل إلى بيتنا لم يمر يوم دون عراك.. بلا أهل ولا مال، حياته مضطربة وصعبة.. كانت ستتعب معه.. حنين لا يعيبها شيء على الإطلاق، وسيأتيها مَنْ هو أفضل منه ألف مرة»

أما آسر فكان يحاول أن يخفف عني بأسلوبه الخاص فأحيانًا يطلب مني أن ألعب معه على حاسوبه، أو يأتيني ببعض الحلوى من مصروفه..

كل منهم كان يشعر بالحزن لما أصاب قلبي من وجع، ويحاول أن يُنسيني ما حدث بطريقته..

ربما هذا ما دفعني للتصنع أمامهم؛ كي لا أزيد من حزنهم وأتعبهم بمحاولاتهم المستمرة لنسيان الأمر، وهذا أيضًا ما جعلني أميل للعزلة أكثر فشعور التصنع ليس سهلًا..

أن تُظهر القوة رغمًا عنك أمام الجميع، تظهر أن الأمر لم يعد يعنيك وأنك قد نسيته بالفعل، تحاول أن تخفي الوجع المستمر بقلبك..

ذلك الوجع الذي يفتك بك أحيانًا فتبحث عن أي مكانٍ خالٍ؛ لتبكي بحرقة وحيدًا من شدة الألم، إنه الانفجار الذي يحدث في الكون الذي داخلك ولا يصدر ضجة..

انفجار صامت لا يسمع الآخرون مدى دويه..

زفرتُ بتعب وأنا أتقلب في السرير وأشد الغطاء فوقي، دفنتُ رأسي في الوسادة وبكيتُ بكاءً مكتومًا..

أود أن يتوقف عقلي عن التفكير قليلًا.. أشعر أن كثرة التفكير ستذهب به.

سمعتُ طرقًا هادئًا على الباب، وتبعه صوت أمي قائلة:

- «حنين.. حنين.. هل أنتِ مستيقظة؟»

مسحتُ دموعي سريعًا، وتنحنحتُ كي أُذهب عن صوتي أثر البكاء، اعتدلتُ في نومتي، وقلت بصوت ناعس:

- «تفضلي يا أمي»

دلفت أمي قائلة:

- «حبيبتي صديقتك ولاء اتصلت على هاتف البيت وتقول إنها هاتفتك عدة مرات ولم تردي»

- «نعم أنا أضع هاتفي على الوضع الصامت ولا أسمع أية اتصالات.. لماذا اتصلت؟»

- «تريد أن تقابلك اليوم لتُعطيكِ جميع ما فاتك من محاضرات»

- «حسنًا سأرى، إن كنت أستطيع الذهاب إليها سأذهب»

اقتربت أمي أكثر، وجلست على طرف السرير بجانبي، مسحت على كتفي بحنو، وهي تنظر إلي قائلة:

- «إلى متى هذا الوضع يا بنيتي؟ بدأ العام الدراسي منذ شهر ونصف

وأنتِ لم تذهبي إلى كليتك قط وهذا عامك الأخير، أراكِ غير مهتمة بالكلية والحضور، ولكن هل ستظلين هكذا؟! أنا أعلم جيدًا ما تمرين به تمامًا وإِنْ أظهرتِ عكس ذلك، قد تظنين أن انفعالي الشديد حينها كان قسوة مني وعدم استيعاب لمشاعرك لكنه كان خوفًا عليكِ ورغبة أن تعيشي حياة مستقرة هادئة»

صمتت برهة وزادت وهي تنظر أمامها:

«الحياة لا تنتهي بذهاب أحدهم أو فقده، انسي ما حدث وامضي في حياتك.. اذهبي وابحثي عن مواضع الفرح فيها وتمسكي بها، هذه هي مصادر قوتك أمام صفعات الحياة الموجعة»

أزاحت أمي خصلات شعري المنسدلة على وجهي، وأرجعته خلف أذني، وأكملت:

- «أرجوكِ يا حنين ارتدي ثيابك واذهبي إلى صديقتك لتأخذي محاضراتك، جزاها الله خيرًا أنها تذكرتك»

أومأت برأسي ببطء موافقة، طبعت أمي قبلة على جبيني وخرجت.. تمطيتُ عن سريري بكسل عارم، وعدم الرغبة في فعل أي شيء، ارتديت ملابسي واتصلت بصديقتي ولاء.. اتفقنا أن نتقابل في حديقة المسجد القريب من بيتها، كنت لا أريد أن تغضب أمي مني، أن لا أحزنها بمشاعري التي لا أستطيع التحكم بها.

اتخذت طريقي سيرًا حتى وصلت للحديقة، كانت الشمس قد قاربت

على الرحيل ناثرة وراءها لون الشفق المحمر، وبعض السحب المعلقة بالسماء، والجو هادئٌ وجميلٌ، والأزهار تداعبها نسمة هواء خفيفة فتنقل عبيرها عبر الحديقة.

جلست على إحدى المقاعد، وأنا أشتم رائحة الأزهار التي تملأ المكان مغمضة عيني، أخذت أفكر في كلام أمي عن مواضع السعادة في حياتي، أشعر أني مشوشة تمامًا هذه الفترة، حولي الكثير من الأشياء ولا أحس بوجودها، قاطع تفكيري صوت مألوف لأذني لم أسمعه منذ زمن:

- «حنين؟!»

نظرت إلى مصدر الصوت وابتسمت:

- «خديجة.. كيف حالك؟»

اقتربت مني خديجة واحتضنتني بقوة قائلة:

- «حنين.. اشتقت إليكِ كثيرًا»

تابعت وقد أفلتتني وأمسكت بيدي:

- «أين أنتِ؟ لم أركِ منذ عام.. أخبريني عنكِ»

أجبتُ وأنا أتصنع الابتسام:

- «لا جديد لدي.. أنا كما تركتِني»

دققت النظر إلى عيني وسألت:

- «أبكِ شيء؟ أشعر أن عينيكِ حزينتان»

أشحت ببصري بعيدًا:

- «لا.. لا شيء.. بعض الأمور فقط.. كما تعلمين أن الحياة لا تستقيم كما نريد»

شعرت بضيق في صدري من هذه الأسئلة، صرت أخشى ملاقاة الناس وأسئلتهم المعتادة..

لا أريد أن يسألني أحد عن حالي، وكيف صرت، وبماذا أشعر؟ حاولت أن أغير مسار الحديث عني إليها فسألتها:

- «وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟»

- «اليوم لدينا نشاط خيري في جمعية المسجد»

- «شيء رائع أنكِ لا زلتِ تداومين على هذا الأمر»

- «نعم يا حنين إنه بالفعل شيء رائع أن يبقى عمل الخير شيئًا أساسيًّا في حياتك، دائمًا أدعو لكِ أنكِ أرشدتِني لهذا الطريق.. أتذكرين؟ أنتِ السبب أن عرفت هذه النشاطات وأستمر عليها، كنتِ نشيطة للغاية تبذلين كل جهدك في سبل الخير، ثم اختفيتِ منذ عام ولم أعد أراكِ»

- «نعم انشغلت في كليتي ومحاضراتي و.. و..»

شعرت بغصة تكورت داخل حلقي، وأوقفتني عن الكلام، اقتربت مني خديجة خطوة، وهي تضع يدها على كتفي قائلة:

- «حنين.. كنتِ دومًا تخطرين ببالي وأسأل يا ترى أين اختفيتِ،

أنا لا أعرف سبب هذا الحزن الظاهر في عينيكِ، ولا أريد أن أتطفل

لمعرفته، ولكن لماذا لا تفكرين في الأمر يا حبيبتي من منظور آخر، أنه ربما يكون قد ابتعدتِ وهذا الحزن إشارة من الله للرجوع إليه..

أن تكوني ضللتِ الطريق قليلًا ويريد الله أن يضعكِ على الطريق مرة أخرى..

كم من أشياء موجعة تحدث في حياتنا لنحزن ونتألم، ولكن نرى بعدها أنها كانت تحوي بين طياتها رحمة..

ثقي في أقدار الله في حياتك، وتذكري هذه المقولة جيدًا

(حزن يقربك من الله خير من فرح يبعدك عنه)

ربتت على كتفي باسمة، وأكملت:

- «لا أريد أن أتأخر، خذي رقم هاتفي لربما أحببتِ أن نتحدث معًا لاحقًا»

قبَّلتني ودعت لي بالخير ثم ودعتني، تابعتها بنظري وهي ذاهبة، وكلامها يتردد صداه بداخلي، وأربطه بكلام أمي عن مواطن السعادة في حياتي.

خديجة على حق.. أنا لم أعد أرى مواطن السعادة في حياتي؛ لأني ابتعدت عنها، انشغلت عنها فذهبت عني..

قد أكون سعيت للطريق ولكن بشكل خاطئ جعلني أنحرف عنه دون أن أشعر، اتخذتُ الأسباب التي تُعينني عليه، واعتنيت بها ونسيته، اهتممت بالوسيلة ونسيت الغاية، أظن أنني قد ضللت وابتعدت كثيرًا

ولا بد لي من الرجوع.. لا بد من عودة...

●●●

(9)

مددتُ يدي وأنا أتحسس الوسادة حتى أحستْ أصابعي ببرودة ذلك السطح، أمسكتُ بهاتفي وقربته مني، وأنا أنظر إليه بنصف عين والأخرى مغلقة، لمستُ أيقونة تظهر على شاشته، فتوقف ذلك الصوت المتصاعد منه..

بقيت برهة أحاول أن أسترجع بذهني لماذا قمت بضبط المنبه على العاشرة والنصف صباحًا، تذكرتُ موعدي اليوم مع خديجة..

انتابتني رغبة عارمة للغرق في النوم ثانية، ولكن يجب أن أستيقظ الآن حتى لا نتأخر؛ فلدينا مهمة توزيع حقائب الطعام على بعض المناطق الفقيرة قبل حلول شهر رمضان..وضعتُ يدي على فمي وأنا أتثاءب في كسل وأزيح الغطاء عن جسدي.. مسحتُ على رقبتي وأنا جالسة على طرف السرير، وأحاول أن أستفيق، نظرت إلى الحائط أمامي بالتحديد إلى تلك الورقة المعلقة والمكتوب فيها:

«على خطايانا يجب أن نبكي حقًّا..

وليس على أي هجر، أو أي فراق، أو أي مرض، أو أي موت..

وذلك حال الذين قدروا الله حق قدره*

---

* دكتور مصطفى محمود

كنتُ أعلق هذه المقولة بغرفتي فوق مكتبي؛ لتذكرني دومًا كلما بكيت على أي سبب متعلق بالحياة، أن ما يستحق البكاء حقًّا هو البعد عن الله..

أن ما يستحق البكاء هي تلك الخطايا الصغيرة التي نرتكبها ببساطة ولا نشعر بحجمها حتى تتجمع وتكون جبلًا عملاقًا يحجب رؤيتنا عن الطريق الصحيح، الخطايا الصغيرة التي نرتكبها ونعلق ضعفنا أمامها على شماعة المشاعر..

مضى عامي الأخير بالكلية منذ شهر، لم أكن أتوقع أنني سأحن إليها بهذا القدر بعدما أنهيت دراستي..

صدق مَنْ قال إن لكل حي من اسمه نصيب، فالحنين لا يتركني أبدًا..

حنين لكليتي، حنين لمحاضراتي، حنين لأصدقائي، حنين لمدرستي، حنين لطفولتي، حنين لأنا القديمة.. تلك التي أحن إليها كثيرًا ولا أعرف طريق الرجوع إليها..

ما كان يهون عليّ فراق الكلية هو قربي من خديجة، تلك الفتاة الرائعة التي أرسلها الله لي في التوقيت المناسب، دومًا تشجعني على التقرب من الله والسعي في سبل الخير..

أتعلم الكثير وأنا برفقتها، كانت ترى أن الفراغ سلاح ذو حدين إن لم تشغله بالأمور الجيدة سيشغلك بعكسها بالضرورة؛ لذا تحمسني دائمًا

للذهاب إلى الكثير من الأعمال الخيرية، أشعر بالسعادة وأنا بجوارها وأطمئن لحديثها ونصحها..

أتذكر يوم أن جلسنا ومجموعة من الفتيات؛ لنلعب لعبة النصح وهي أن نقوم باختيار واحدة منا ونكتب لها أسئلتنا دون معرفة هويتنا ونطلب منها النصح ووقع الاختيار عليها..

كتبت إليها سائلة:

- «بماذا تنصحين من أراد النسيان؟»

فكان ردها:

- «عندما تفشل في نسيان ما تود نسيانه وتعجز عن إصلاح جرحك..

فلا ترهق نفسك بتكرار المحاولات،

دع جرحك يسير إلى جوارك، جنبًا إلى جنب ولكن دون أن تعره اهتمامًا..

لا تنصب عينيك عليه، لا تستمع إلى أحاديثه

سِرْ في طريقك ولا تلتفت، مع الوقت ستنسى وجوده تلقائيًّا.. ستنساه..

سيحدث لك ما أردته مرارًا وتكرارًا دون تركيز منك..

والزم الدعاء

سينصلح كل شيء بعدها»

طبقتُ نصيحتها دون وعي مني، نسيتُ أنني أريد أن أنسى، انشغلت

بكثير من الأمور؛ لتعود حياتي إلى مسارها الطبيعي ورأيت السعادة على وجه أسرتي لِما أصبحت عليه.

أحيانًا كنت أشعر بنغز في قلبي عندما يأتيني طيف حمزة، أو من مجرد ذكر اسمه أمامي.

فالمرأة قد تنسى الموقف الذي بكَت فيه ولكن لا تنسى أبدًا مَنْ أبكاها..

ولكن كنت أحاول أن أتجنب هذا الشعور سريعًا ولا أستسلم له، شعرت خلال الفترة السابقة أنني كبرت لأعوام، نضج تفكيري وآرائي وكذلك ردود أفعالي، فهذه هي إحدى مزايا الجرح الخفية.. أنه يصنع بنفسك ما قد تعجز أنت عن صنعه..

يزيد من عمرك العقلي ومن حكمتك في اتخاذ قرارات حياتك..

أخبرني بمدى جرحك أخبرك بعمرك الحقيقى..

أخبرني بعمق جرحك أخبرك بمقدار حكمتك..

قمت من سريري، وذهبت إلى الحمام تشطفت وتوضأت.. تصدقت عن جميع مفاصل جسدي بصلاتي بركعتي الضحى، وارتديت ملابسي سريعًا..

اتجهت للباب بعدها، وناديت أمي وأنا أنحني؛ لأنتعل حذائي:

- «أمي.. سأذهب الآن هل تريدين شيئًا؟»

سمعت صوت أبي من داخل مكتبه:

- «حنين، أمكِ هنا تعالي نريد أن نتحدث معكِ»

رجعت إلى المكتب وأنا أتساءل باستغراب:

– «أبي أنت هنا؟! أظن أنني سمعتك تقول إنك ستذهب اليوم باكرًا لزيارة عم أحمد صديقك بالمشفى»

– «نعم كنت ذاهب إليه بالفعل، ولكن أردنا أنا وأمكِ أن نتحدث معكِ أولًا في أمر ما»

– «تفضلا»

نظر أبي إلى أمي ثم بدأ حديثه:

– «هل تعرفين شخصًا يُدعى هاشم؟ أظن أنه معك بفرقتك نفسها»

– «هاشم جلال، نعم أعرفه إنه الأول على فرقتنا على مدار سنوات الدراسة الخمس، وأظن أنه سيصبح معيدًا»

سألتني أمي بشغف:

– «وماذا تعرفين عنه أيضًا؟»

– «لا أعلم عنه الكثير سوى أنه شاب ذو خلق حسن ومتدين»

تهلل وجه أمي وأخذت تتمتم بحمد الله وهي تنظر إلى أبي..

نظر أبي تجاهي وقال:

– «هاشم متقدم لخطبتك»

تسمرتُ في مكاني مما سمعت، حاولتُ أن أستوعب ماذا قال أبي للتو، تعجبتُ أن يتقدم هاشم لخطبتي تاركًا جميع فتيات الدفعة!!

تابع أبي:

- «جاء بالأمس إلى المسجد بعد صلاة العشاء وأخبرني أنه يود خطبتك، فكر في الأمر منذ عامين ولكنه انتظر حتى تنتهوا من الكلية»

قاطعت أبي مستنكرة:

- «أبي رجاءً اعتذر له.. أنا غير مهيأة لأي ارتباط الآن»

نظرت إلي أمي مندهشة:

- «ماذا تقولين يا حنين؟!! ما معنى أنكِ غير مهيأة؟!»

- «لا أعرف كيف أشرح الأمر ولكني لا أريد أن أرتبط الآن»

قامت أمي من مكانها وهي تقول بشيء من التهكم الغاضب:

- «ومن المفترض أن الفرص ستنتظرك حتى تتهيئي أليس كذلك؟!»

تابعت وهي غاضبة:

- «الفرص لن تنتظر حتى تكوني مهيأة يا حنين، الفرص التي تذهب لن تعود»

أجبت بانفعال:

- «وإن ضاعت يا أمي الفرصة.. وإن ضاعت كل الفرص، لن آخذ إلا ما كتبه الله لي، وأنا لست من تلك الفتيات اللاتي لا يشغل بالهن إلا أمور الزواج، أنا أفكر في الأمور بشكل آخر»

احتدت أمي أكثر في كلامها قائلة:

- «أنا أعلم كيف تفكرين، أنتِ لا زلت تنتظرينه.. ذلك الحبيب الغائب الذي خذلك وخذلنا جميعًا أليس كذلك؟ لن يعود يا حنين.. لن يعود»

صرخ أبي في أمي وهو ينهرها:

- «مديحة!!»

لم أستطع أن أتحمل كلام أمي الأخير، شعرتُ أن كلامها نبش كل الجراح بداخلي من جديد، جرتْ دموعي على وجنتي رغمًا عني.

ساد الصمتُ وقد ظهرت علامات الضيق على وجه أبي عندما رأى دموعي، قامت أمي واحتضنتني، وهي تقول:

- «آسفة يا حنين.. أعتذر إليكِ عن هذا الكلام الذي قلته، لا أريدك أن تحزني أرجوكِ»

رفعتْ أمي وجهي إليها وهي تمسح دموعي وتنظر إلى عيني، قائلة:

- «حبيبتى، نحن لسنا دائمين لكِ، ونريد أن نطمئن عليكِ مع مَنْ نثق به أنه سيتقي الله فيكِ ويحسن إليكِ، مِنْ كلامك عن هذا الشاب ومِنْ طريقة تقدمه لخطبتك شعرتُ أنه إنسان محترم وخلوق»

تابع أبي كلامها، قائلًا:

- «كما أخبرتك سابقًا يا حنين لن نجبرك على شيء لا تريدينه في حياتك، نعلم ما مر به قلبك ولكن نخشى عندما يذهب كل هذا ويصبح ذكرى منسية يصيبك الندم على تضييع إنسان كان من الممكن أن يعوضك

عن كل ما مضى يا بنيتي، كل ما نريده أن تعطي نفسك فرصة قبل الرفض»

كان كلام أبي وأمي حكيمًا جدًّا ومقنعًا، ولكن عندما وجه لي أبي كلامه بالسابق لم يكن قلبي كحاله الآن، أنا أعلم أنهما يريدان أن يطمئنا على حياتي ويفرحان برؤيتي بثوب الزفاف الأبيض، ولكن ما فائدة هذا إن كان قلبي لم يتعافَ بعد، ولا يقوى على الخوض في حياة جديدة لا يعرف سيسعد فيها أم سيشقى، أشعر أنه لا زال متعبًا، ولا أستطيع أن أجازف بأمر كهذا على سبيل التجربة، وأجعل من إنسان لا ذنب له حقلًا لتجاربي التي تحتمل النجاح أو الفشل، لا أريد أن أفعل بقلب أحد مثلما فُعل بقلبي، لا أستطيع أن أظلم أحدهم بظلم أحدهم لي..

آسفة يا أبي.. آسفة يا أمي.. لكني لا أستطيع ...

●●●

(10)

«على السادة الركاب الالتزام بأماكنهم وربط الأحزمة، نحن الآن نستعد للهبوط»

تناهى إلى مسامعي هذا النداء عبر مذياع الطائرة بصوت هادئ، أدرت وجهي إلى النافذة أنظر من خلالها إلى تلك المباني الصغيرة الحجم المتراصة بجانب بعضها بعضًا كأنها لعب وقد بدأت تكبر شيئًا فشيئًا.

تصارعتْ المشاعر بداخلي ما بين شوق، ولهفة، وحماس، واضطراب، وخوف. سرحتُ في خيالي، وأنا أفكر تُرى أي الأشياء تغيرتْ؟ وأي الأشياء بقيتْ على حالها؟ مرت ستة أعوام منذ أن غادرتُ سماء تلك البلاد، ومن المؤكد أن هناك كثيرًا من الأمور حدثتْ خلال هذا الوقت..

شعرتُ بأنامل هاشم الدافئة وهي تلمس يدي بلطف قائلًا:

- «بماذا تشعرين؟»

قلتُ بعد أن أطلقتُ زفرة قوية:

- «أشعر بالحماس والتوتر في الوقت نفسه»

ربتَ على يدي وابتسم:

- «سيكون كل شيء رائعًا لا تقلقي»

ابتسمتُ له واتجهتُ إلى النافذة مرة أخرى وأنا أتنهد وأرجع بالزمن عند ذلك اليوم، منذ سبعة أعوام وبضعة أشهر عندما وافقت على الجلوس مع هاشم، لم أكن أعلم حينها أن الأمور ستجري على هذا النحو.

كان الأمر في البداية مجرد استجابة لرغبة أمي المُلحة لا أكثر، مشيت في الرواق من غرفتي إلى غرفة الاستقبال وأنا عاقدة العزم متخذة قراري بعدم الموافقة مهما حدث، جلستُ متأففة في البداية أتكلف في انفعالاتي وأعد الدقائق؛ كي يمر الوقت سريعًا حتى بدأ هاشم في التحدث عن نفسه أكثر واتضح لي نقاط به لم أكن ألاحظها من قبل، تكلمنا كثيرًا عن الجامعة وفرقتنا والأساتذة، ذكر لي وجهة نظره في إصلاح كثير من الأشياء في الجامعة التي كان يقوم بعرضها على الإدارة ولكن ما من إجابة.. تحدث عن حلمه بإكمال دراسته وكيف أنه رأى أن أفضل شيء يشرع فيه الآن هو الارتباط بمن يساعده على هذا الحلم، انسجمتُ معه في الحديث دون أن أشعر..مرت ساعة ونصف ثم انتهت الجلسة بإحساس لم أكن أتوقعه على الإطلاق.. إحساس بالارتياح لهاشم.

على الرغم من أنه كان بدفعتي طوال الخمس سنوات الدراسية فإنني شعرتُ وكأنني أراه يومها لأول مرة بشكل مختلف تمامًا.

أعترف أن هاشم لم يجذبني عاطفيًّا في البداية بقدر ما جذبني عقله، فكلامه يدل على عقل راجح، وشاب يتمتع بفيض من الحكمة، ثقافته الكبيرة، واطلاعه على كثير من الأمور تجعل مَنْ يجلس أمامه لا يمل الحديث معه.

طلبتُ بعدها جلسة ثانية وثالثة؛ لأتأكد من هذا الإحساس فأجده يزداد بداخلي في كل مرة وأخبر أبي وأمي بموافقتي..

سعدا كثيرًا بقراري، وتم الارتباط بمباركتهما، كانت أمي ترى أن هاشم العريس المناسب لي مكانة وخُلُقًا، وأنه تعويض الله عما حدث سابقًا، وأبي يعجبه بساطته وسماحته في التعامل وتواضعه، أما آسر فلم ينسجم معه كثيرًا؛ ربما لأن هاشم هادئ الطبع ولا يتفاعل مع مشاكساته المستمرة ويقابلها بالابتسام فقط..

لزمتني صلاة الاستخارة في كل خطوة كنت أخطوها معه فأجد بعدها المشاكل قد حُلت والعوائق زالت، وتم كل شيء بسهولة ويسر.

خطبتنا كانت بسيطة وجميلة بحضور خالي وزوجته وبعض أقاربنا وجيراننا الذين أجمعوا على ارتياحهم لهاشم..

تخللت فترة الخطبة زياراته المتنوعة بين جلسة لمناقشة أمور عدة، أو الاطلاع على شيء جديد معًا، أحسستُ أنه يريد أن يطلعني على كل شيء يعرفه، أن أشاركه حياته بتفاصيلها، وأتعرف عليه أكثر وأقترب منه أكثر..

طلب هاشم من أبي أن نعقد قراننا بعد مرور ستة أشهر من خطبتنا، ولم يكن لدي سبب مقنع للخوف الذي يصيب قلبي بين الحين والآخر فأرفض بناءً عليه عرضه، فهاشم فرصة جيدة كما يراه الجميع وحَسَن الطباع ويحبني.. إذًا لماذا الخوف؟! إلا أن هذا الشعور كان ينتاب قلبي دومًا رغمًا عني، طمأنت نفسي أنه ربما يذهب ذلك الخوف عندما نقترب من بعضنا أكثر وتتواصل همسات أرواحنا..

عُقد قراننا بالمسجد بحضور جميع الأحبة، والسعادة تعلو وجوههم، وتغمرنا دعواتهم المباركة.

كشف لي هاشم بعدها عن مشاعره، وكيف أن حبي زُرع بقلبه وترعرع عبر الأيام معبرًا عن ذلك في بعض الخواطر التي كان يكتبها منذ أن كنا بالكلية.. راقتني تلك الخواطر الذاكر فيها كثيرًا من التفاصيل المتعلقة بي مثل مروري بجانبه في أحد الأيام وكيف كانت سعادته وقتها، أو ذلك اليوم الذي سمع فيه صوتي لأول مرة طالبة منه بعض الأوراق.

أعجبني قلب هاشم الغض العفيف المغلف ببراءة الأحاسيس، وجذبني اهتمامه..

أن تجد شخصًا متيمًا بك، عاشقًا لتفاصيلك الصغيرة، يهتم لأمورك البسيطة التي لا تتخيل أن تشغل بال أحدهم يومًا ما..

سيُجبرك هذا أن تحب اهتمامه رغمًا عنك وإن كنت لا تبادله المشاعر نفسها.

تقاربنا أكثر خلال فترة العقد، وفهم كلٌّ منا طباع الآخر مما جعل التفاهم بيننا سهلًا، والعلاقة هادئة خالية من المشاكل حتى جاء ذلك اليوم الذي اتصل بي هاشم وهو في غاية سعادته ليخبرني باستجابة إحدى الجامعات الأسترالية لطلبه وحصوله على منحة دراسية.

فرح هاشم بها كثيرًا، ولكنها كانت بالنسبة لي مشكلة كبيرة فأنا لا أريد أن أترك أسرتي، أرغب في البقاء بقربهم.. حاولت أن أنقل له شيئًا من

رفضي لهذا الأمر ولكن أسبابه المقنعة ألجمتني، فهذه فرصة لن تُعوض، وستساعده على تحقيق الكثير من أحلامه، والإنترنت الآن قرَّب المسافات كثيرًا فأستطيع أن أحدث أهلي كل يوم إذا أردت..

كان هاشم دومًا يطمئنني قائلًا «لا تقلقي فأنا معك» وهو لا يعرف أن هذا أكثر شيء يقلقني، خفت أن أخوض تجربة الزواج في البداية وحدي..

كثيرًا ما انتابني التعجب من شعوري هذا، وسألت نفسي مستغربة.. إِنْ كان لا زال الخوف يطاردك يا حنين كيف تُقدمين على الزواج؟ لماذا تخاطرين بحياتك القادمة بأكملها؟!!

كيف تفعلين هذا؟!! حياتك شيء خارج إطار المخاطرة..

لم أجد إجابة عن أسئلتي تلك سوى شعوري بالاطمئنان وأنا بقرب هاشم واختفاء هذا الخوف تمامًا.

أحيانًا كنت أشعر أن هذا الخوف ما هو إلا نزغ من الشيطان؛ ليعكر صفو حياتي فأستعيذ بالله منه، وأنام وأنا متوضئة فأقوم مرتاحة القلب لِما أنا فيه.

سافر هاشم بضعة أشهر أنهى خلالها جميع الإجراءات ورجع؛ لنتزوج..

أقمنا زفافنا بإحدى الحدائق عصرًا، كان زفافًا جميلًا وهادئًا مصحوبًا بالأناشيد الرومانسية ذات الكلمات الراقية بعيدًا عن الصخب والرقص والمحرمات التي تصاحب حفلات الزفاف..

ارتديتُ حجابًا طويلًا، وفستانًا مطرزًا أنيقًا وكلاهما كانا بلون الثلج النقي، وفوق رأسي تاجٌ رقيقٌ لامعٌ يزيد من زينة حجابي، وأحمل بيدي باقةً من الورود الجميلة المرتبة، وبيدي الأخرى أتأبط ذراع هاشم.

لم أضع أية مساحيق تجميلية ولم أخضع لإلحاح بعضهم يومها معللين ذلك بأنها ليلة العمر؛ فأنا لا أريد أن أغضب الله في فعل أي شيء محرم في بداية حياتي، فليلة العمر يجب أن نحمد الله فيها ونشكره على نعمته وفضله بالطاعة وليست بالمعصية.

سافرنا بعد زواجنا بأسبوعين.. راحلة من البلاد تاركة ورائي حياتي السابقة بكل ما فيها إلا من بعض الذكريات التي تتشبث بأظافرها وتعلق على حافة الهاوية بداخلي تخشى السقوط في أغوار نفسي السحيقة المنسية..

استرحنا بمنتصف الطريق بإحدى البلاد لنواصل بعدها رحلتنا، ونصل أخيرًا إلى تلك الأراضي البعيدة.

عشتُ في غربتي حياة جديدة، ومررت بمواقف كثيرة، والأهم من ذلك أنني اكتشفت هاشم آخر، كان حبي لهاشم طوال فترة الخطبة والعقد حبًّا هادئًا رزينًا ليس هذا الحب المشتعل المؤجج بالمشاعر والأحاسيس، أحببته حبًّا غلب عليه العقل أكثر من العاطفة، لكن بعد زواجنا عرفتُ معه حبًّا من نوع آخر..

ذلك الحب الذي يزداد تدريجيًّا يومًا بعد يوم، وموقفًا تلو موقف، وفرحًا تلو فرح، وحزنًا تلو حزن..

الحب الذي يزداد بوقوفنا معًا في مواجهة صعاب الحياة ومخاطر الغربة القاسية، وينمو بمراعاته لي، واحترامه لعقلي، وإحسانه لقلبي.

إنه حب العِشرة.

الحب الذي أخبرنا عنه نبينا الكريم عندما غارت أمُّنا عائشة من كثرة ذكره لأمِّنا خديجة فعلل ذلك بقوله -صلوات الله وسلامه عليه-:

«قد آمنت بي إذ كفر بي الناس،

وصدقتني إذ كذبني الناس،

وواستني بمالها إذ حرمني الناس»

فلم يُرجع رسولنا الكريم حبه للعاطفة أكثر مما أرجعه لمواقف العشرة بينهما.

قد يكون الحب العاطفي أقوى في مشاعره وأحاسيسه، ولكن حب العِشرة هو الأكثر ثباتًا

حاول هاشم أن يطبق مقولة الرافعي

«أيها الحزن القابع في حنايا قلبها، غادر بصمت وأنا سأتكفل بزرع دروبك العارية وردًا» ونجح في تحقيق ذلك بجدارة..

نسيتُ معه أحزاني السابقة كلها، وأنبتت أزهار قلبي من جديد.

ربما ما زاد القرب بيني وبين هاشم هو تأخر إنجابي أول عامين من زواجنا وكأن الله أراد ألا أنشغل بشيء سوى اكتشاف هاشم؛ فيملأ حبه قلبي، وأثق في تدابير الله لي في حياتي، وأنها الخير.

رزقني الله بعد هاتين السنتين بـ «براء» وبعده بسنتين «مارية» ليكونا أجمل شيء نتج عن زواجنا..

- «أمي.. أمي.. أمـــــي»

انتبهتُ من إبحاري في عالم الذكريات على نداء «براء» الأخير:

- «نعم حبيبي»

- «أنا جائع»

أخرجتُ إحدى الشطائر من الحقيبة القابعة بجانب قدمي وناولته إياها.. أناح بوجهه جانبًا، وهو يقول:

- «أريد البطاطس المقرمشة»

- «لا يا براء قلت لك قبل ذلك إن البطاطس المقرمشة مضرة ولا يجب أن تتناولها كثيرًا، وأنت تناولت كيسًا عندما استرحنا بنصف الطريق وأخذت حصتك اليوم»

بدأ في التذمر وهو يفرك قدميه في غضب، أوقفه هاشم قائلًا بطريقة تشويقية:

- «يا براء ابقَ على جوعك فنحن اقتربنا من الوصول.. ومن المؤكد أن جدتك وجدتك الثانية يعدون لنا الكثير من أصناف الطعام الشهي»

ظهر الحماس في عين براء وهو يمرر طرف لسانه على شفته العليا من اليسار إلى اليمين محدثًا ذلك الصوت الملئ بالتخيلات لأصناف الطعام المختلفة، ضحكنا أنا وهاشم من فعله الطفولي، قلت وأنا أنظر إلى مارية التي تغط في نومٍ عميقٍ:

- «تُرى كيف سيكون شعور عائلتينا الآن؟ أظنهم متشوقين جدًّا لرؤية براء ومارية؛ فهم لم يريهما سوى عبر شاشة الحاسوب منذ ولادتهما»

- «نعم أظن أنهم متشوقون لرؤيتهما كثيرًا على الطبيعة»

أمال هاشم رأسه تجاهي وهمس:

- «وجدتكِ شردتِ طويلًا، بقيت صامتًا حتى لا أقطع شرودك، ولكن براء أبى ذلك»

قلتُ ضاحكة:

- «ومنذ متى يتركاني أكمل شيئًا لآخره»

ضحك هاشم، ثم تابع:

- «أهناك أمر ما يُقلقك؟»

- «لا لا.. مجرد ذكريات وشوق لأبي وأمي وخالي وآسر، أتوق لرؤيتهم جميعًا خاصة آسر تركته منذ أن كان بالصف الثاني الثانوي كلما رأيت صوره الآن لا أصدق أنه كبر وصار شابًّا، وأصبح من خريجي كلية التجارة هذا العام»

أدرتُ وجهي إلى براء، وتابعت باسمة:

- «أشتاق لمشاكساته وشغبه.. شغب براء يذكرني به كثيرًا على الرغم من أن أمي أخبرتني أنه هدأ ولم يعد كالسابق فإنني لا أتخيله إلا مشاغبًا»

شردتُ قليلًا وزدتُ:

- «ما يثير دهشتي أنه لم يحدثني منذ وقت طويل، دائمًا تخبرني أمي في أثناء حديثي معهما هي وأبي أنه نائم أو بالخارج، أوصيتها كثيرًا أن يحدثني عندما يستيقظ أو عند رجوعه لكنه لم يتصل بي قط، حتى عندما كنت أحدثه على برنامج الـ whatsapp كانت دائمًا ردوده مقتضبة»

- «لم تسأليه ما السبب؟»

- «سألته مرارًا وتكرارًا ولكن كان عذره دومًا الانشغال»

- «ربما كان منشغلًا حقًّا»

- «ربما.. وربما أيضًا مع طول مدة غيابي اعتاد على عدم وجودي ونسيني»

التقط هاشم يدي بين يديه، وقال بأسف:

- «حبيبتي أعلم أنني أطلتُ مدة بعدك عن عائلتك»

قاطعته مسرعة:

- «أنا لم أكن أقصـــ...»

أوقفني بيده:

- «أعلم.. أعلم أنكِ لم تقصدي ذلك من كلامك عن موضوع آسر ولكنني بالفعل أبعدتكِ مدة طويلة عن عائلتك.. كان الموضوع خارجًا عن يدي فكما تعلمين المعيشة في تلك البلاد غالية، ولم يتوفر معنا أية أموال تساعدني على السفر، وقضاء عطلة بين عائلتينا إلا من قريب، ولكن أعدك ألا تطول المدة ثانية، وأننا سنزورهم مرة كل عام على الأقل»

ابتسمت له قائلة:

- «نعم يا هاشم أنا أشتاق لعائلتي، ولكن الله أعطاني أسرتي الصغيرة الرائعة التي تعوضني عن كل شيء، وتخفف عن قلبي بعدي عن أبي وأمي وأخي».

مسح على يدي بحنو وهَمَّ أن يقول شيئًا لولا أن استقرار الطائرة أوقفه عن الحديث.

حمل هاشم مارية وأمسكتُ براء بيدي، بدأنا في التحرك حاملين على ظهورنا الحقائب، مشينا حتى وصلنا إلى صالة الاستقبال فوجدنا عائلتينا.

جريت نحو أبي وأمي أُقبل أيديهما وأشتم عطرهما وأحضنهما وأنا أبكي من شوقي إليهما، كنتُ أشتاق كثيرًا لهذا الدفء الذي أشعر به وأنا بجوارهما..

تركتهما واتجهت لخالي أحتضنه بقوة، تغير شكله بعض الشيء ونال العجز من ملامحه.

بدأت مارية في البكاء فهي غير معتادة على هذه الأجواء التي تملؤها الضجة بينما جرى براء وتعلق برقبة أبي وبدأ في مشاغبته بشد لحيته، نهيته عن ذلك قائلة:

- «دع جدك يا براء، واحتفظ بمشاغبتك تلك لخالك آسر هو من يستطيع مجاراتك»

انتبهتُ فجأة، ثم سألتهم بشغف:

- «أين آسر؟»

تلاشت ابتساماتهم تدريجيًّا، وظهر الارتباك على وجه أبي وأمي وخالي وهم ينظرون لبعضهم، قالت أمي مسرعة:

- «لم يستطع أن يأتي معنا الآن لكنه سيكون بالبيت ليلًا؛ ليسلم عليكم جميعًا، فهو يشتاق لرؤية براء ومارية ولرؤيتك بالتأكيد يا حبيبتي أنتِ وهاشم»

حاولت أن أخفي الإحباط الذي انتابني، وأنا أجيب بصوت متهدج:

- «وكذلك أنا أشتاق لرؤيته»

استأذنتْ عائلة هاشم أبي وأمي أنهم سيقومون باستضافتنا اليوم، ودعتُ أبي وأمي على أن ألقاهم في اليوم التالي، ولكن عقلي ظل مشغولًا بآسر وعدم مجيئه، ولماذا ظهر الارتباك على وجه أبي وأمي وخالي عندما سألتهم؟!

ماذا يحدث ولا يريدون أن يخبروني به؟

ماذا حدث لآسر؟

●●●

(11)

تسللتُ إلى الشرفة غالقة ورائي دفتيها الخشبيتين ببطء، صدر صوت أزيز مكتوم ناتج عن احتكاك مفاصلها ببعضها البعض، جلستُ على الكرسي البلاستيكي وأنا أنظر إلى الشارع عَبْرَ تلك العواميد الحديدية الرفيعة الملتصقة بالسور، جذبتني السماء إليها بزرقتها الصافية.. أحاول أن أشبع بصري المتعطش لرؤية كل شيء هنا بالنظر إلى الشوارع والجدران والسماء، لن يشعر بهذا الدفء الذي يتغلغل تلك الأشياء إلا مَنْ ابتعد عنها، أتاني صوت دقات على الباب من بعيد.. دلفتُ إلى الغرفة ببطء حتى وصلتُ إلى الباب وفتحته، فوجدتُ وجهها تكسوه البشاشة، قائلة:

- «صباح الخير يا حنين»

- «صباح الخير يا خالة»

قالت -وهي تعطيني صينية كبيرة عليها عدة أطباق:

- «تفضلي الفطور حبيبتي»

تناولتها منها، قائلة:

- «لم يكن هناك داعٍ أن تتعبِي نفسك يا خالة.. كنتُ أنتظر أن يستيقظوا وأعد الفطور بنفسي»

قالت باسمة:

- «لا عليكِ حبيبتي.. أمازالوا نائمين؟»

- «نعم.. قضوا الليل كله يلعبون مع أعمامهم»

- «أحبابي حفظهم الله.. أنا بانتظارهم في غرفة المعيشة عندما يستيقظون»

أومأتُ لها برأسي، ثم ذهبتْ..

مضتْ ثلاثة أيام على مجيئنا، ولا زلنا ببيت عائلة هاشم.. أجمل ما في عائلة هاشم بساطتهم في التعامل وسماحتهم الظاهرة على وجههم، أبوه وأمه طيبو الطباع وأفنيا عمرهما في تربية أبنائهم، لم يدخرا أية أموال تؤمن لهما حياتهما المستقبلية في سبيل تنشئة أولادهم وتعليمهم، ونتج عن ذلك هاشم وأخواه الاثنان.. الجميع يشهد بأخلاقهم وتميزهم بجانب مكانتهم بسبب تفوقهم العلمي.. لكن هاشم الوحيد المتزوج بينهم.. مما جعل لأولادنا مكانة خاصة لديهم؛ فهم أول أحفاد العائلة..

بدأ هاشم في الاستيقاظ وهو يتقلب بجسده على السرير.. فتح إحدى عينيه رافعًا حاجبه لأعلى سائلًا:

- «كم الساعة؟»

اقتربتُ منه وجلستُ على طرف السرير بجانبه:

- «إنها العاشرة»

تثاءب في كسل وهو يتمطى، ثم نظر إلي وأخذ يمسح على كتفي قائلًا:

- «صباحك سكر»

ضحكتُ وأنا أمرر يدي على لحيته الخفيفة:

- «صباحك سكر يا نزار*»

علا صوته بالضحك، ثم قال:

- «أفكر اليوم أن نستعيد بعضًا من ذكرياتنا.. ما رأيك؟»

قلتُ بحماس:

- «أوافق جدًّا»

- «حسنًا.. سنترك الأطفال لهم ونذهب أنا وأنتِ إلى المطعم الذي تناولنا به الغداء أول مرة بعد عقد قراننا»

ابتسمتُ:

- «اختيار جيد»

ثم تابعتُ:

- «ولكن سأذهب أولًا لأبي وأمي وأنتظرك حتى تأتيني ونذهب معًا»

بدتْ علامات الاستغراب على وجهه سائلًا:

* شاعر عربي سوري له قصيدة شهيرة تحمل عنوان (صباحك سكر)

- «لماذا ستذهبين وحدك؟ هل حدث شيء؟»

- «لا لا.. ولكن إن انتظرتكم حتى نذهب جميعًا سنتأخر كثيرًا وتضيع مني فرصة هذا الغداء الرومانسي»

أكملتُ:

- «سأذهب أجلس قليلًا مع أمي وأبي فمنذ مجيئنا وأنا أحدثهما بالهاتف.. ولا أريد أن يتضايقا من قلة رؤيتي وسأكون بانتظارك هناك»

وافق هاشم على هذا الاقتراح، قمتُ في خطوة سريعة؛ لأرتدي ملابسي.. نعم أنا أشتاق لأمي وأبي ولكن ليس هذا سبب ذهابي لهم اليوم فآسر لم يأتِ أو يحدثني منذ مجيئنا.. لا بد أن هناك شيئًا يحدث ويجب أن أعرفه...

***

سمعتُ أمي تصيح من الداخل وأنا أقرع جرس البيت بشكل متسارع قائلة:

- «حسنًا حسنًا.. صبرك يا أم سعد ما بكِ اليوم؟!»

تفاجأتْ أمي وتهللتْ أساريرها عندما فتحت الباب ووجدتني واقفة أمامها.. ضمتني ضمة حنونة طالما اشتقت إليها وبدأت في مناداة أبي:

- «حنين يا طارق.. إنها حنين» خرج أبي مسرعًا من مكتبه وضمني هو الآخر مع سؤاله:

- «أين هاشم والأولاد؟»

أجبته:

- «سهروا بالأمس كثيرًا ولا زالوا نائمين»

تابعتُ وأنا أجيل بصري في أنحاء البيت:

- «اشتقت للبيت كثيرًا.. اشتقت للجلوس معكم وحدي كما كنت بالماضي ولجلستنا معًا على مائدة واحدة ويحكي كلٌّ منا عن يومه وحياته.. أشتاق لكل شيء بحق»

ثم اتجهتُ لأمي أسألها بحماس:

- «كيف حال غرفتي؟»

- «على حالها كما تركتيها.. كانت أم سعد تدخل إليها فقط لكي تنظفها»

ثم أكملتْ وقد غلب الحنين على صوتها:

- «وأحيانًا كان يحملنا الشوق إليكِ للذهاب إليها والجلوس بها أنا وأبوكِ فنتذكرك وإن كنا لا ننساكِ»

تأثرت بما قالته أمي، اقتربت منها وقبلت رأسها.. دخلت إلى الرواق وأنا أقول:

- «سأذهب إلى غرفتي ولكن أولًا سأرى أين يختفي ذلك المشاغب»

كاد أبي وأمي أن يمنعاني لولا أنني حركت مقبض بابه وفتحته..

كان آسر جالسًا على المقعد أمام حاسوبه، لم ينتبه لصوت الباب بسبب السماعات التي يضعها على أذنه.. اقتربت منه وأنا أنزعها قائلة بحنو:

- «آسر»

قام من مكانه مضطربًا وهو يستكشف مَنْ فعل هذا حتى رآني فاستقبلني بعينين باردتين قائلًا:

- «حنين.. كيف حالك؟»

كان شكله قد تغير كثيرًا عن الصور التي كنت أراها، جسده نحيل كما هو بينما تغيرت ملامحه واختفت منها تلك البراءة التي كنت أحب أن أراها دومًا وصارت أكثر جمودًا، عيناه محلقتان بدوائر داكنة، وذقنه يكسوها شعر قصير متناثر، وشعره طويل مشعث على شكل حلقات صغيرة متداخلة مع بعضها وكأن طائرًا أقام عشًّا فوق رأسه..

ضممتُه بقوة وأنا أقول:

- «آسر.. اشتقت إليك»

وضع يده على ظهري رد فعل لضمي إياه وسألني بلا مبالاة:

- «كيف حال هاشم والأطفال؟»

تركته وأنا أنظر إلى عينيه:

- «جميعنا بخير»

ثم أكملت وأنا أتطلع إلى وجهه بشوق:

- «أنا هنا منذ ثلاثة أيام وكنت في انتظارك بالمطار أو سماع صوتك بعدها لكنك مختفي تمامًا»

أجابني وقد تصنَّع الحزن:

- «آسف حنين، انشغلت كثيرًا»

- «وما الذي كان يشغلك؟»

نظر للسقف مفكرًا:

- «كثير من الأشياء»

- «وما تلك الأشياء التي تشغلك عن رؤية أختك الغائبة منذ ستة أعوام»

بدأ التأفف يظهر على ملامحه:

- «أشياء لا تعرفينها»

ثم أكمل وهو يحاول أن ينهي الحوار:

- «المهم أنكم وصلتم بالسلامة.. وأنكم جميعًا بخير»

شعرتُ أنه يطلب مني الرحيل بشكل متواري من خلال تلك الجملة، تركته بعد أن سلمت عليه وخرجتُ من الغرفة، وقلبي يملؤه الحزن، اتجهت لأمي وأبي وسألتهما مستنكرة:

- «أخبراني ماذا حدث؟ ماذا حدث له في أثناء غيابي؟»

صمت أبي بينما قالت أمي وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

- «منذ سنتين تعرف آسر على مجموعة من أولاد الأثرياء في جامعته، وبدأ حاله يتغير تدريجيًّا بعدها، فتّحوا عينيه على أبواب الدنيا التي طالما حاولت أنا وأبوكِ أن نحميكما منها، صار يلزمهم في كل مكان يذهبون إليه ويقلدهم في كل شيء حتى في هيئتهم، تمرد علينا وبدأ يردد كلامًا غريبًا لسنا معتادين عليه مثل أننا معقدون والحياة التي نعيشها ليست بحياة، ويتمنى أن لو كان فردًا في أسرة متحررة، بدأ يترك الصلاة شيئًا فشيئًا، ويتبطَّر ويتذمر على معيشتنا ويدعونا للانتقال إلى مكان أرقى يتناسب مع مستوى زملائه.. أصبح كل ما يشغل باله هو المال، يريد المال طوال الوقت؛ حتى لا يشعر بالنقص أمامهم.. حاولنا معه كثيرًا باللين، وجلس معه خالك ولكن دون فائدة، مطالبه لا تنتهي وينظر لنفسه فقط، كثيرًا ما كان يرفع صوته علينا أنا وأبيكِ حتى صرنا نتجنبه وبقي فى معزل عنا لا يحدثنا إلا إذا أراد المال، أصبح قلبه باردًا جاحدًا لا يطمئن علينا إذا تعبنا ويترك رعايتنا للغرباء، أخبرته عدة مرات عن سؤالك عليه ولا يهتم، لم يشغل باله حتى في العامين الأخيرين أن يطمئن عليكِ في غربتك وأنتِ أخته الوحيدة وكنا نأمل أن يكون ظهرك بهذه الحياة عندما نرحل»

انسدلت الدموع على وجنتيها ولم تستطع أمي إكمال حديثها، جلست بجانبها وأنا أمسح على كتفها قائلة:

- «بارك الله في حياتكما يا أمي ولكن لماذا لم تخبريني كل هذا من قبل؟»

قالت:

- «ولماذا أحزنك يا حنين في غربتك؟ يكفي هم الغربة عليكِ، كنت أعلم كيف سيكون حزنك عندما تعلمين أن آسر المشاغب أخاكِ الصغير الذي تحبينه أصبح هكذا»

كانت أمي محقة فيما تقول فمنذ أن رأيته وأنا أشعر بحزن شديد.. لم أتخيل أن يتغير آسر أخي الصغير الذي أسهمت في تربيته بشكل كبير، أن يصبح هذا الشخص الغريب متبلد المشاعر الذي رأيته منذ قليل، أن يفعل هذا بأبي وأمي ومن المفترض أن يكون هو سندهما بعد أن تركتهما. شعرتُ بالإشفاق على حال أبي وأمي فلقد تعبا في تربيتنا ووفرا لنا سبل الراحة كلها، وكانت النتيجة أنني ذهبت في غربتي وذهب آسر في عالمه.. وبقيا وحيدين وما زال أبناؤهما على قيد الحياة...

***

مرت الأجازة سريعًا ولم يتبق غير أسبوع واحد على عودتنا إلى أستراليا، اتفقنا أنا وهاشم منذ البداية على تقسيم وقت الأجازة بين عائلتي وعائلته؛ حتى يستطيع كل طرف أن يأخذ نصيبه في الجلوس معنا ومع طفلينا واستغلال كل دقيقة بجوارهما، وكان الجزء الأخير من الأجازة من نصيب أبي وأمي فقضينا بقيتها بجوارهما..

كانت الأجازة ممتعة؛ ذهبنا لكثير من المناطق وزرنا أماكن عدة، والتقطنا الصور التذكارية.

رأيت سعادة مختلفة في وجه براء ومارية فهما مدللان من قبل الجميع وطلباتهما مجابة في أي وقت.. أكثر ما خشيته أن تتأثر نفسيتهما عندما نعود إلى أستراليا ويفتقدا ذلك الجو الأسري ويشعران بالوحدة من جديد، وأن تتأثر نفسية أبي وأمي كذلك بسفرنا مرة أخرى؛ فقد تعلقا ببراء ومارية كثيرًا ويتحملان مشاغبتهما بحب، وكنا نستغل أنا وهاشم هذا التعلق بترك الأطفال معهما فننعم ببعض الفسح الفردية ونستريح قليلًا من المسئوليات وضغوط الحياة، ونستعيد الذكريات.

لم يكن يعكر صفو أجازتي سوى آسر الذي لم نره سوى مرتين أو ثلاث مرات خلال إقامتنا بالبيت؛ فهو إما جالس في غرفته يقضي ساعات طويلة على حاسوبه وإما بالخارج مع أصدقائه ويعود البيت متأخرًا قرب الفجر..

بدأ العد التنازلي للرجوع، وكنا في حاجة لشراء بعض الأشياء التي تنقصنا في أستراليا فتكفل هاشم بهذه المهمة، أيقظني صباحًا وأنا أغطُّ في نوم عميق وهو يربت على كتفي ببطء قائلًا:

- «حنين.. حنين.. أنا ذاهب إلى وسط المدينة؛ لشراء بعض احتياجاتنا.. إذا تذكرتِ شيئًا اتصلي بي حبيبتي»

طبع قُبلة على جبيني، ثم ذهب وطبع قُبلة على جبين براء وثالثة على جبين مارية، ثم رحل بعدها، غلبني النوم فلم أستطع أن أقوم لتوديعه..

مضت ساعتان كنت قد استيقظت خلالهما وأعددت مشروبي المفضل الشاي باللبن كما كنت أعده بالسابق، واتجهت إلى غرفتي في محاولة مني للاستمتاع ببعض الهدوء قبل أن يستيقظ الطفلان.

جلستُ على مكتبي وأنا أرتشف من الكوب وأتجول ببصري في أنحاء الغرفة فأتذكر مع كل شيء تقع عيني عليه ذكرى خاصة به.. مكتبي، أقلامي، تلك الفراشات اللامعة الوردية فوق سريري.. النجوم المعلقة التي تظهر بالكاد بسبب ضوء الصباح حتى توقفت عيني عند النافذة..

ابتسمتُ وأنا أتذكر كم مرة جلستُ في هذا الموضع أراقب ضوء الشمس وهو يتسلل إلى غرفتي أو يغادر منها..

كم من ذكريات حوت هذه الغرفة.. كم من مشاعر أوجعتني وجراح آلمتني..

تنهدتُ وأنا أحمد الله على تعويضه لي وإنعامه عليّ..

قمتُ سريعًا وقد تساقطتْ بعض قطرات الشاي باللبن على ملابسي بعد سماعي لرنين هاتفي في الغرفة المجاورة، خشيتُ أن يستيقظ براء ومارية، لمست الأيقونة ذات اللون الأخضر ورفعت الهاتف قرب أذني بعد أن وجدت جهة الاتصال هاشم..أتاني صوت غريب قائلًا:

- «هل زوجة دكتور هاشم معي؟»

أجبتُ متفاجئة بصوت متقطع:

- «نعم أنا.. مَنْ أنت؟ ولماذا تتحدث من هاتف هاشم؟»

- «آسف لإخبارك هذا لكن دكتور هاشم عندنا بالمشفى الآن.. لقد تلقى ضربة على رأسه إثر عراك وأرجو منكِ المجئ»

شعرتُ بالدوار بعد أن انتهى من حديثه.. لم أستوعب الكلمات التي قالها..

هاشم.. عراك.. ضربة..

لم أستطع التركيز في أي شيء سوى عنوان المشفى الذي قمتُ بتسجيله سريعًا..

أحسستُ بثقلٍ كبيرٍ على صدري وبانقباضٍ في قلبي من كلام المتصل، قمتُ لأرتدي ملابسي وأنا أستغيث الله بداخلي:

«اللهم اجعله خيرًا يارب، واجعل الأمر يمر بسلام..

اجعله يمر بسلام يا كريم»...

• • •

(12)

طوال الطريق لم أتوقف عن الدعاء والتضرع لله، لم أكن أعلم مدى إصابته إلا أنني لم أشعر بالخير من كلام المتصل..

صُدمت عندما وصلنا أنا وأبي إلى المشفى وأخبرونا أنه يقبع بقسم العناية المركزة، هرولنا خلال هذا الرواق الطويل المؤدي إلى العناية المركزة حتى وصلنا إلى آخره، عبرنا من خلال غرفة إلى غرفة أخرى كانت إحدى حوائطها عبارة عن نافذة زجاجية كبيرة، اقتربت منها بخوف وأفزعني المنظر، كان هاشم يرقد على السرير مغمض العينين، شاحب اللون، وكثير من الأجهزة متصلة به، لم يستوعب عقلي تلك الحالة التي وجدته عليها.. كان بخير منذ ساعات بسيطة!!

خرج أحد الأطباء من غرفته فأسرعنا إليه أنا وأبي، قلت والخوف يعثو بقلبي:

- «أرجوك.. طمئني على وضعه.. أنا زوجته»

نظر الطبيب إلينا وبدا وكأنه في حيرة من أمره، ولكنه استسلم في النهاية فأخبرنا بالحقيقة قائلًا:

- «لا أريد أن أكذب عليكما ولكن وضعه خطير، الضربة كانت قوية وأدت إلى نزيف داخلي بالمخ»

تراجعتُ قليلًا وأنا أضع يدي على صدري، لم تحملني قدماي، وكدتُ أن أسقط لولا أن ساندني أبي..

قال أبي بحزن:

- «أليس هناك أية طريقة لإصلاح الأمر يا دكتور؟»

- «نحن نحاول ويبقى الأمل الكبير متعلق بالله»

تمتم أبي:

«ونعم بالله»

ثم زاد:

«ما الذي حدث؟ وكيف تلقى هذه الضربة؟»

- «الحقيقة ليست لدي أية معلومات عن كيفية حدوث الإصابة ولكن الشخص الذي أوصله إلى هنا يجلس في الغرفة المجاورة» وأشار بيده..

أجلسني أبي وهَمَّ بالذهاب إلى الغرفة، ولكنني تابعته قائلة:

- «انتظر يا أبي سآتي معك»

ربما أراد أبي ألا يثقل عليّ بسماع تفاصيل الحادث ولكنني كنت أريد أن أفهم ماذا حدث بالضبط؛ فهاشم شخص مسالم للغاية، ما الذي أدخله في عراك ليأخذ تلك الضربة، ما الذي دفع به للعراك من الأساس وهو ذاهب لشراء بعض الأشياء؟!

دخلنا إلى الغرفة المجاورة.. وجدنا شابًّا يجلس على إحدى المقاعد واضعًا كلتا يديه على وجهه ولا يظهر إلا جوانب ذقنه من الجانبين..

ذهب أبي ووضع يده على كتفه بهدوء قائلًا:

- «أأنت يا بني مَنْ نقل الشخص القابع بالعناية المركزة إلى هنا؟»

أزاح يده عن وجهه وقد ظهر على ملامحه الذعر والحزن معًا قائلًا بصوت متردد:

- «نــ.. نعم أنا»

- «هو زوج ابنتي وأريد أن..»

قاطعتُ أبي متجهة بحديثي لهذا الشخص:

- «أرجوك أخبرنا ماذا حدث بالظبط؟»

نظر إلى الأرض وبدا التأثر عليه وهو يقص ما حدث:

- «استقل السيد .....»

رد أبي مخبرًا إياه اسمه:

- «هاشم»

- «استقل السيد هاشم سيارة أجرة؛ لتوصله إلى مكان ما، وكان الطريق مزدحمًا للغاية مما دفع سائق سيارة أجرة السيد هاشم إلى الإسراع قليلًا كلما سنحت له الفرصة ومن العجلة اصطدم بسيارة أجرة أخرى أمامه.. نزل السائق وهو يحاول رؤية ما حدث ويعتذر ليكمل طريقه، ولكن السائق

الآخر نزل من سيارته والشرر يتطاير من عينيه وكأنه كان في انتظار أية فرصة للعراك وأتت له أخيرًا فبدأ في السباب مباشرة..

ملأ الغيظ السائق الأول عندما سبه الآخر دون أن يفهم ماذا حدث.. تشاجر الاثنان واحتدم العراك بينهما وبدءا بالتطاول شفهيًّا ثم التشابك بالأيدي.. تجمع بعض الناس ما بين متفرجٍ ومحاولٍ لفض النزاع، ترجل السيد هاشم عن السيارة في محاولة منه لتهدئة الوضع وفض الاشتباك بينهما»

صمتَ برهة ثم تابع بأسى:

- «لكنه نزل بالوقت الخطأ، كان السائق الآخر بيده حديدة يريد أن يضرب السائق الأول بها، دفع أستاذ هاشم السائق الأول بحركة تلقائية بعيدًا فتلقى هو الضربة بكل قوة على رأسه وسقط غائبًا عن الوعي لا أحد يدري ما الذي حَلَّ به، وما إِنْ سقط السيد هاشم حتى فَرَّ كلا السائقين هاربين لإدراكهما خطورة الموقف»

رفع نظره إلينا، وقال:

- «حدث كل هذا الشجار أمام محل قطع غيار السيارات الذي أمتلكه، الجميعُ ترك السيد هاشم حينها ملقى على الأرض، خائفين أن يقتربوا منه حتى لا تُلصق بهم التهمة، فما كان مني إلا أنني أسرعت إليه وأخذته في سيارتي؛ لأنقله إلى المشفى، كل ما كنت أفكر به أن أحاول إنقاذ حياة هذا الشخص، ثم أتيت به إلى هنا وسلمتهم كل متعلقاته وهاتفه؛ ليخبروا أهله بالأمر»

انتهى من كلامه لأشعر وكأنني أنا من تلقيتُ تلك الضربة على رأسي، محاولة تخيل الموقف والألم الذي تعرض له هاشم أوجعني كثيرًا..

شكر أبي هذا الشخص على صنيعه، وطلب الآخر رقم هاتف أبي حتى يستطيع الاطمئنان على هاشم باستمرار.

جاءت عائلة هاشم والذعر يعلو وجوههم جميعًا وفي حالة من الهلع وهم يحاولون أن يفهموا ماذا جرى، أخبرهم أبي بكل شيء، فبدأت أمه في البكاء بقوة، احتضنتها وبكيت أنا الأخرى بشدة..

أعلم أن وجعها ليس كمثله وجع فهي أم ولكنه زوجي وحبيبي وأنيسي بغربتي، أتم زواجنا الستة أعوام.. ستة أعوام ونحن معًا في أفراح الحياة وأطراحها كان لي فيها نعم الزوج والصديق.

مر اليوم الأول ونحن جميعًا بالمشفى ننتظر خروج أي طبيب أو ممرضة من عنده فنسرع بسؤالهم: - «هل من جديد؟» وتأتي الإجابة دائمًا أن الحال كما هوعليه، فتصيبنا خيبة الأمل..

وقفتُ أمام الزجاج ناظرة إلى هاشم الراقد أمامي غائبًا عن الوعي في محاولة لاستيعاب الأمر، اليوم صباحًا كان معي، بالقرب مني وقبَّلني والآن لا أستطيع الاقتراب منه أو ملامسته، لا أملك غير النظر إليه من خلف هذا الحاجز الزجاجي.. كانت المشاعر المتضاربة تنهش بعقلي وكلمة يا ليت لا تتركني.. يا ليته لم يذهب يا ليته بقي بالبيت.. أحاول أن أرضى بما حدث ولكن شعوري بالحنق يغلبني، مسحتُ جبهتي ببطء وأنا أستغفر الله وأسأله الرضا، وجدت

طبيبًا خارجًا من غرفته، ذهبتُ إليه أسأله ولكن هذه المرة كان سؤالي مختلفًا:

- «دكتور لو سمحت أريد أن أسأل سؤالًا»

نظر إلي وهو يهز رأسه نافيًا:

- «للأسف لم يجد جديد»

قلت:

- «لم يكن هذا سؤالي»

بدا الاستغراب على وجهه، تابعتُ:

- «كنت أريد أن أسأل هل هو يشعر بمن حوله الآن؟»

أجاب مفكرًا وهو يضع يده على ذقنه:

- «العلماء اختلفوا في نتائج هذا الموضوع منهم مَنْ قال إن المريض لا يشعر بأي شيء في أثناء غيبوبته، ومنهم مَنْ قال عكس ذلك»

ثم صمت برهة وأكمل:

- «ولكن الشيء الوحيد الذي أثق أنه يشعر به.. هو دعاؤكم»

استأذن ذاهبًا وهو يبتسم في محاولة منه لتخفيف الأمر، رجعتُ ببصري مرة أخرى إلى هاشم..

بالفعل ليس بأيدينا أي شيء حياله الآن غير الدعاء.. فالذي يحيي العظام وهي رميم قادر على أن ينجيه مما هو فيه..

وضعتُ يدي على الزجاج مغمضة عيني وأنا أبتهل إلى الله:

«اللهم لا تحرمني خير ما عندك بسوء ما عندي،
اللهم أدم عليّ نعمك ولا تحرمني من هاشم
أرجوك يا آلله لا تحرمني من هاشم» ...

***

مرت ثلاثة أيام لم نترك فيها الدعاء والتضرع إلى الله أن ينجي هاشم، وأن يرجع إلينا مرة أخرى سليمًا معافى، ذهب أبي وعائلة هاشم من أول يوم ولم يتبقَّ غيري أنا وأمه، وبقيتْ أمي بالأطفال في البيت، رغبتْ أن تبقى معهم؛ حتى لا يشعرون بأي شيء ويؤثر ذلك عليهم نفسيًّا.. تناوب أبي وخالي وعائلة هاشم علينا؛ للاطمئنان والإتيان بالأشياء التي نحتاجها، جلستُ في اليوم الثالث بعد صلاة العشاء وأنا أرفع يدي بالدعاء إلى الله أتوسل إليه فهذا وقت إجابة..

قمتُ وأنا أمسح وجنتي بأناملي وأزيل أدمعي، رأيتُ الممرضة وهي تهرول متجهة إلينا وقد اتسعتْ حدقتا عينيها من المفاجأة وهي تقول:

- «لقد أَفَاقَ»

تركتُ ما في يدي وانطلقنا عدوًا أنا وأمه لا نصدق ما سمعناه للتو؛ نريد أن نراه بأعيننا حتى لا نتعلق بحبال الآمال الواهمة ونتأكد أن ما قالته الممرضة ليس حلمًا، أوقفتنا عند الباب، قائلة:

- «يجب أن ترتديا زيًّا معقمًا»

أخذناه منها وارتديناه على عجل، أدخلتنا محذرة:

- «بهدوء؛ فهو ما زال يشعر بالتعب الشديد»

أومأنا لها برأسينا كطفلين يعدان أمهما بالطاعة كي يفوزا بمكافأة..

فتحتْ الممرضة الباب، ودلفتْ أمه سريعًا وهي تنظر متشككة حتى سمعتُ صوتها وقد طغى عليه الفرح:

- «هاشم.. حبيبي.. بني»

تابعتها ببطء، رأيته وهو متكئ بظهره على السرير ينظر إلينا بعيون شبه مغمضة وابتسامة واهنة تعلو وجهه، جريتُ إليه وأمسكتُ بيده أقبلها بشكل متوالي، ضممتها إلى صدري وأنا أبكي وأقول بصوت يكاد يُسمع:

- «اشتقت إليك، خفت عليك كثيرًا.. كدت أن أفقد الأمل»

نظر إلي ومازالت على وجهه تلك الابتسامة المتعبة.. كان التعب متملكًا منه حتى أنه لم يستطع التحدث، اتجه إلى أمه التي ظلت تقبل رأسه وتحمد الله على سلامته، تركتنا وهي تخبرني:

- «سأذهب للاتصال بوالده وإخوته، سيطيرون من الفرحة عندما يعلمون»

تابعتها وهي تخرج من الغرفة، ثم اتجهت إلى هاشم وأنا أحاول أن أشبع عيني من ملامحه وكأنني أراه لأول مرة..

رفع يده ببطء فساعدتُه على رفعها أكثر، ووضعتُها على خدي، ووضعتُ يدي تحتها وأنا أردد والسعادة تغمرني:

- «الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله..»

- «حنين.. حنين.. حنين»

أتاني هذا الصوت من بعيد وهو يزداد شيئًا فشيئًا مع هزة خفيفة أشعر بها في كتفي، فتحتُ عيني فوجدتُ نفسي جالسة على كرسي ورأسي مسندة إلى الحائط، اعتدلتُ في جلستي، ونظرتُ حولي وأنا أسحب الهواء من حولي بشكل سريع، رفعتُ بصري فوجدت أم هاشم أمامي، سألتها مسرعة:

- «هل أفاق هاشم؟»

ظهرت خيبة الأمل على وجهها وهي تهز رأسها نافية، اعتصرني الألم عندما أدركتُ أنني كنتُ أحلم ولم يكن حقيقة..

قالت أم هاشم وهي تمسح على كتفي:

- «حنين أنتِ هنا منذ ثلاثة أيام ويظهر عليكِ الإرهاق الشديد، كما أنكِ غبتِ عن الأولاد كثيرًا وغيابك أنتِ وهاشم من أمامهما فجأة سيؤثر عليهما بالتأكيد.. اذهبي واستريحي هذه الليلة في البيت حبيبتي ونالي قسطًا من الراحة وإذا حدث أي جديد سأتصل بكِ إن شاء الله»

أومأتُ لها برأسي موافقة، وأنا أمسح وجهي وعيني بيدي ومازالت آثار الحلم عالقة بذهني..

بدأتُ في التحرك متخذة طريقي إلى البيت حتى وصلت ووجدت براء ومارية في استقبالي يتعلقان برقبتي ويغرقاني بالقبلات، ظلت مارية متعلقة

برقبتي بينما أفلتني براء وهو يقول بعد أن عقد يديه أمام صدره غاضبًا:

- «أين كنتِ يا أمي كل هذا الوقت؟»

اقتربتُ وأنا أمسح على شعره:

- «انشغلتُ في أمرٍ ما حبيبي»

حرك رأسه من تحت يدي ورجع لوقفته الغاضبة:

- «وأين أبي؟»

تلعثمتُ وأنا أفكر في الإجابة، أي كلام يستطيع أن يستوعبه عقل هذا الصغير..

- «هو مُنشغِل قليلًا الآن وسيأتي قريبًا إن شاء الله» قلتُها ثم أخرجتُ بعض الحلوى من حقيبتي وأعطيتُها لبراء؛ كي أشغله عن هذا الحوار..

اتجهتُ إلى الحمام وأدرتُ صنبور المياه؛ لأنعم بحمام يزيل إرهاق الأيام السابقة وأسترخي مع قطراته الدافئة..

نمتُ تلك الليلة بغرفتي وأنا أحتضن براء ومارية، ويتسلل إلى قلبي هذا الدفء بضمهما، أشعر أني في حاجة إليهما هذه الأيام أكثر من حاجتهم إليّ..

بدأتْ عيناي تنغلقا رغمًا عني من فرط الإرهاق حتى استسلمتُ للنوم بالنهاية، وكان آخر ما رأيته تلك النجوم اللامعة المعلقة بالسقف.. متمنية أن يكون غدي جميلًا هادئًا مثلها، وبه من الأمور ما يسرني...

***

سحب الظلام رداءه ببطء متقهقرًا أمام النور الذي بدأ يبزغ في الأفق معلنًا ميلاد يوم جديد أشهد عليه وأنا أنظر إليه من خلال النافذة المشرعة..

انتظرتُ حتى حَلَّتْ التاسعة، ثم تحركتُ على أطراف أصابعي بخفة خارج الغرفة؛ حتى لا يستيقظ براء ومارية، وجدتُ أبي وأمي يجلسان بغرفة المعيشة وبيد كل واحد منهما كوبٌ من الشاي.. ألقيتُ عليهما تحية الصباح، ثم قال أبي:

- «انتظري سأوصلك للمشفى»

أشرتُ إليه بيدي نافية:

- «لا لا يا أبي.. لا داعي، فأنت وخالي انشغلتما معي كثيرًا الفترة السابقة، اذهب أنت إلى مصالحك وسأذهب أنا بمفردي فالمشفى ليس بعيدًا من هنا»

ثم اتجهتُ إلى أمي قائلة:

- «أعتذر يا أمي، أعلم أني أثقلت عليكِ برعاية الأطفال»

قالت أمي نافية:

- «أبدًا يا حنين.. أنا أسعد كثيرًا وأنا بجوارهما لماذا تقولين هذا؟»

ثم تابعتْ:

- «سأقوم وأعد لكِ الفطور قبل أن تذهبي»

هزتُ رأسي نافية:

- «سأفطر مع الخالة بالمشفى حتى لا أتأخر»

توجهت إلى الباب وأنا أقول منحنية؛ لانتعال حذائي:

- «من المحتمل أن أطيل هذه المرة أربعة أو خمسة أيام.. سأحاول أن آتي ساعة من النهار حتى لا يتأثر الأطفال بغيابي أنا وهاشم وإذا حدث أي أمر اتصلوا بي»

أدرتُ مقبض الباب، وهممت بالخروج، ثم التفتُّ إليهما، قائلة:

- «أو ربما ينتهي الأمر قبل هذه المدة ويأتي هاشم معي اليوم أو غدًا.. ادعوا له»

أجابتني أمي:

- «من غير طلب يا حنين.. نحن لا ننساه من دعائنا طوال اليوم»

ابتسمتُ لهما وودعتهما، اتخذتُ مقعدًا بالأريكة الأخيرة بإحدى وسائل المواصلات بجانب النافذة الزجاجية؛ لأكمل مشاهدتي لهذا الصباح في طريقي إلى المشفى..

كان الهدوء يضيف على كل شيء جمالًا أنيقًا ويبعث على الراحة النفسية، تمنيتُ أن يزداد هذا اليوم جمالًا بإفاقة هاشم من غيبوبته وعودته إلينا..

وصلتُ إلى المشفى متجهة إلى الطابق الثالث؛ حيث تقبع غرفة العناية المركزة، تمشيتُ بذلك الرواق الطويل - المؤدي إلى الغرفة - المُضاء بلمبات طويلة من النيون..

وجدتُ أم هاشم واقفة في نهايته، رفعت يدي أحييها لكنها لم تنتبه إليّ، بدت وكأنها تنتبه لشيء ما بشدة..

خفضتُ يدي ببطء عندما رأيت الممرضة وهي تقترب منها وتحدثها وتربت على كتفها، جثت أم هاشم على ركبتيها وهي تضع يدها على رأسها..

وضعتُ يدي على قلبي وتمايل جسدي فالتصق بالحائط وبدأ في السقوط لأسفل حتى جلستُ على الأرض، كان صوتها يخترق أذني وهي تنتحب بصوت عالٍ قائلة:

- «لماذا تركتني ياهاشم!!!» ...

●●●

(13)

أصعب الأقدار تلك التي لن تظهر الحكمة من ورائها في الدنيا، التي ستظل تحتفظ بغموضها لتتجلى بحقيقتها الكاملة يوم القيامة..

مثل ذلك القدر الذي كُتب على أبوي الغلام الذي قتله الخضر في أثناء رحلته مع سيدنا موسى..

لن يعرفا الحكمة والغاية من قتل ولدهما إلا يوم القيامة؛ ليشكرا الله حينها على قتله وأنه لم يكبر ليرهقهما طغيانًا وكفرًا..

بعض الأقدار في حياتي ظهرت حكمتها واضحة جالية أمامي وبعضها الآخر لم أفهم الحكمة من ورائها بعد..

لم أتخيل يومًا أن يرحل هاشم عن الدنيا سريعًا بهذا الشكل.. أن أكون موضع شفقة مِنْ جميع مَنْ حولي بترملي وأنا مازلت في هذا السن.. أن يكون اليتم هو أول ما يفتح براء ومارية عينهما عليه في هذه الحياة..

كثيرًا ما كانت تتراءى أمامي التخيلات عن حياتنا القادمة معًا، عندما يجري بنا العمر ونكبر، ويتكئ كلٌّ منا على الآخر، وقد نالت التجاعيد من وجهينا، وشاخت ملامحنا، وسقطت أسنانُنا، وضعف بصرنا، ونحن نعد الغداء معًا بأيدينا المرتعشة، ونجلس بانتظار براء ومارية فيأتيان لزيارتنا بأولادهما، ويضج البيت بصوت الضحكات العالية..

ولكن زالت سريعًا تلك الأمنيات الجميلة أمام حقيقة الحياة الموحشة وقانونها الدائم أن السعادة لا تدوم للنهاية.

بعد وفاة هاشم رجعتْ كل الأمور كما كانت سابقًا، رجعتُ للإقامة ببيتنا.. رجعتُ إلى غرفتي وسريري ولكنني لم أعد وحدي، عدتُ بطفلين، ووجع بالقلب، وجسد بلا روح..

رجعتُ إلى مكاني نفسه، عدتُ ولم أعد حنين السابقة، صرت الأب والأم معًا..

أحيانًا أشعر أن ذلك أفضل من أجل الأطفال فتربيتهما تحتاج إلى شخصية قوية لا إلى تلك الشخصية الحالمة الشاعرية التي تتأثر بكثير من الأشياء حولها.

نظرتُ إلى هاتفي الملقى على السرير بجانبي، تناولته وتطلعت إلى تاريخ اليوم، بقي ثلاثة أيام ويتم هاشم عامه الأول في قبره..

عام واحد لكنه مَرَّ على نفسي أعوامًا..

عام وتحقيقات الشرطة تحاول الوصول إلى القاتل وما من جدوى، فالقاتل ينعم بالحرية وقد قضى على سعادة أسرة بأكملها، وحتى إن أمسكوا به فسيُحبس ثلاث سنوات؛ لأن القتل غير متعمد.. ثلاث سنوات مقابل تعاسة عمر بأكمله لي ولأولادي..

كثيرًا ما كان يسألني براء خلال هذه الفترة عن أبيه.. أين ذهب؟ ولماذا أطال الغياب؟ حتى يأس ولم يعد يسأل، لم يفهم إجابتي أن أباه ذهب عند الله، فكل ذهاب مقترن في عقله بالعودة حتمًا ولكنه سيكبر يومًا ويفهم أن بعض الذهاب لا عودة منه..

ألاحظ في عين مارية -التي لم تتمكن من النطق بطلاقة بعد- اشتياقًا لأبيها الذي اختفى من أمامها فجأة ولا تدري أين ذهب ولا تعرف كيف تعبر عن ذلك، فتذهب إلى الأبواب وتنظر وراءها؛ لعلها تجده كما كانت تلعب معه ويختبئ منها وراء الأبواب، فلا تجد أحدًا فتدور بعينيها في الأرجاء؛ بحثًا عنه لعله يخرج من هنا أو هناك فيفاجئها كما كان يفعل وتنخرط في الضحك بعدها..

أحاول بأي شكل تعويض هذا الحرمان لديهما، ولكن أي شيء في الدنيا يعوض فقدان الأب!!

أصبح كل ما يشغلني الآن هو تنشئتهما كما أراد هاشم..

أن أجعلهما كما كان يدعو لهما دومًا بدعوة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للحسن البصري عندما حمله وهو رضيع..

«اللهم حبب خلقك فيه واجعله يدل الناس عليك»

وأكون الأم الصالحة التي تمناها لهما أبوهما..

وبرغم من صعوبة موقف وفاة هاشم ومرارته فإنني أحمد الله كثيرًا أن

حدث كل هذا ونحن وسط عائلتينا، أتخيل أن أتى قدر الله إلى هاشم ونحن في الغربة.. كيف كنت سأواجه كل هذا وحدي؟!

تنهدتُ وأنا أسترجع الله في أموري كلها، وأترحم على هاشم، وأدعو على قاتله، نظرتُ إلى براء النائم بجانبي وقمتُ بتحريكه ببطء، بدأ في الاستيقاظ وهو يفرك عينيه بكلتا يديه قائلًا:

- «صباح الخير يا أمي»

- «صباح الخير يا حبيبي، كيف حالك اليوم؟»

نظر إليّ بنصف عين وهو يتثاءب، قائلًا:

- «بخير الحمد لله.. هل سنذهب لتمرين السباحة؟»

- «نعم.. هيا يا بطل قم تناول فطورك سريعًا حتى نذهب للتمرين فلم يبقَ على موعده غير ساعة»

نفض براء اللحاف بعيدًا وهو يقفز من السرير متجهًا بحركة سريعة لخارج الغرفة؛ ذاهبًا إلى الحمام فهو ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، ويعد الساعات حتى يحين موعده في كل مرة.

أعددتُ له الفطور، وقمتُ بتجهيز ملابس السباحة ووضعتها في حقيبته، جلستُ على حاسوبي ريثما ينتهي من تناول طعامه، وأنا أتطلع بيأس إلى الشاشة المضاءة أمامي بانتظار تحميل صندوق الرسائل الخاص ببريدي الإلكتروني، اتسعتْ عيناي بحماس عندما وجدتُ

تنبيه برسالة جديدة وأنا أقول بصوت لا يُسمع «أخيرًا»، وددتُ أن أقوم بفتحها ولكن ضيق الوقت لم يسعفني لذلك فيجب أن نذهب الآن، تأكدتُ من وضع هاتفي بالحقيبة فهو الوسيلة الوحيدة التي أستطيع من خلالها قراءة الرسالة في أثناء الطريق.. أوصيتُ أمي بمراقبة مارية، كنتُ لا أريد أن أوقظها؛ فاستغراقها في النوم يدل أنها ربما تظل نائمة حتى نرجع..

نقلنا أبي بسيارته حتى استطعنا أن نصل قبل موعدنا بدقائق، انطلق براء جريًا للداخل وتابعته بخطى سريعة، جلسنا أنا وأبي على طاولة بلاستيكية تطل على المسبح؛ لنراقب براء عن قرب، كنت أقوم بتشجيعه عندما يسبح بمفرده مسافة طويلة وأحييه عندما يستطيع أن يكتم نفسه أكبر قدر من الوقت تحت الماء..

نظرتُ إلى أبي الذي يتابع براء وهو يبتسم، وأنا أفتش في عقلي عن أي موضوع مناسب أستطيع أن أفتح به حديثي معه، ومن خلاله أخبره بما أريد.. حتى وجدتُ بغيتي فقلت له سائلة:

- «كيف حال مشروعكم الجديد يا أبي؟»

أجابني وقد ظهر في عينيه الحماس:

- «الأمور كلها بخير الحمد لله.. ما زلنا في مرحلة تجميع الأموال من الشركاء وسنبدأ بعدها في الشروع بشراء الأرض، ثم شراء المعدات، ونبدأ بالبناء إن شاء الله»

ابتسمت له:

- «جيد جدًّا»

ثم تابعت:

- «ولكن ألا ترى أنها مجازفة كبيرة أن تدخل في هذا المشروع بكل ما نملك؟! لقد قمت ببيع كل شيء حتى بيتنا ولم يتبقَّ لنا سوى شقتنا والسيارة وسحبت كل النقود من البنك»

قال بالحماسة نفسها:

- «هذا المشروع ضخم يا حنين ويحتاج لكثير من الأموال حتى يتم بالمستوى المطلوب، كما أنني شاركت بجميع أموالي فيه؛ لأحصل على أكبر قدر من الأسهم وفي المقابل سأحصل على أكبر قدر من الأرباح»

ثم نظر أمامه وهو يسرح في خياله، ثم قال:

- «أرباح هذا المشروع ستجعلنا في مكان آخر يا حنين، عندما نجني الأرباح سأشتري لكم فيلا كبيرة ملحق بها حمام سباحة، وسأجلب لكل واحد منكم سيارة، وأوظف العديد من الخدم؛ ليقوم بمهمام البيت بدلًا من أمك، وسأدخل براء ومارية أحسن مدرسة مهما كان ثمنها، وأفتح حسابًا خاصًّا لهما في البنك»

ثم عبس قليلًا وهو يشيح بنظره بعيدًا:

- «كل ما يشغل بالي هو آسر أخشى عندما تأتي الأموال يأخذ ما يريده ويبتعد عنا أكثر»

ثم نظر تجاهي، وقال:

- «المشكلة الحقيقية الآن أن أرباح هذا المشروع ستبدأ بعد عام أو عامين ربما.. وخلال هذه الفترة لن أستطيع أن أعطي له المال حتى أسد جميع نفقات البيت، وهو للأسف لا يفكر في أي شيء سوى مصلحته ومطالبه التي لا تنتهي وبالتأكيد سيفتعل المشاكل»

شعرتُ مع جملة أبي الأخيرة أن هذا الوقت المناسب لإخباره، فركتُ يديّ وأنا أنظر بعيدًا، ثم رجعتُ إليه قائلة:

- «لا تقلق يا أبي سيُحل هذا الموضوع إن شاء الله»

عقد حاجبيه مستغربًا، وقال:

- «وكيف؟»

قلت بحماسة:

- «اليوم أرسلت لي إحدى شركات الدعاية للأدوية رسالة تخبرني فيها أنهم يريدون إجراء مقابلة شخصية معي بعد قراءة سيرتي الذاتية التي سيتحدد بعدها قبولي بإحدى الوظائف الشاغرة لديهم»

ثم تابعت بخوف:

- «أو رفضي»

عبس أبي بعد سماع كلامي، وقال:

- «ولكن يا حنين...»

أوقفته بيدي قائلة:

- «أرجوك يا أبي.. لن أسمح بتضييع هذه الفرصة من يدي؛ فجميع الشركات تشترط الخبرة وكما تعلم لم أزاول المهنة بمؤهلي من قبل وهذه الشركة الوحيدة التي أرسلت لي»

- «ولكن العمل ليس سهلًا كما تتخيلين.. ستصادفين كثيرًا من المشاكل والصعاب.. ستقابلين نوعية من البشر لم تريها من قبل»

تنهدتُ وأنا أنظر إلى براء القابع بحمام السباحة، قائلة:

- «أعلم ولكنني أحتاج إلى هذا العمل فأنت كما تعلم لم يترك لنا هاشم الكثير من الأموال حتى بعدما أوصيت صديقه المقيم بأستراليا ببيع متعلقاتنا التي مازالت هناك أتت بمبلغ زهيد، وأنا أريد أن أحافظ على مستوى معيشة براء ومارية لا أريد أن أحرمهما من أي شيء في يوم من الأيام بسبب قصر اليد»

ظهر الغضب على وجه أبي، وقال:

- «كيف تقولين هذا يا حنين وأنا مازلت على قيد الحياة»

- «لم أقصد هذا يا أبي بارك الله لنا فيك وأمد في عمرك، ولكن على الأقل هذه الفترة حتى تبدأ أرباح مشروعك تعود علينا، ثم إنني في حاجة لاكتساب هذه الخبرة، وإذا وجدتُ ما يضايقني بهذا العمل سأتركه على الفور»

ضيَّق أبي عينيه قائلًا:

- «ما رأيك أن أكلم جارنا دكتور مجدي وتعملين معه بالصيدلية؟»

هززت رأسي نافية:

- «لا يا أبي.. عملت قبل ذلك في مدة تكليفي بالكلية بإحدى الصيدليات، ولم أتكيف مع طبيعة هذا العمل، التعامل مع الجمهور يتطلب شخصية تتمتع بكثير من النقاط وأنا أفتقد لتلك النقاط»

أطلق أبي زفرة استسلام وهو يعقد أصابعه على الطاولة قائلًا:

- «ومتى تلك المقابلة؟»

ابتسمتُ له وأنا أجيب بحماس: « غدًا»

***

تملكني التوتر الظاهر في قوة زفراتي، وحركة أصابعي المستمرة، وهي تنقر بخفة على يدي الأخرى وأنا أجلس على ذلك الكرسي الجلدي الأنيق، وأتأمل الغرفة من حولي.

جذب انتباهي ذلك الحائط المعلق في أوله تمساح محنط صغير الحجم، وبعده بسنتيمترات كائن لم أعرفه.. له ذيل طويل، ورأس صغير محنط أيضًا ربما يكون سحلية، اتجهت بوجهي بعيدًا؛ فوضعي لا يتحمل النظر لهذه الأشياء الآن..

نظرتُ إلى المكتب الذي يبعد عني قليلًا فرأيت عينين تنظران لي بحدة، كان مجسمًا مصغرًا لثعبان فاتح فكيه لآخرهما ومخرج لسانه يأخذ وضع (الكوبرا) قبل أن تنفث سمها..

وضعتُ يدي على جبهتي وأنا أغمض عيني، يبدو أن هذا الشخص مولعٌ بالزواحف..

جذب نظري ذلك الحامل الذهبي المستطيل القابع بمقدمة المكتب، اقتربتُ برأسي حتى أستطيع قراءة الاسم..

«دكتور حاتم فؤاد.. مدير شركة (كير) لدعاية الأدوية والعقاقير»

سمعتُ صوت مقبض الباب، رجعتُ بظهري سريعًا إلى الوراء.. دخل شخص يتحدث بهاتفه وباليد الأخرى يحمل بين إصبعيه سيجارًا متجهًا إلى المقعد القابع خلف المكتب، جلس وهو يقول:

- «نعم نعم.. فهمت.. حسنًا أرسل لي البيانات كاملة على بريدي الإلكتروني الآن؛ حتى نبدأ في الدعاية سريعًا»

نظرتُ إليه كان يبدو في منتصف الأربعينيات.. شديد سواد الشعر لم ينل الشيب منه شيئًا إلا الفودين، أبيض البشرة، له شارب كث.. وضعت الوسامة لمستها على ملامحه، عطره يسبقه في الدخول إلى المكان، وتظهر عليه الأناقة الشديدة والاهتمام بمظهره.

أنهى مكالمته قائلًا:

- «حسنًا أنا في الانتظار.. مع السلامة.. مع السلامة»

نظر إلى الورق الملقى أمامه على المكتب، وهو يأخذ نفسًا من سيجاره ويخرجه ببطء، رفع نظره إلي مبتسمًا:

- «دكتورة حنين؟»

أجبتُ وقد بدا على نبرة صوتي التوتر:

- «نعم»

تابع وهو ينظر إلى الورق مجددًا، ويبدأ حواره مباشرة:

- «لن أكذب عليكِ.. ترددتُ كثيرًا في مراسلتك فكما هو واضح في سيرتك الذاتية أنك لم تعملي من قبل، ولكنني بحاجة شديدة لموظفين هذه الفترة؛ لذلك أرسلت إليكِ. في البداية سأعطيكِ راتبًّا ألف جنيه مقابل عدم خبرتك لمدة ستة أشهر وبعد ذلك نرى إن كان أداؤك جيدًا خلال هذه الفترة سأقوم بزيادة راتبك»

ثم نظر إلي وهو يتصنع الابتسام:

- «أو نستغني عن خدماتك متمنين لكِ كل التوفيق في حياتك القادمة»

اتجه إلى شاشة الحاسوب أمامه، وتابع:

- «عملنا ليس بالصعب.. شركات الأدوية تأتي إلينا فنقوم بالدعاية لمنتج جديد لديها ستطرحه في الأسواق، وكل ما نفعله أن نقوم بالاتصال بعدد من الأطباء والمستشفيات الخاصة، ونعرفهم بهذا المنتج وكيفية الحصول عليه»

بدأ بالتحرك من مقعده قائمًا:

- «سأعرفك الآن على زملائك بالشركة وسيقومون بشرح طبيعة العمل لكِ أكثر»

وقفتُ استعدادًا للذهاب معه، لكنه وقف أمامي وهو ينظر إلى وجهى بجرأة، خفضتُ بصري سريعًا إلى الأرض وقد ارتفعتْ حرارة وجهي خجلًا فلم أسترح لنظرته..

ضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

- «أمازال هناك فتيات يستحين بهذا الزمن؟!»

ثم قال بصوت منخفض:

- «بالمناسبة هل أنتِ متزوجة؟»

قلت وأنا مازلت أنظر إلى الأرض:

- «توفي زوجي منذ عام»

ابتسم قائلًا:

- «رحمه الله.. أتمنى أن تستريحي بيننا»

مد لي يده وهو يقول جملته الأخيرة، رجعتُ خطوة للوراء وأنا أهز رأسي بالنفي، تغير وجهه وضم أصابعه إلى باطن كفه وسحبها ببطء، قائلًا:

- «هيا لأعرفك على زملائك»..

تابعته إلى الخارج.. كانت الشركة عبارة عن شقة كبيرة، أول شيء يطل عليه الباب هو صالة استقبال العملاء، ثم ممر طويل بعض الشيء أوله تلك الغرفة التي أجريت بها المقابلة، ثم المطبخ والحمام وغرفة صغيرة، وفي نهايته غرفة كبيرة مقسمة لأربعة أجزاء يفصل بينها فاصل زجاجي متوسط الطول، وكل قسم به مكتب وجهاز حاسوب وهاتف.

كان يجلس على المكتبين الظاهرين أمامي شابان ظهرهما لي ويتجهان بوجههما إلى شاشة الحاسوب..

نادى دكتور حاتم:

- «دكتور أسامة، دكتور سيد، دكتورة رحاب.. تعالوا لأعرفكم على زميلتكم الجديدة»

قام الشابان وتحركا تجاهنا.. كان أسامة نحيل الجسم، طويلًا ذا بشرة قمحية، أما سيد فقصير القامة، ممتلئ الجسم، أسمر اللون.

تابع دكتور حاتم وهو يشير بيده تجاهي:

- «دكتورة حنين ستنضم إلينا من الغد، أريد منكما أن تشرحا لها طبيعة عملنا أكثر، ستجلس يومين تراقبكما؛ لتفهم كيف يتم الأمر أكثر ثم تبدأ في ثالث يوم»

أومأ لي أسامة مع ابتسامة باردة ثم انسحب، ورجع إلى مقعده، بينما رحب بي سيد وهو يقول بلكنة صعيدية:

- «أهلًا بكِ بيننا»

أومأت له برأسي وأنا أبتسم، سمعت صوت طرقات كعب حذائها العالية.. ظهرت من خلف الحاجز الزجاجي وهي تتقدم نحونا، كانت ممشوقة القوام ترتدي زيًّا ضيقًا يبرزه، شعرها مموج أسود داكن طويل يصل لنصف ظهرها، تضع الكثير من مساحيق التجميل على وجهها، وعطرها الفواح يسبقها.. مدت لي يدها وهي تنظر إلي قائلة:

- «أعتذر.. كنت أتكلم بالهاتف.. ويجب أن أنهي المكالمة أولًا»

نظر إليها دكتور حاتم قائلًا:

- «دكتورة حنين هي مهمتك القادمة يا رحاب، ستجلس بجانبك حتى تتشرب طريقة عملنا، أنا أعرف أنك خير مَنْ تقومين بهذه المهمة»

نظرت إليه وهي تبتسم لتكشف عن أسنان بيضاء مرتبة متراصة بشكل جمالي قائلة:

- «اعتمد عليّ»

رحل دكتور حاتم مغادرًا الغرفة، قالت لي رحاب وهي مبتسمة:

- «تعالي لأريكِ مكتبك»

مشينا خطوات قليلة حتى وصلنا إلى مكتبين ملاصقين لمكتبي أسامة وسيد، ثم قالت وهي تشير إليهما:

- «كما ترين مكتبك مجاورٌ لمكتبي»

اقتربت من المكتب وهي تفتح أدراجه وتقول:

- «عندما أخبرني دكتور حاتم بمجيئك بالأمس قمت بترتيب مكتبك وأفرغت الأدراج من محتويات من كان قبلك»

نظرت تجاه المقعد وأكملت:

- «إِنْ لم تستريحي بالمقعد أخبري دكتور حاتم على الفور وسيقوم باستبداله لكِ»

تابعت وهي تتجه لمقعد مكتبها:

- «ستجلسين بجانبي اليوم وغدًا، وستفهمين الموضوع أكثر من خلال متابعتك لما أقوم»

ثم ابتسمت قائلة:

- «نحن هنا جميعًا عائلة واحدة وستصيرين فردًا منها مع مرور الأيام، وأتمنى أن تستريحي بالشركة»

ابتسمت لها وأنا أتمنى ذلك أيضًا؛ فبداخلي شعور غريب لا أستطيع أن أحدده هل هو عدم ارتياح أم الخوف المعتاد مع بداية أي شيء جديد..

لا أعرف.. ولكن كانت تنتابني رغبة في البكاء لا أعلم سببها!!...

●●●

(14)

نظرت إلى عقارب ساعتي المتسارعة، خبطت بأصابع يدي اليسرى على قبضة يدي اليمنى بشكل متوالٍ ومتوتر وأنا أنظر إلى الشارع الخالي أمامي يمنة ويسرة، ويقف على الرصيف بجانبي على بعد متر من جهة اليمين عدد من الأشخاص مَنْ هم في مثل موقفي.

أطلقت زفرة ضيق وأنا أنظر إلى الأرض، وقد بدأ اليأس يخبرني بصوت هامس «ستتأخرين كالعادة» ولكن سرعان ما اختفى صوته مع ظهور علامات الأمل تلوح في الأفق من بعيد؛ فلقد أتت الحافلة..

وقفتْ على بعد خطوتين مني، فأسرعت صوب بابها قبل أن يهرول جميع الواقفين إليه، صعدت أبحث سريعًا ببصري بين هذين الصفين من المقاعد عن اليمين وعن الشمال حتى وجدتُ مكانًا خاليًا، جلست وأنا ألتقط أنفاسي وأحمد الله بداخلي أن حصلت على هذا المقعد بعد رؤية هذا البحر البشري الصاعد خلفي وكان من نصيبه الوقوف بالممر..

دومًا ما يحدث هذا مع بداية كل أسبوع.. تختفي سيارات الأجرة وتقل الحافلات الخاصة، كنت لا أدري سبب هذا حتى أخبرني دكتور سيد أن اللجان المرورية تنتشر صباحًا بالطرق مع بداية كل أسبوع، فيفر المخالفون؛

خوفًا من دفع الغرامة فيطرح هذا سؤالًا بداخل رأسي مع رؤية الطريق الخالي من وسائل المواصلات وهو «هل كل السائقين مخالفون؟!!»

وبرغم هذا الضغط الحاصل في صباح تلك الأيام فإنني أفرح بها في قرارة نفسي، فهي مبرر جيد أعلل به تأخري، فالحقيقة التي يجب أن أعترف بها أنني صرت أتأخر كل يوم سواء توفرت وسائل المواصلات أو لم تتوفر..

مضى لي في العمل ستة أشهر لم أتأخر في الأربعة الأولى منها يومًا، لم يبدأ التأخر إلا مع بدء العام الدراسي منذ شهرين وذهاب براء لإحدى رياض الأطفال التابعة لمدرسة قريبة من بيتنا..

صار هذا عبئًا صباحيًّا جديدًا أعاني منه، أن أقوم بإيقاظ براء وتحضير فطوره وطعامه الذي سيأخذه معه، وإيصاله إلى المدرسة، ثم ذهابي للعمل، سباق أخوضه كل يوم لاهثة أصارع عقارب الساعة فأفوز مرة وتسحقني مرات..

كثيرًا ما يحاول أبي وأمي مساعدتي ولكن لا أريد إرهاقهما فليس من العدل أن يتعبا بتربيتي أنا وأخي ثم بعد أن يصيرا كهلين ويرجوا الراحة أُلقي على كتفيهما ثقلًا كبيرًا بمسئوليات أطفالي فيعيدا الكرة مرة أخرى، كما أن أبي مشغولٌ كثيرًا هذه الفترة بمتابعة مشروعه الجديد..

كنت أفكر أحيانًا مع كثرة شعوري بالضغط هذه الفترة في ترك العمل والتفرغ لبراء ومارية ولكن أحاول أن أكمل سنة بعملي على الأقل؛ حتى أحصل على شهادة خبرة أعزز بها سيرتي الذاتية قليلًا أمام أية شركة إذا أردت

الرجوع للعمل يومًا فبعد أن دخلت هذا المجال علمت أهمية أن يكون لديك خبرة بعدد سنوات لا بأس بها؛ حتى تستطيع الحصول على وظيفة براتب جيد.

تنهدت وأنا أنظر للنافذة الزجاجية التي يفصل بيني وبينها مقعد تجلس عليه امرأة مسنة، وأفكر هل هذا حقًّا ما أريد ترك العمل لأجله أم ما يجعلني أفكر بترك العمل هو ذلك الرجل الذي تختفي حقيقته وراء بذلته الأنيقة وعطره القوي، أنعم الله عليه بالزواج من امرأة يثني مَنْ يعرفها على حسن خلقها كما أنها ابنة أحد الأثرياء المشهورين في البلد إلا أنه لا يمل من مغازلة النساء، يتفرس أية امرأة تمر عليه بعينيه ويحاول أن يجذبها بوسامته، وابتساماته اللطيفة، وطريقة حواره الأنيقة، يشبه الثعبان -الذي يضعه على مكتبه تمامًا- ذو جلد ناعم يغري به من حوله ويلف ببطء حول فريسته حتى إذا تمكن منها نفث سمه، قليلات مَنْ نجين منه وكثيرات وقعن بشباكه..

أعلم أنه لا يحب وجودي بالشركة؛ فأنا لست من النوع المفضل لديه فصرامتي وملامحي المقتضبة بوجهه دائمًا ربما تذكره بحقيقته القذرة، ولكن مهارتي بالعمل التي اكتسبتها سريعًا تجعله يتمسك بوجودي رغمًا عنه..

زملائي أكتشفهم أكثر مع مرور الأيام.. دكتور أسامة لم أرتح له من البداية، صمته الدائم ونظرته الماكرة يثيران الريبة حوله، عرفت فيما بعد أنه عين لدكتور حاتم بيننا ينقل له كل كلامنا وأفعالنا كما أنه يحاول أن يصل إلى أية معلومات عن العملاء وينقلها له مقابل مكافأة مادية.. تجنبته من البداية، أرد عليه تحية الصباح إِنْ ألقها وغير ذلك لا حديث بيننا..

ودكتور سيد متزوج ولديه ثلاثة أبناء.. خفيف الظل.. يحب عائلته كثيرًا، وأغلب وقته يتحدث عنهم، يذكرني حبه لزوجته وأولاده بحب أبي لنا.. شهامته الصعيدية تغلب عليه في كثير من المواقف معنا..

حاولت كثيرًا أن أتجنبه؛ فأنا أحاول أن أحافظ على العهد الذي اتخذته على نفسي مع أول يوم لي بالكلية وهو ألا أختلط بالرجال ولا أتحدث إليهم إلا للضرورة ولكنه يقتحم مَنْ أمامه بعفويته المفرطة وحبه للمساعدة.. أتذكر يوم أن قدم لي عرض زواج بأحد أقاربه واعتذرت له، وبعدها بأسبوعين قدَّم لي عرضًا آخر فاستأذنته أن يتوقف عن هذا؛ لأنني لن أرتبط بأحد بعد وفاة زوجي، أخبرني وقتها أنه فعل ذلك لأنه يحترمني كثيرًا وكان يتمنى أن أنتسب لعائلته ويأمل أن يرى ابنته يومًا مثلي..

أما رحاب فهي أغرب مزيج تعاملت معه في حياتي..

عندما اقتربنا من بعضنا أكثر وجدتها فتاة تحمل قلبًا طيبًا للغاية، ساعدتني في فهم طبيعة العمل جيدًا ولم تتركني حتى تمكنت منه..

أحيانًا تأخذ حصتي المتبقية من العمل وتقول «اذهبي أنتِ حتى لا تتأخرين على أولادك وسأكمل أنا».. تأتي في بعض الأوقات بعلبة صغيرة من الطعام وتخبرني أنها تذكرتني عندما كانت تأكل بالأمس واحتفظت لي بهذا الجزء حتى نتذوقه معًا.

تخبرني جميع أسرارها ومشاكلها ومخاوفها أن تتقدم بالسن أكثر دون زواج وقد بلغت الثلاثين من عمرها، طيبتها ومواقفها معي جعلتني أحبها وأتعلق بوجودها في حياتي.. الشيء الذي يحزنني هو اقتناعها التام بتلك المبادئ الخربة فهي ترى أن الرجل لا يأخذ قرار الارتباط بفتاة إلا إذا تأكد من تناسق قوامها ونعومة شعرها المنسدل؛ لذلك هي ترتدي هذا الزي وتضع الكثير من مستحضرات التجميل؛ لأنها الطريقة المثلى في حصولها على العريس المناسب، وأنه لا يوجد أي ضرر من ذهابها مع دكتور حاتم وأسامة إلى الغداء أو في رحلة فهذه زمالة، كثيرًا ما حذرتها من كثرة مزاحها مع دكتور حاتم وهي أعلم به مني وأعلم بحقيقته، فتخبرني:

- «اطمئني يا حنين هو يعلم جيدًا أنني لست من اللواتي يحاول العبث معهن، ولكنني أحاول أن أجاريه ولا أضايقه؛ حتى لا يستغني عن وظيفتي في أي وقت»

ومالت عليّ وقتها ناصحة:

- «ونصيحة مني يا حبيبتي حاولي ألا تعبسي في وجهه، لن يحدث شيء إذا ضحكتِ على نكاته التافهة الحمقاء، أو اطمئننتِ على صحته عندما ترينه في الصباح، أو أن تثني على شيء جديد ارتداه، كل هذه الأشياء ستجعل لكِ رصيدًا عنده ولن يبخل عليكِ بالمكافآت؛ فأنتِ الموظفة سريعة البديهة اللَبِقَة التي تهتم بتفاصيل ليست لها أية أهمية ولكنه يسعد بذكرها كطفل صغير.. وكما يقول المثل (الرزق يحب الخفية)»

كنت أواجه كلامها باعتراض شديد، وأفهمها حقائق الأمور، وهي أننا لسنا بضاعة تُباع وتُشترى، ويجب أن يتأكد التاجر من جودتها قبل الشراء، وأن الحياة الزوجية لا تُقام على هذا الأساس، وأن دكتور حاتم لا ينظر إلى الأمور بنظرتها، وربما لم يحاول الإيقاع بها إلى الآن لأنه لم تخطر هذه الفكرة بباله بعد، أحاول دائمًا أن أشعرها بنتائج ما تفعل ولكن تشرَّب عقلها بتلك المفاهيم المعطوبة للأسف..

أتت أمامي تلك اليافطة الحمراء التي أعرف منها أنه يجب أن أستعد للنزول، فالشركة بعدها بخمسة مباني، نزلت وأنا أمشي تجاه مقر الشركة بخطى سريعة حتى وصلت إلى هناك، جلست على مقعدي بعد أن ألقيت حقيبتي على المكتب، وأنا ألتقط أنفاسي بشكل متسارع، نظرت إلى رحاب وسألتها:

- «هل أتى؟»

أجابت:

- «نعم من نصف ساعة.. ومنذ أن جاء وهو يسأل عنكِ»

أطلقت زفرة ضيق وأنا أتجه ببصري بعيدًا، قامت رحاب من مقعدها واقتربت مني قائلة بصوت هامس:

- «اليوم يرتدي بذلة جديدة أثني على اختياره لها، وستمتصين غضبه بهذه الطريقة، سيخبرك بعدها كم هو يحب هذا اللون، وأن هذه البذلة نادرة الوجود وتعب كثيرًا حتى حصل عليها، وسينسى أمر تأخرك»

نظرت إليها والتذمر يعلو وجهي، سمعنا وقع خطواته في الممر، فرجعت رحاب سريعًا إلى مكتبها، دخل الغرفة متجهًا ناحيتي وهو يشير إلى ساعته قائلًا بغضب:

- «كم الساعة معك الآن دكتورة حنين؟»

وقفت وأنا مطأطئة رأسي:

- «أعتذر.. لقد كان الطريـــ...»

- «أعذار.. أعذار.. أعذار.. كل يوم الأعذار نفسها التي لا تنتهي، نحن نعمل بشركة دعاية يا دكتورة مما يعني أن كل دقيقة تساوي اتصالًا يدر علينا المال»

نظرت إلى رحاب بطرف عيني فوجدتها تضع سبابتها بالقرب من فمها وتحركها بشكل مستدير رافعة حاجبيها، وتنظر إليّ في إشارة منها أن أتحدث، هززت رأسي بالنفي بعد أن أغمضت عيني، نظر إليّ دكتور حاتم الواقف أمامي، وهو يحملق بي سائلًا:

- «ماذا تعني بهزة رأسك تلك؟»

انتبهت لما فعلت، وقلت:

- «أعتذر لم أقصد بها شيئًا»

أكملت سريعًا:

- «سأبدأ عملي على الفور، وسأجلس ساعة بعد انتهاء ساعات العمل؛ حتى أعوض ذلك التأخير»

نظر إليّ وقد بدا عليه الرضا قليلًا بهذا التعويض، قائلًا:

- «حسنًا ولكن الأهم من ذلك ألا يحدث هذا التأخير مرة أخرى»

أومأت له برأسي موافقة، نظر إلى رحاب وابتسم تلك الابتسامة السمجة وبادلته رحاب الابتسامة نفسها، وغادر بعدها، علا صوت رحاب بالضحك بعد أن خرج قائلة:

- «عنيدة»

ابتسمت لها:

- «أنا لا أقتنع بمبادئك يا رحاب»

جلست على المقعد وأنا ألتقط الهاتف من حقيبتي؛ لأجري اتصالًا:

- «السلام عليكم يا أبي.. سأثقل عليك بطلب اليوم سأتأخر بالعمل حتى أعوض تأخيري صباحًا أرجوك أن تحضر براء من المدرسة.. حسنًا يا أبي.. بارك الله لنا فيك.. تأكدوا أنه تناول غداءه وعندما أحضر أنا سأقوم بحل واجباته المدرسية معه.. حسنًا.. مع السلامة.. مع السلامة»

نظرت إلى حاسوبي وشرعت في فتح ملفات عمل اليوم، وأنا أمسك سماعة الهاتف القابع بجوار الشاشة بعد أن ضغطت على أحد أزراره وأقول:

- «عم عبده.. واحد شاي باللبن إذا سمحت»...

***

جرت ساعات اليوم سريعًا لكن غنيمة الاتصالات كانت جيدة مما أمدني بطاقة لأجلس ساعتي الإضافية دون تعب، وأضفت ساعتين أخرتين لها في محاولة مني لتكوين رصيدٍ عند دكتور حاتم فأنا لا أضمن أن يحدث تأخير مرة ثانية فتشفع تلك الساعات عنده ويتجاوز عن الأمر.

عملنا يبدو سهلًا لكنه مرهق وممل؛ فكل مكالمة نردد الكلام نفسه بالصيغة نفسها بالأسلوب نفسه، وكأننا آلة مسجلة برسالة موحدة تكررها كل دقيقة..

عرضت عليّ رحاب منذ الصباح أن تنجز العمل بدلًا مني في الساعة الإضافية، ولكنني رفضت، فلقد تحملت الأسبوعين الماضيين كثيرًا من المكالمات نيابة عني، فقررت أن تبقى معي حتى أنتهي ولا أشعر بالوحدة، وتنجز هي الأخرى المزيد من المكالمات، نظرت إلى الساعة أسفل شاشة الحاسوب وقد اقتربت دقائقها على إتمام السادسة مساءً، أخذت رشفة من كوب القهوة سريعة التحضير، وأنا أريح ظهري للخلف وأحرك رقبتي يمنة ويسرة، استدرت بالكرسي لليسار تجاه رحاب قائلة:

- «سأنتهي بعد عشر دقائق.. بدأت أشعر بالتعب بجانب أنني تأخرت على الأولاد»

أومأت لي برأسها:

- «حسنًا سأنتهي أنا الأخرى الآن لكي نذهب معًا»

أخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة، وإصبع أحمر شفاه، وأعادت طلاء شفتيها وضمتهما إلى الداخل، وهي تنزل خصلات شعرها على عينيها وترجعها قليلًا للخلف، أخرجت قنينة عطر وأخذت ترش بخات متتالية في شكل دائري حولها..

قلت لها محذرة:

- «لا تضعي الكثير؛ حتى لا تلتقط ثيابي الرائحة منك وأستطيع أن أمشي بجوارك بالطريق»

قالت:

- «لا تقلقي هذا من النوع الرخيص.. ستطير رائحته قبل أن نخرج من هنا»

نظرت باستغراب إلى رحاب وقد علا صوت رنين هاتفي قائلة:

- «إنها أمي.. يبدو أن براء أتعبها اليوم وتريد أن تعرف متى سأعود»

أجبت:

- «نعم يا أمي سأقوم حالًا وأتـ...» ولكنني توقفت، قمت ببطء وأنا أستند إلى المكتب الذي أمامي منحنية، وقد تملكني الفزع وأنا أسمع أمي صارخة:

- «أبوكِ يا حنين.. أبوكِ»

***

ترجلت من سيارة الأجرة سريعًا بعد أن وصلت إلى المشفى التي أخبرتني أمي باسمها، واستطعت أن أميزه بصعوبة وسط بكائها المستمر..

نادى السائق بصوت عالٍ:

- «الباقي يا أستاذة»

أجبته وأنا أتحرك صوب باب المشفى بحركة سريعة:

- «احتفظ به»

تحركت داخل المشفى حتى وصلت إلى الطابق الثاني، مشيت بممر طويل يؤدي إلى غرف عدة حتى وصلت إلى آخره، ونظرت إلى جهة اليمين لممر صغير يضم ثلاث غرف، فوجدت أمام باب الغرفة الأخيرة آسر وهو يعقد ذراعيه أمام صدره مستندًا إلى الحائط، وأمي تبكي وتضع يدها على فمها، وخالي بجانبها يربت على كتفها، اقتربتُ منهم وقد انقبض قلبي من رؤية الحزن القابع عليهم، جرت أمي نحوي ودفنت رأسها بداخلي وانفجرت في البكاء، ربت على كتفها وحاولت أن أهدئها وأنا أمسح على ظهرها، نظرت إلى خالي وسألته بعيون حائرة:

- «ماذا حدث؟»

نظر خالي إلى الأرض وقال بحزن:

- «رجل الأعمال الذي كان يجمع الأموال لبدء المشروع المنضم له أبوكِ.. هرب مساء الأمس إلى خارج البلاد»

اتسعت عيناي من هول المفاجأة، وتابع خالي:

- «لم يتحمل أبوكِ وقع الخبر.. عندما علم بالأمر أغشي عليه، واتصلوا بنا، فنقلناه إلى المشفى، والآن الأطباء بالداخل في انتظارهم ليخبروني ماذا حدث له»

تركتْ أمي حضني وهي تقول بغضب ودموعها تتدفق على وجنتيها:

- «لا نريد أموالًا.. لا نريد أموالًا.. ملعونة الأموال أينما ذهبت.. ملعونة»

أمسكتُ بيدها وأنا أحاول تهدئتها:

- «اصبري يا أمي.. اصبري..سيخرج الأطباء الآن ويطمئنونا أنه مجرد عارض وسيزول إن شاء الله»

قال آسر بصوت ينم عن الضيق:

- «لا أعرف كيف فعل هذا.. كيف يضع جميع أموالنا في مشروع واحد مع رجل لم يسبق له التعامل معه..كنت أظن أنه يضع بعض الأموال وليس كل ما نملك»

نظرتُ إليه وهممتُ بقول شيء لولا أننا سمعنا صوت باب الغرفة يُفتح..

خرج طبيبان.. ذهب أحدهما بينما بقي الآخر، أسرعنا تجاهه لنطمئن، بدأ الحديث وعلامات الأسف بادية عليه:

- «للأسف ارتفع ضغطه فجأة بشكل كبير مما أدى إلى حدوث جلطة»

صمت برهة وتابع:

- «وكانت السبب في إصابة نصفه الأيمن بالشلل»

شهقتْ أمي وهي تضرب بيدها على صدرها وترجع للخلف، بينما جرت دموعي على خدي بعد سماع كلام الطبيب..

سأله خالي:

- «هل نستطيع رؤيته؟»

- «الليلة لا.. ربما نسمح بالزيارة بعد يومين أو ثلاثة»

قالت أمي بصوت باكٍ:

- «سأبقى بجواره الليلة»

قال الطبيب:

- «لا داعي لذلك فلن تستطيعي رؤيته، من رأيي أن ترجعوا جميعكم للبيت وتأتون غدًا»

سألته بصوت متهدج:

- «إلى متى سيتم حجزه هنا؟»

أجاب:

- «لا نعلم.. ربما يطول الأمر أو يقصر، ولكن إلى الآن وضعه غير مستقر ويجب وضعه تحت أعيننا»

استأذن منا وذهب، أصرت أمي على المبيت وأنها لن تذهب إلى أي مكان وتتركه هنا وحده، حاولتُ أنا وخالي إقناعها أن لا فائدة من ذلك وأن جسدها لن يتحمل الجلوس على الكرسي طوال الليل، وعندما يحل الصباح سنأتي ثانية، وافقت على الذهاب معنا على مضض بعد رفضها التام للرجوع إلى البيت.. ذهبا مع آسر إلى السيارة بينما ذهبت أنا إلى قسم الحسابات؛ لأستلم الفاتورة، تفاجأت بهذا الرقم المكون من أربعة أرقام وهو حساب ليلة واحدة، أخبرتهم أننا سنقوم بدفع المبلغ صباح اليوم التالي، ولحقت بأمي وخالي وآسر إلى السيارة، كانت أمي تبكي طوال طريق عودتنا إلى البيت بينما كنت أفكر أنا في وضع أبي، وإصابته المفاجأة، وكلام الأطباء الذي لا يبشر بالخير، وماذا سنفعل الآن.. كيف ستكون شكل حياتنا بعد هذه الصدمة، لم نعتد الفقر يومًا بل كنا مرفهين نتقلب في نعم الله، لم يحرمنا أبي من أي شيء طلبناه.. اعتدنا على أسلوب حياة معين سنأخذ وقتًا طويلًا حتى نتعود على غيره.

وصلنا إلى البيت وكانت في استقبالنا أم سعد، فتحت الباب وقد ظهر على وجهها الوجل، سألت عن حال أبي حتى علمت فأخذت في البكاء والدعاء له وشاركتها أمي في ذلك..

سألتها بعد أن هدأت قليلًا:

- «هل نام الأولاد يا أم سعد؟»

قالت:

- «نعم ناما منذ ساعة ولم يتوقف براء عن السؤال عنكم»

هززت رأسي قائلة:

- «كنت أتوقع ذلك.. فطبيعي أن يشعر بالاضطراب فجأة عندما نختفي جميعًا من أمامه»

ذهبتُ لألقي عليهما نظرة بينما استأذنت أم سعد للذهاب مع وعدها أنها ستأتي غدًا صباحًا، خرجت ووجدت أمي وخالي يجلسان بغرفة المعيشة وخرج آسر لينضم إلى الجلسة لأول مرة منذ زمن..

بدأ آسر الحديث وقد بدا عليه الضيق الشديد قائلًا:

- «ماذا سنفعل الآن؟»

أخرجت الفاتورة ووضعتها على الطاولة التي تنتصف الغرفة قائلة:

- «هذه فاتورة ليلة واحدة فقط، وكما تعلمون الأمور الآن اختلفت ولم يعد معنا أية أموال.. وضع أبي جميع أموالنا بهذا المشروع»

التقط آسر الفاتورة ونظر إليها وهو عاقد حاجبيه..

صمتُّ برهة ثم أكملتُ:

- «لا نعرف إلى متى سيبقى أبي بالمشفى، ولا حل لدينا لدفع تلك الفاتورة والفواتير القادمة إلا ببيع السيارة.. لم يتبقَّ غيرها أمامنا»

جحظت عينا آسر وهو يقوم قائلًا:

- «ماذا تقولين يا حنين!! لن نستطيع بيع السيارة.. كيف سنقضي مشاويرنا!!»

قمتُ أمامه وأنا أصيح وأنظر إليه مستنكرة وقد فاض بي:

- «أهذا كل ما يشغل بالك!! السيارة ومشاويرنا؟! ألم يخطر ببالك أننا إذا لم ندفع تلك الفواتير سيخرجون أباك من المشفى!! أبوك الذي صنعك وجعل منك رجلًا لتكون سندًا له في الحياة وخيبت ظنه»

قمتُ من مكاني وتحركتُ أمام الطاولة مشيرة إليه بيدي:

- «انظر لنفسك متى خرجت لتجتمع معنا؟ خرجت الآن بعد حدوث مصيبة كبرى.. أين أنت منذ شهر؟ أين أنت منذ عام؟ أين أنت منذ عامين؟ لا أستبعد أن يكون جرى ما جرى لأبي من فرط حزنه لعلمه أن لا أحد سيتحمل مسئوليتنا بعد أن فقدنا أموالنا»

ثم تابعتُ بصوت منخفض:

- «إِنْ كنت تفكر ماذا سنفعل بعدما أصبحنا فقراء فأنا أرى أن توفر مجهود تفكيرك في البحث عن عمل أفضل بدلًا من الجلوس بالبيت ومرافقة العاطلين غير النافعين»

قام آسر غاضبًا متجهًا نحوي وهو يرفع يده قائلًا:

- «كيف تجرئين على قول هذا؟!»

قام خالي ليمسكه ولكن كان آسر أسرع منه في الوصول إليّ..

كادت يده أن تصفع وجنتي لولا أن مسكتها بقوة وأنا أنظر بحدة لعينيه:

- «لا تتخيل أنني سأسمح لك بفعل ما لم يفعله معي أبي طوال حياتي.. أعلم جيدًا أن ما أغضبك ليس كلامي ولكنها الحقيقة هي التي أغضبتك»

حدق بعيني برهة، ثم أزاح يدي، واتجه إلى غرفته غاضبًا، وأغلق الباب وراءه بقوة.. وضعت أمي يدها على رأسها وقالت باكية:

- «لم تتشاجرا طوال حياتكما.. ستتشاجران الآن!!»

قال خالي:

- «هما لم يتشاجرا يا مديحة.. ولكن كلام حنين صحيح مئة بالمئة وكان لا بد أن يسمعه آسر»

اتجهت إلى خالي؛ لأنهي الحوار بهذا الموضوع حتى لا تزيد أمي في البكاء وقلت:

- «خالي، أعلم أن لديك العديد من الأصدقاء.. اعرض عليهم أمر بيع السيارة فقد يرغب أحدهم بشرائها حتى إن خسرنا قليلًا من ثمنها، وسأعرض أنا الأخرى بيعها على زملائي بالعمل»

أومأ لي خالي برأسه موافقًا، ثم اتجهت بحديثي لهما معًا:

- «الآن تغيرت الكثير من الأمور.. لم يعد لدينا أموال مما يعني أننا سنتخلى عن كثير من الأشياء ونعيش حياة جديدة بشكل مختلف»

قاطعني خالي:

- «سأساعد بكل ما أستطيع معكم يا حنين»

- «لا يا خالي نحن نعلم ظروفك.. ونعلم أن راتبك بالكاد يكفيك، كما أن هذا الأمر لن يرضي زوجتك، ونحن لا نريد أن نسبب لك المشاكل»

زدتُ:

- «سأستعين بالله وسأحاول أن أكثف عملي؛ حتى أستطيع توفير الأموال دون أن نكون بحاجة لأحد فالأبواب المفتحة في هذا البيت عديدة وتحتاج للكثير»

ختمتُ كلامي وأنا لا أعرف من أين أتيت بهذه الثقة في كلامي فأنا لا أعلم هل سأستطيع حقًّا توفير الأموال أم لا.. شعرتُ بالمسئولية عندما رحل هاشم وترك لي براء ومارية، ولكن الآن الأمور اختلفت.. الآن أصبح في رقبتي براء ومارية وأبي وأمي وآسر وبيتنا، إحساسي بالمسئولية أصبح ثقيلًا جدًّا حتى إنه يطبق على صدري ولا أستطيع التنفس، أصبحتُ أشعر بالاختناق وبخوف من نوع جديد لم يصيباني من قبل.

●●●

(15)

يُقال إن المال لا يجلب السعادة.. أظن مَنْ قال هذه المقولة لم يعش الفقر يومًا، ولم يمر بشعور العجز الذي يتملكني الآن.. لم يعبث الخوف بقلبه من فقد حبيب لا يستطيع شراء الدواء له، ولم يتقلب ليلًا في سريره قلقًا من حلول نائبة أخرى تأتيه من حيث لم يحتسب وتفتك بما تبقى لديه من وريقات زهيدة..

قد لا يجلب المال شعور السعادة ولكن فقده يجلب كثيرًا من المشاعر المخيفة..

نظرت إلى شاشة حاسوبي وأنا أتكئ بكوعيّ على المقعد وأسند ذقني بكلتا يدي، ويتملكني الضيق وأنا أسمع دكتور حاتم وهو يخبر رحاب عن ثمن نظارته الشمسية، وكيف أن كل من يراها يصبه الجنون من جمال شكلها ويسأله من أين اشتراها، إنسان مغرور مهووس بالمناظر يبذر أمواله يمنة ويسرة دون أن يقدر قيمتها..

ربما أصبح يزعجني ذكر أية أرقام كبيرة من الأموال أمامي، عندما يذكر المبالغ التي يشتري بها أشياءه أتخيل إِنْ امتلكتُ هذا المبلغ كيف سأستطيع أن أؤمن به عدة أمور في حياتي لأشهر قادمة.

بعد حادث أبي تغيرت نظرتي للحياة تمامًا ظهر ذلك النوع من الخوف الذي لم أعتده يومًا، وتغلغل بقلبي.. الخوف من الغد.. صار سؤال «ماذا لو؟» لا يفارق عقلي.. ماذا لو نفذت الفلوس قبل نهاية الشهر؟ ماذا لو حدث أي شيء جديد وتطلب دفع الأموال؟ ماذا لو لم أستطع دفع رسوم مدرسة براء؟.. ماذا لو..؟ ماذا لو..؟

أضع رأسي على الوسادة كل ليلة وأنا أحمد الله أن انتهى اليوم دون أن يجد جديدٌ يستدعي صرف المزيد من الأموال فتخرب الميزانية المحددة التي أضعها له، ولكن ما يؤرقني أنه بالتأكيد لن يستمر الحال هكذا ستأتي أيام لن أعرف فيها ماذا سأفعل.. أكثر ما يفزعني هذه الفترة أن النقود التي أتت من جراء بيع السيارة قد أوشكت على النفاذ ومصاريف هذا المشفى غالية جدًّا، ولكنهم في المقابل يعتنون بأبي جيدًا، ولن أجازف بنقله لمشفى آخر أرخص منه.. صحة أبي أهم من كل شيء، ثم بماذا أفادتنا النقود، كل ما يحصل لنا الآن من تحت رأسها، سأقترض المال إن استلزم الأمر ولكن لن أنقل أبي من هذا المشفى..

أرجعت رأسي إلى الخلف وأنا أنظر إلى السقف، وأستدير بحدقتي عيني في الأرجاء..

أصبحتُ أمقت هذا المكان يومًا بعد يوم، فيما مضى كان عملي اختياريًّا أستطيع أن أتركه في أي وقت أردت، كان السبب الوحيد لاستمراري به هو الحصول على شهادة خبرة فقط أما الآن فلا.. لم أعد أملك الاختيار،

أصبح هذا العمل إلزاميًّا، ضرورة لا بد منها، ولا أستطيع تركه حتى أجد وظيفة ثانية مما يعني أن أبقى في هذا المكان سنة ونصف على الأقل.. فجميع الوظائف ذوات الرواتب الجيدة لا تقبل بخبرة أقل من سنتين..

أكثر شيء ينقصني هذه الفترة هو حسن الظن بالله والتوكل عليه.. ظللت أسمع طوال عمري عن الرضا والصبر، وظننت أنني قادرة على القيام بهما حتى أتت النوائب واكتشفتُ أن تطبيقهما ليس سهلًا بالمرة..

سمعت خطوات رحاب بكعب حذائها العالي وهي قادمة نحوي حتى وصلت لمكتبها وهي تشير إلي بإبهامها إلى الخلف..

اعتدلت في جلستي سريعًا، أطل دكتور حاتم برأسه من خلف الحاجز الزجاجي لمكتبي سائلًا:

- «كيف حال العمل دكتورة حنين؟»

أجبت وأنا أنظر إلى حاسوبي:

- «الأمور كلها جيدة الحمد لله»

أخفض صوته وتابع:

- «وكيف حال الوالد الآن؟»

قلت:

- «الوضع كما هو عليه منذ أسبوعين، لا جديد»

- «شفاه الله»

- «اللهم آمين..شكرًا»

استدار وسأل أسامة وسيد عن حال عملهما أيضًا، ثم اتجه مغادرًا الغرفة.. نظرتْ إليّ رحاب بعين حزينة وقالت:

- «لم يحدث أي جديد؟»

هززت رأسي لها نافية، وقد امتلأتْ عيناي بالدموع، اقتربت مني وهي تضع يدها على كتفي:

- «تماسكي يا حنين.. أعلم أن الأمر صعب»

سقطت دموعي مسرعة على وجنتي، وقلت:

- «الأطباء لم يطمئنونا قط.. بل إنهم يخبروننا أن الحالة تزداد سوءًا»

ناولتني رحاب منديلًا ألتقط به دموعي المتلاحقة وقالت:

- «سيشفى وسيكون بخير وسيرجع ثانية بينكم إن شاء الله»

- «أتمنى ذلك يا رحاب وليس بعيدًا عن الله»

مسحت وجهي بشكل سريع وتابعت:

- «أنا انتهيت من عمل اليوم سأقوم الآن للذهاب إلى المشفى»

- «حسنًا وإِنْ جَدَّ أي أمر أخبريني»

- «حسنًا»

قمت متجهة خارج الشركة، استقليت إحدى سيارات الأجرة لأصل إلى المشفى، وصلت إلى هناك وصعدت إلى طابق غرفة أبي فوجدت

أمي تجلس بإحدى المقاعد القريبة من الغرفة، سألتها بعد أن ألقيت عليها التحية واطمأننت على حالها:

- «هل من جديد؟»

هزت رأسها نافية، رأيت أحد الأطباء يمشي بالممر، استأذنتها وذهبت إليه قائلة:

- «أنا ابنة السيد طارق.. كيف الوضع؟»

قال وهو يضع يده بجيوب معطفه الأبيض وسماعته الطبية تحاوط رقبته:

- «لا أريد أن أحزنك ولكن لا توجد استجابة، والحالة تزداد سوءًا، كما أنه يتنفس بصعوبة منذ ساعة ونجري له التحاليل الآن، ونشك أنه أصابه التهاب رئوي مما يستدعي وضعه على جهاز تنفس صناعي»

ابتلعتُ ريقي بعد سماع كلامه، وقلتُ:

- «حسنًا شكرًا لك، سأتابع معكم اليوم إلى أين وصلت حالته، وأرجوك لا تخبر أي أحد عن صحته سوى أنا وخالي؛ فأمي لن تستطيع تحمل هذه الأخبار»

رجعتُ إلى أمي بوجه واجم لا أدري ماذا أقول لها، قلت بتردد بعد سؤالها لي ماذا قال الطبيب:

- «يقول إنه يلقى بعض الصعوبة في أثناء التنفس، ومن الممكن أن يضعوه على جهاز تنفس صناعي»

ثم تابعت مسرعة:

– «أظن أنه إجراء روتيني لا أكثر.. وسيتحسن بعده إن شاء الله ويكون بخير»

تنهدت أمي وهي تستغفر الله وتنحي وجهها جانبًا.. ثم قالت:

– «أنا أعلم أن حالته تتدهور مهما حاولتِ أن تخفي عني الأمر يا حنين»

قلت والحنق يملأ صوتي والدموع محتبسة في عيني:

– «لا أعلم لماذا؟ لماذا لا يستجيب وتتدهور حالته بالرغم من محاولات الأطباء المستمرة.. هل نقوم بنقله إلى مشفى آخر؟»

هزت أمي رأسها بالنفي:

– «هذا لن يصلح شيئًا، أنا أعلم ما في أبيكِ فهذه عِشرة سنين.. فالجانب النفسي يؤثرعلى حالته بشكل كبير، وأنا أعرف كيف فكر في الأمر، شعر بالخوف كثيرًا عليكِ وعلى أولادك وعليّ وعلى آسر، والآن يشعر بالذنب؛ لأنه السبب في كل ذلك هو يفضل الموت على أن يراكِ بيوم مُهانة تتحملين فوق طاقتك لكي لا تخسرين حفنة من الأموال، أخبرته مرات عدة أننا لا يشغل بالنا الأموال وضياعها، كل ما يشغل بالنا أن يتعافى ويصبح بيننا من جديد، ولكنه لا يفكر بالأمر مثلنا»

تنهدتْ وهي تتابع:

– «لا نملك له الآن سوى الدعاء.. الدعاء فقط»

ربتُّ على كتف أمي وأنا أفكر بكلام الطبيب الذي أخبرني به للتو.. كنت أعيش على أمل ضعيف أن تتحسن حالته ويتعافى، ولكن كلامه أصابني بالإحباط وجعلني أخاف بشدة على أبي، وأخاف من تطور حالته.. كنت أقوى بأبي على فقد هاشم وأتمنى أن يتحسن؛ فبمرضه أشعر أنني هشة وضعيفة.. ضعيفة جدًّا...

***

مر أسبوع سادت خلاله حالة من القلق والخوف تجاه وضع أبي المضطرب، والترقب لمعرفة راتبي الجديد؛ فلقد مرت الستة أشهر، وحان موعد زيادتي وزيادة جميع من في الشركة، شعرتُ أن هذه الزيادة جاءت في وقتها المناسب تمامًا، فأنا أعقد عليها الكثير من الآمال.. ستحمل عني بالتأكيد عبئًا من المصاريف الحياتية وستخفف قليلًا من ضغط المصاريف الذي أواجهه..

استقبلتني رحاب على باب الغرفة وهي تهز مظروفًا بيدها مبتسمة، وتقول:

- «زيادة الراتب»

اقتربت مني والسعادة تملأ وجهها:

- «زدت ألف جنيه وصار راتبي ألفين ونصف جنيهًا»

ابتسمت لها بعد أن انشرح صدري من سماع زيادتها، وقلت:

- «بارك الله لكِ في أموالك يا حبيبتي»

قال دكتور سيد -وهو يعقد حاجبيه- مستنكرًا:

- «لا أعرف لماذا زادت دكتورة رحاب ألف جنيه بينما أنا وأسامة ثمانمائة جنيهًا وجميعنا يعمل عدد الساعات نفسها إِنْ لم أكن أكثر!»

ضحك أسامة بابتسامة خبيثة تحمل كثيرًا من المعاني، وقال:

- «كل معزة ولها ثمن، وأنت تعلم معزة دكتورة رحاب عند دكتور حاتم يا سيد»

لم تعلق رحاب على كلام أسامة الأخير، وقد فهمت مغزاه.. سحبتني من يدي وهي تقول:

- «مظروفك على المكتب هيا لتعرفي زيادتك»

جلستُ على مقعدي وأنا أنظر إلى المظروف الموضوع أمامي وأفكر.. حتى إن زدت ثمانمائة جنيهًا مثلهما فهذا مبلغ جيد بالنسبة لي، أستطيع على الأقل أن أسدد به الرسوم المتبقية لمدرسة آسر هذا العام..

تناولتُ المظروف وأنا أبتسم.. قمتُ بفتحه ببطء وأخرجتُ ما فيه، لم يكن بداخل المظروف غير ورقة واحدة من فئة المائتي جنيه.. فتحتُ المظروف مرة أخرى ونظرتُ بداخله جيدًا لكنه لم يكن يحمل سوى هذه الورقة.. بُهتُّ عندما تأكدتُ من مبلغ زيادتي بينما صمتت رحاب تمامًا وأطلق أسامة ضحكة ساخرة وعلق سيد: «هذا ظلم».. قلت: نعم هذا ظلم شديد، عملتُ كثيرًا خلال هذه الأشهر الستة، وكنتُ أعوض عن تأخري، وفهمتُ العمل، وتمكنتُ منه بوقت قياسي، هو يستغل ظروفي ويعلم جيدًا أنني لن أستطيع تركه الآن وأننا بحاجة إلى المال؛ لذا سأقبل بأي شيء وسأصمتُ.. فأي ابتزاز هذا؟!!

سمعنا وقع خطواته بالممر، اعتدل الجميع على مقعده ناظرين إلى حواسيبهم..

دخل وتلك الابتسامة السمجة تعلو وجهه، وينفث دخان سيجاره قائلًا:

- «كل زيادة وأنتم بخير يا أولاد.. آمل أن تكونوا جميعكم راضين عن تلك الزيادة»

ثم نظر إلي وأكمل:

- «دكتورة حنين.. هذه أول زيادة لكِ بيننا من المؤكد أنك تشعرين بشعور مختلف»

كان واضحًا تمامًا أنه يحاول أن يستفزني بكلامه؛ لأبدأ بالاعتراض والنواح والعويل على هذه الزيادة القليلة فَيَمُنُّ عليّ بورقة نقدية من فئة الخمسين جنيهًا ويظهر في آخر الأمر بمظهر البطل الراعي للأيادي المحتاجة..

ابتسمتُ وأنا أقول:

- «أشعر بالسعادة بالتأكيد فعندما كنتُ في أستراليا مع زوجي هاشم -رحمه الله- كنا نشتري لطفلينا بعض الحلوى بثمن مائتي جنيه، وأظن أن أنسب احتفال بهذه الزيادة هو أن أعيد لهم هذه الذكرى عند رجوعي لهم سيسعدهم هذا وسيسعدني بالضرورة»

تغير وجهه وقد فهم مغزى كلامي لكن سرعان ما ابتسم وقال بصوت يحمل قليلًا من التهكم:

- «أتمنى لكم الاستمتاع بها» وغادر المكتب بعدها.. أشارت إليّ رحاب بإبهامها إشارة منها أنني أحسنت، ابتسمت لها ثم نظرت إلى المائتي جنيه وأنا أواجه شعوري الحقيقي وإِنْ أظهرت له عدم اكتراثي للأمر ولكن بداخلي غير ذلك.. أنا أشعر بالحزن الشديد، كنتُ أعتمد على هذه الزيادة في كثير من الأمور، والآن لا أعرف ماذا سأفعل.. تنهدتُ وأنا أتعجب من تبدل الأحوال في وقت من الأوقات لم يكن المال يشغل بالي على الإطلاق والآن أشعر بالتيه لزيادتي مائتي جنيه فقط.. حمدتُ الله عليها، وسألته أن يطرح بها البركة فغيري راتبهم الشهري هو هذه الزيادة فقط، نعم هي ليست بالكثيرة ولكنها ستسد بابًا ما من مصاريف البيت..

فأنا مثل الضائع بفلاة ويشعر بالعطش الشديد، لن يضره إِنْ تناول القليل من قطرات المياه فإِنْ لم تروِ عطشه ستمنحه بعض القوة لمواصلة المسير..

***

أيقظت براء سريعًا، وقمت بتحضير فطوره وحقيبته المدرسية، ساعدته على ارتداء ملابسه، نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، وبدأتُ أشعر بالتوتر؛ فأم سعد لم تأتِ إلى الآن.. مَنْ سيجلس مع مارية؟! يجب أن أذهب للعمل وأمي تريد الذهاب إلى المشفى، وآسر يغط في النوم ولا أستطيع الاعتماد عليه في رعايتها، تناولتُ هاتفي الذي قارب شحنه على الانتهاء وأجريت اتصالًا:

- «صباح الخير.. هل أيقظتك من النوم؟»

أجابت رحاب:

- «لا لا يا حبيبتي أنا مستيقظة منذ نصف ساعة وسأتناول فطوري وأذهب إلى الشركة»

- «رحاب، لم تأتِ أم سعد إلى الآن، وأمي يجب أن تذهب إلى المشفى، ولا يوجد مَنْ يعتني بمارية.. استسمحكِ أن تأخذي عني أول ساعتين من العمل حتى تأتي أو أجد حلًّا لهذا الأمر»

- «حسنًا لا تشغلي بالك حبيبتي سأتولى أنا الأمر»

حمدتُ الله بداخلي على نعمة رحاب فمن الجيد جدًّا أن يكون بحياتك (رجل المهمات الصعبة) وإِنْ كنتُ لا أحب أن تغيب أم سعد اليوم حتى لا يفهم دكتور حاتم أن تأخري تعبيرٌ عن حنقي من مقدار زيادته.. قمتُ لأرتدي ملابسي، نظرتُ إلى المرآة وأنا ألف حجابي سريعًا.. انسدلت خصلة من شعري على جبهتي من تحت الحجاب، هممتُ بإدخالها ولكنني توقفتُ برهة أتأمل، أرجعتُ حجابي قليلًا للخلف فظهرتْ بعض الخصلات من شعري مما أعطاني شكلًا جماليًّا.. خطر ببالي كلام رحاب، ربما تكون محقة.. قد أكون بالغت في معاملتي المقتضبة لدكتور حاتم ولزملائي..مزاح رحاب وتباسطها في التعامل لا ينفي أنها فتاة محترمة، وأنا واثقة من ذلك، وكذلك أنا لن يقل احترامي عندهم، سيظلون يحترمونني فهم يعلمونني جيدًا.. هي مجرد ابتسامات ومجاملات لن يضر قولها في شيء، كما أنني وقتها سيزيد راتبي زيادة أستحقها..

انتبهتُ على يد براء الصغيرة وهو يجذبني قائلًا:

- «هيا يا أمي تأخرنا»

أدخلت خصلات شعري قليلًا حتى لا تلاحظها أمي، اتجهتُ ببراء صوب الباب، سمعتُ الجرس ونحن ننتعل أحذيتنا؛ استعدادًا للذهاب، حمدتُ الله عند رؤية أم سعد.. دلفتْ إلى داخل البيت وهي تلتقط أنفاسها قائلة:

- «أعتذر عن التأخير.. هل استيقظت مارية؟»

- «لا لم تستيقظ بعد»

وضعتْ يدها على صدرها، وقالت وهي تتنهد ارتياحًا:

- «الحمد لله خفت كثيرًا أن تستيقظ وتجلس لرعايتها السيدة مديحة وتتأخر عن الذهاب إلى المشفى»

ابتسمتُ وأنا أربت على كتفها قائلة:

- «باركِ الله فيكِ يا أم سعد فعلى الرغم من أننا طلبنا منك أن تبحثي عن عائلات أخرى لمساعدتهم بدلًا منا؛ لأننا لن نستطيع الدفع لكِ ولكنك لم تتخلَّ عنا»

- «كيف أترككم يا حنين!!.. أكون معكم في الرخاء وأتخلى عنكم في الشدة!!..ليست هذه طباع أم سعد»

ابتسمتُ لها قائلة:

- «وأنا أعلم ذلك جيدًا»

استأذنتها حتى لا نتأخر، وأمسكتُ بيد براء، جذبتُ الباب خلفي، وكدتُ أن أغلقه لولا نداء أمي الذي أوقفني..

- «نعم يا أمي؟»
- «هاتفك يا حبيبتي نسيتِه بالشحن»
- «يا إلهي كيف كنت سأنساه»

تحركتْ تجاهي لتناولني إياه ولكن أوقفها رنينه، ضيقتْ عينيها وهي تقربه من وجهها؛ لتستطيع رؤية جهة الاتصال، رفعت رأسها، وقالت مستنكرة:

- «اتصال من المشفى في هذا الوقت!!»

قامت بالرد سريعًا:

- «نعم»

صمتت برهة، ثم نظرت إلي بعيون تائهة وقد سقط الهاتف من يدها المرتعشة، وسقطتْ على الأرض، أسرعتُ إليها أسندها وأنظر إليها بخوف وترقب لما ستقوله.. بدأتْ دموعها تنهمر، وهي تردد:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون»

جلستُ على الأرض أمامها وأنا أحاول استيعاب الحقيقة التي فهمتُها من خلال كلماتها، وقد اغرورقت عيناي بالدموع.. أظن أنها تعني ما فهمته تمامًا..

لقد مات أبي...

●●●

(16)

- «أبي.. أشعر بالبرودة في يدي»
- «ضعي يدك اليسرى في جيب سترتك وسأحتضن يدك اليمنى بيدي وأضعهما بجيب سترتي»

شعرتُ بالدفء حينها وأنا ابنة الستة أعوام، دفء تسلل إلى أطرافي ليصل إلى أعماق قلبي.. لم يتركني من يومها لحظة، أكبر ويكبر معي..

تراءت أمامي جميع مشاهدي مع أبي منذ طفولتي حتى كبرتُ وتزوجتُ وصرتُ أمًّا.

مهما زادت السنوات في عداد عمري كنت أرى في عينيه تلك الطفلة التي لا تكبر أبدًا، وأنام مطمئنة القلب؛ لأن لي سندًا في هذه الدنيا يحميني من نوائبها بقوة حتى تلك اللحظة التي مات فيها أبي، شعرتُ أن ظهري بالحياة قد كُسر، تجمعت الغيوم بروحي دون أن تسقط قطرة ماء، هَبَّتْ الريح بداخلي وابتلعت عواصفها الدفء المتبقي في حنايا قلبي وانتشر صقيعها، لم أشعر بهذا الانكسار من قبل حتى عند وفاة هاشم، ذهب أبي وأخذ معه كل جميل ببيتنا وتركني حيرى تائهة..

شعرتُ بيد توضع فوق كتفي وأتاني صوت رحاب وهي تقول:

- «حبيبتي سأذهب الآن فلقد تأخر الوقت وسآتي غدًا صباحًا»

ربتُّ على يدها وقلتُ:

- «لا تأتي يا رحاب، لا داعي لذلك أنا بخير لا تقلقي، اذهبي إلى الشركة وتابعي العمل فأنتِ هنا منذ البارحة وبالتأكيد سيتضايق دكتور حاتم من هذا»

هزت رحاب رأسها نافية وقالت:

- «على العكس تمامًا يا حنين، هو مَنْ قال لي أن أبقى بجانبك ولا أتركك.. هو متفهم تمامًا لما تمرين به، كما إنه جاء اليوم هو ودكتور أسامة ودكتور سيد لآسر وخالك وأدوا واجب العزاء»

قلتُ:

- «أوصلي لهم شكري رجاءً، وأخبري دكتور حاتم أنني سأزاول العمل مرة أخرى بعد أن تنتهي مراسم العزاء ولن أطيل الأجازة»

اقتربت وقالت بحنو:

- «خذي وقتك حبيبتي ولا تشغلي بالك بأي شيء سأجلس ساعات إضافية وأتم عملك بها»

ابتسمت لها قائلة:

- «بارك الله فيكِ يا رحاب.. أنتِ تحملين عني الكثير ولا أعرف كيف أرد لكِ كل هذا»

ابتسمت لي وذهبت بعد أن قبلتني وودعتني.. أتت أم سعد وبدأت بنقل فناجين القهوة إلى المطبخ بعد أن ذهب الجميع..

قمت إليها سائلة:

- «لم تأكل شيئًا بعد؟»

هزت رأسها نافية والحزن يكسو ملامحها وقالت:

- «لم تأكل منذ البارحة»

- «حسنًا سأذهب إليها الآن»

تمشيت بالرواق حتى وصلت إلى غرفة أمي وأبي رحمه الله، طرقت الباب ببطء ثم فتحت..

وجدت أمي وقد تكوم جسدها بقرب الوسادة وتضع يدها على موضع رأس أبي حين كان ينام وتبكي بكاءً مكتومًا..

دلفت إلى الغرفة ومشيت إليها واحتضنتها من الخلف فأجهشت بالبكاء..

همست لها:

- «تماسكي يا أمي.. أنا أشعر بكِ تمامًا، أشعر بذلك الألم الذي يعتصر قلبك»

ظلت تبكي بقوة حتى هدأت قليلًا، فجلست بجانبها قائلة:

- «لكِ أن تأخذي وقتك في الحزن ولن أطلب منكِ غير ذلك، ولكن لن أسمح لكِ أن تتوقفي عن تناول الطعام»

صمتُّ برهة ثم قلتُ وقد جرت الدموع مسرعة على وجهي:

- «لن أتحمل حدوث أي شيء لكِ أنتِ أيضًا.. فأنا لن أقوى على ذلك.. لن أقوى على ذلك»

مسحت أمي دموعي واحتضنت خدي بكفها قائلة:

- «سامحيني يا حبيبتى سامحيني ولكن لا أستطيع تخيل أنني لن أراه ثانية، لن ينام بجانبي.. لن نتناول الفطور معًا.. لن يذكرني بموعد دوائي.. لن أشكو إليه همومي»

قلت وأنا أربت على كتفها:

- «أعلم يا أمي ما تتكلمين عنه تمامًا، هل نسيتِ أنني فقدتُ هاشم منذ عام ونصف؟ نعم هناك فارق كبير في سنين الزواج بيننا وبينكم ولكن صدقيني فقد الزوج له شعور قاسٍ جدًّا وإِنْ كان عمر الزواج شهرًا»

تنهدت قائلة:

- «نسأل الله أن يجعلنا من عباده الصابرين»

أمنتُ على دعائها، ثم سمعنا جرس الباب.. قالت أمي:

- «لا بد أنهما آسر وخالك، هيا نخرج لنجلس معهما»

خرجتُ أنا وأمي ووجدنا آسر وخالي يجلسان بغرفة المعيشة.. جلسنا معهما وبدأ خالي في الترحم على أبي، وذكر العدد الكبير للمصلين عليه بصلاة الجنازة والمعزين، ثم سرد مواقفه وحسن صنيعه معه منذ أن تقدم لخطبة أمي، وشاركته أمي في سرد المواقف التي تعرضا لها معًا هي وأبي، ومرورهما بالمشاعر المختلفة من حب وصبر وعطاء وبذل.. كانت أمي تتوجه بالحديث لي تارة ولآسر تارة أخرى، وتذكرني بأشياء حدثت في صغرنا.. ربما لا يمثل لنا هذا الكلام سوى ذكريات عابرة ولكنه يمثل لأمي تاريخَ عمرٍ بأكمله قضياه معًا هي وأبي، كانت تسرد المواقف وعيناها تلمع فخرًا واعتزازًا بحبيبها..

أنهت أمي كلامها وهي تتنهد قائلة:

- «رحمك الله يا طارق.. الجميع أحبك وحزنوا لفقدك؛ فَلَكَ مع كل شخص ذكرى طيبة، أما مَنْ فعل بك هذا فلن يهنأ في حياته أبدًا، ولن يتمتع بتلك الأموال ما حَيي»

صمتتْ برهة، ثم رفعتْ رأسها، وأردفتْ:

- «على ذكر سيرة المال.. أعلم أنه ربما يكون الكلام الآن مبكرًا في هذا الشأن ولكني أحب أن أتكلم فيه الآن ونضع النقاط على الحروف»

نظرتْ تجاهي أنا وآسر، وقالت:

- «كما تعلمان لم يترك أبوكما شيئًا لنا، كل ما نملكه الآن هذه الشقة

وبعض الأموال القليلة التي بقيت في البنك بعد بيع السيارة، وكل ما نعتمد عليه الآن في مصاريف هذا البيت هو راتب حنـ...»

قاطعها آسر:

- «لقد حصلتُ على فرصة عمل»

نظرتُ إليه باستغراب قائلة:

- «منذ متى؟»

رمقني غاضبًا، وقال:

- «منذ حديثك السابق.. ظللتُ أبحث حتى وجدتُ تلك الفرصة براتبٍ جيدٍ»

- «وما طبيعتها؟» سألته أمي..

تلجلج قليلًا وأكمل:

- «سأعمل عند والد أحد الأصدقاء في مطعمه بالغردقة»

قامت أمي وهي تسأله مستغربة:

- «غردقة!!»

- «نعم.. سيكون نظام العمل ثلاثة أشهر متصلة ثم أجازة لمدة ثلاثة أسابيع»

أشارت أمي بإصبعها نافية، وهي تقول:

- «لا لا لا.. لن أدعك تذهب.. أفقدُ أباك منذ يومين ثم تغيب أنت الآخر عنا كل هذه المدة!!»

- «هذه الوظيفة الوحيدة التي وجدتها بهذا الراتب يا أمي»

- «لا نريد زيادة بالراتب.. ابحث عن عمل براتب أقل هنا بالقاهرة، ونضم راتبك إلى راتب حنين، ونتكيف على العيش بهما»

هز رأسه بقوة نافيًا، وهو يقول:

- «لن أستطيع فأنا أحتاج إلى المال، لا أريد أن أشعر بالنقص عما كنت عليه سابقًا»

قالت أمي راجيةً:

- «ولكن يا بني لا أريدك أن تبتعد عنا»

- «لن أبتعد يا أمي ستمر الثلاثة أشهر سريعًا، وسآتي لقضاء الأجازة بينكم، كما أنني سأتصل بكِ كل يوم، وسأرسل لكم مبلغًا كل شهر يستطيع أن يسد الكثير من احتياجات البيت»

صمتت أمي عندما رأت إصرار آسر، وسألته وقد كسا صوتها الحزن أكثر:

- «ومتى ستسافر؟»

- «من بداية الأسبوع القادم»

قال خالي:

- «سأذهب معك أوصلك»

- «لا داعي لذلك يا خالي فأنا لم أعد صغيرًا»

أغلق آسر بعدها الحديث في هذا الموضوع، وتابعنا حديثنا بأمور أخرى.

كان آسر يتجنبني تمامًا منذ كلامي الحاد معه قبل وفاة أبي، استأذن خالي بعد أن انتهينا من حديثنا راحلًا إلى بيته، وذهبت أمي للنوم، وقد أكلتْ قليلًا بعد إلحاحي الشديد، هممتُ بالذهاب إلى غرفتي ولكني نظرتُ إلى باب غرفة آسر في أثناء ذهابي، اتجهتُ إليه وتملكني التردد في الدخول، طرقتُ الباب وفتحته؛ لعلمي أنه ربما لم يسمع صوت دقاتي، وجدته جالسًا على حاسوبه.. اقتضب قليلًا عند رؤيتي.. اقتربتُ منه وقلت له باسمةً:

- «أعتذر عن الكلام الذي قلته حينها، موقف أبي رحمه الله حينها أفزعني بشدة، ولم أستطع التحكم في غضبي»

رمقني بنظرة حانقة، ثم اتجه لحاسوبه مرة أخرى، قلتُ:

- «آسر بعد وفاة أبي، ليس لنا أحد في هذه الدنيا إلا بعضنا بعضًا، أرى أنه يجب أن ننسى ما مضى ونقترب من جديد»

ظلتْ عيناه مثبتتان على شاشة الحاسوب، أكملتُ:

- «أتمنى لك التوفيق في عملك الجديد، إِنْ احتجتَ إلى أية مساعدة فأنا....»

قاطعني:

- «شكرًا لا أحتاج إلى المساعدة»

شعرتُ أن الكلام توقف في حلقي بعد مقاطعته الحرجة لي، ابتلعتُ حروفي، وقلتُ وأنا أتجه خارجًا، وأغلق الباب:

- «تصبح على خير»..

كنتُ لا أريد أن يتركنا ويذهب وهو غاضب مني، أحببتُ أن أصلح الأمور قليلًا بيني وبينه لكنه أبى، ربما عندما يبتعد عنا قليلًا ويحتك في عمله بطبقات مختلفة من البشر وأشكال متنوعة فيعرف وقتها قيمة العائلة وأنها الملجأ الوحيد له بعد الله في هذه الدنيا ويعود إلينا من جديد كما كان، وعندها سيجد أن حبه مازال كما هو في قلبي لم يقل ولم يفتر، بل كان دومًا في انتظاره ...

***

شعرتُ بالتوتر قليلًا عندما رأيتُ دقائق الساعة قد قاربت الثامنة ليلًا.. زفرتُ بضيق وأنا أفكر بالطريقة المثلى لإنجاز عملي، لا أريد أن أترك أمي ساعات طويلة؛ حتى لا تشعر بالوحدة فلم يمر على وفاة أبي سوى شهر وعشرة أيام، كما أن سفر آسر إلى عمله الجديد يشعرها بالحزن؛ فهي لم تُشْفَ من رحيل أبي بعد حتى يتحمل قلبها ذهابه هو الآخر وهذه هي المرة الأولى التي يفارق فيها آسر أمي..

كنتُ أتعجب أحيانًا عندما تبكي على ذهابه وأقول لها إنه منذ فترة وهو بعيد عنا ولا نشعر بوجوده في البيت من الأساس، فتخبرني أنه كان يكفي وجوده بالبيت لتطمئن عليه أما الآن وهو بعيد فلا تدري عنه شيئًا هل يهتم لأكله أم لا؟ هل يستريح بعمله أم مجبر عليه؟ لم أستطع أن ألومها على شعورها هذا فهي أم، وشعورها تجاهه يختلف عنا جميعًا بالتأكيد..

أوصيتُ خالي بالذهاب إليها والجلوس معها البارحة واليوم حتى أرجع إلى البيت، فأنا لم أكن أستطع رفض عرض دكتور حاتم الذي أخبرنا فيه أن عددًا من شركات الأدوية الجديدة عرضتْ مبلغًا كبيرًا من المال مقابل الدعاية السريعة لها، وأنه إذا استطعنا تكثيف ساعات عملنا سيحصل كل منا على مكافأة مالية، لم يقبل بالعرض سوى أنا ورحاب وأسامة بينما سيد لم يهتم به كثيرًا، فمن مبادئ سيد التي كان يخبرنا بها أنه لا يهتم بزيادة أمواله بقدر ما يهتم بزيادة عدد الساعات التي يجلس فيها مع أسرته.. أعجبني مبدأه هذا؛ فالمال يزيد وينقص أما دقائق العمر الذاهبة فلن تعود ثانية ويجب أن نتمتع بها بقرب مَنْ نحب..

ربما أستطيع أن أطبق مبدأه عندما أحصل على وظيفة أخرى براتب أفضل مما أنا عليه الآن..

كان دكتور حاتم يمشي بين مكاتبنا وهو ينفث دخان سيجاره نشوةً، وتلمع عيناه فرحًا من إنجازنا بالعمل..

تنهدتُ وأنا أريح جسدي على المقعد وقد أنهيتُ مكالمات اليوم بحلول التاسعة، قمتُ وأنا أعيد ترتيب مكتبي وأحمد الله بداخلي أنني استطعتُ أن أتم عملي بهذين اليومين.. هكذا لم يتبقَّ أمامي غير ساعات عمل الغد وأحصل على المكافأة.. سأشتري منها لعبتين لبراء ومارية؛ فمنذ زمن لم يحصلا على ألعاب، وسأشتري كذلك ثوبًا جديدًا لأمي لعلها تفرح قليلًا به وتنسى حزنها ولو لدقائق. أنجز أسامة عمله وقام ليرتب مكتبه أيضًا وهو يبتسم لي بابتسامته الساخرة وينظر إلى رحاب ودكتور حاتم اللذين يقفان على باب الغرفة مندمجين في الحديث ولا ينتبهان لنا..

كان يعلم أنني أشعر بالغيرة والخوف على رحاب من دكتور حاتم ومن نظراته الجريئة لها، حذرتها منه مرارًا وتكرارًا، وأخبرتها أنني لا أشعر بالخير في نظراته إليها، ولكنها لم تلق بالًا لهذه النظرات، وتعلل ذلك أن هذه طبيعته وأنه ينظر للكل هكذا، من عيوب رحاب أنها عنيدة لا تقتنع بكلام غيرها وترى الدنيا من خلال مبادئها هي فقط، تذكرتُ يوم وفاة أبي صباحًا والخواطر التي جاءتني حينها، وكيف أنني تأثرت بمبادئ رحاب تلك، وكدتُ أن أتخفف من حجابي فجاء موت أبي ليذكرني بحقيقة هذه الدنيا ويردني عما كنت سأفعله..

انتهيتُ من ترتيب مكتبي، وتناولتُ حقيبتي وأنا أشعر بالإرهاق الشديد، رفعتُ يدي لأشير إليها حتى تنهي حوارها مع دكتور حاتم، وتأتي لأخذ حقيبتها ونذهب معًا، لكنني تسمرتُ في مكاني فجأة وهالني ما رأيت، لم أكن أصدق ما شاهدته عيناي..

رجعتُ خطوة للوراء وأنا أشعر أن الدماء تصعد إلى رأسي وتتسارع دقات قلبي..

لقد رأيته وهو يمد يده بخفة تجاهها ويلمس جسدها بكفوف وقحة كاللص يحاول سرقة شيء ثمين..

لم تستوعب رحاب ماذا فعل لدقيقة، ولكنها أفاقت صارخة:

- «ماذا تفعل أيها الوقح!!» وصفعته بعدها..

جذبها من شعرها من الخلف وقربها إلى وجهه، وسألها بجنون وقد تطاير من عينيه الشرر:

- «كيف تجرئين على فعل هذا أيتها النكرة؟ كيف تمدين يدك على أسيادك»

أزاحتْ يده بقوة قائلة غاضبةً:

- «أنا لا سيد لي، وسأريك ماذا ستفعل النكرة»

ضحك ساخرًا وقال مستنكرًا:

- «عجبًا كنت أظن أنك تنتظرين هذا اليوم.. إذًا لماذا كنتِ تثنين على ملابسي، وتهتمين بأدق تفاصيلي إلا إذا كنتِ معجبة بي؟!»

قالت بحدة:

- «كنتُ أحاول أن أرضي غرورك أيها المتعجرف؛ حتى أضمن بقائي في العمل، كنتُ أحسبك تستطيع التفريق جيدًا بيني وبين تلك اللواتي تحاول معهن حتى تسقطهن في شباكك»

نفث دخان سيجارته ببطء، ثم قال:

- «كلكن واحد»

لم ترد رحاب على كلامه؛ ربما خوفًا من أن تجادله فيبدأ بقص أفعالها التي كانت تراها دومًا ليس بها شيء، ويفهمها هو على محمل آخر..

مشيتْ من أمامه سريعًا إلى مكتبها، وأخذتْ حقيبتها ورحلتْ، وهي تحاول أن تكتم بكاءها، وتحافظ على قوتها..

نظر إلينا دكتور حاتم وكأنه تذكر وجودنا أخيرًا ومشاهدتنا لكل ما حدث.. ظهر الحنق على وجهه بعد أن نفث دخان سيجاره بغضبٍ، وأعطانا ظهره ورحل..

قال أسامة ببرود وهو يضع يده بجيوب بنطاله:

- «أنا الآخر لا أدري لماذا انفعلت هكذا!! أم أنها كانت تظن أن زيادتها في الراتب لن يكون أمامها مقابل»

رمقتُه بغضب وأنا أتحرك لخارج الشركة، اتصلتُ برحاب فور خروجي؛ لأطمئن عليها وأعرف أين ذهبت..

لم أستطع تمييز صوتها من كثرة البكاء، وأخبرتني أنها لن تقدر على التحدث الآن وستتصل بي عندما تهدأ..

شعرتُ بالهم الشديد وأصابتني الحيرة في أمري تمشيتُ بخطى متثاقلة وأنا أفكر.. ماذا سأفعل الآن؟ لن أستطيع الذهاب إلى هذه الشركة ثانية ورؤية ذلك الذئب المتمثل في شكل رجل، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أترك العمل الآن.. لن يقبل بي أي عمل براتب جيد وأنا لا أملك شهادة خبرة.. بقي خمسة أشهر فقط وأحصل عليها، كما أنني إن لم أذهب غدًا ستضيع المكافأة وأنا تعبتُ كثيرًا خلال هذين اليومين..

وصلتُ إلى البيت وعقلي يكاد أن ينفجر من كثرة التفكير فيما حدث وماذا سأفعل، وجدتُ خالي وأمي يجلسان بانتظار قدومي، ألقيتُ عليهما التحية، وقالت أمي:

- «هيا بدلي ملابسك سريعًا وانضمي إلينا، لم نتعشى أنا وخالك وانتظرنا حتى تأتي»

قلتُ وأنا أحاول إخفاء ما بي:

- «لا.. لن أستطيع أن آكل شيئًا.. تفضلا أنتما بالهناء والشفاء»

سألني خالي وهو ينظر إلي:

- «ما بكِ يا حنين.. أحدث شيء ما؟»

صمتُّ قليلًا.. فكرتُ أن أخبرهما حتى يقولا لي ماذا أفعل ولكني خفت أن أندم على هذا بعدها..

أجبت:

- «لا ليس بي شيء، مجرد إرهاق من ضغط العمل»

ثم اتجهتُ إلى أمي؛ كي أنهي هذا الحديث:

- «هل نام الأولاد؟»

- «نعم ناما بعد أن يئسا من رؤيتك اليوم.. انتظراكِ كثيرًا»

هززتُ رأسي وأنا أتصنع الابتسام، واستأذنتهما وذهبت إلى الغرفة، خلعتُ ملابسي، وارتديت ملابس النوم، نظرت إلى براء ومارية النائمين كالملائكة ومازال حديث نفسي مستمرًا..

لا لن أستطيع ترك العمل نحن بحاجة للمال وطفلاي يحتاجان للكثير، لن أستطيع أن أعيد الكرة ثانية بمكان آخر، وأجلس سنة أخرى جديدة.. هو رجل سيء بالتأكيد ولكن رحاب أيضًا أخطأت كثيرًا، ونصحتها مرات عدة ولم تستجب.. هي تتحمل الخطأ مثله تمامًا..

تمشيت بالغرفة ذهابًا وإيابًا، والصراع يشتد بداخلي ما بين مبادئي وترك العمل، وما بين مصلحتي..

سمعتُ صوت خالي وهو يودع أمي ويخبرها أنه سيأتي إليها غدًا..

فتحتُ باب غرفتي سريعًا قائلة:

- «خالي انتظر»

قال خالي مستغربًا:

- «ألم تنامي بعد يا حنين؟ ظننتك نائمة»

خرجتُ إليهما، وقلت وقد علا الاستغراب وجههما:

- «لا لم أنم.. اجلس عشر دقائق فأنا أريد استشارتكما في أمر ما»

جلس خالي وأمي، وبدأتُ بسرد كل شيء حدث اليوم بين دكتور حاتم ورحاب عليهما..

حتى انتهيت من حديثي، فقالت أمي بانفعال:

- «في ماذا تفكرين يا حنين؟!! هل حقًّا تفكرين بالرجوع إلى هذا الرجل والعمل عنده ثانية بعد اليوم وما حدث؟!»

- «يا أمي أنا لا أخاف منه، وأعلم أنه لن يستطيع الاقتراب مني فهو يعرفني جيدًا»

- «إِنْ ذهبتِ بعد ما حدث اليوم فهذا معناه أنكِ وافقتِ على ما حدث.. وهذا سيكون سببًا قويًّا لتجرُّئه عليكِ فيما بعد»

- «ولكن يا أمي، رحاب أيضًا مخطئة وأنا نصحتها كثيرًا منه ولم تقتنع.. وأنا لستُ مثلها»

- «أعلم ذلك -هداها الله- ولكن مَنْ مثل هذا الرجل لن تختلف عنده الأمور.. إِنْ لم يكن ينظر إليكِ اليوم فهذا لأنه كان مشغولًا بالنظر إلى رحاب وغدًا سيتحول نظره إليكِ»

علق خالي هادئًا:

- «أوافق أمك تمامًا في كل ما تقول»

قلتُ:

- «ولكن يا خالي لن أستطيع أن أحصل على عمل جيد الآن بسهولة، بقي لي خمسة أشهر فقط وأحصل على شهادة خبرة، كما أنني يجب أن أتم عملي غدًا حتى أحصل على المكافأة»

أكملتُ بانفعال هادئ:

- «نحن بحاجة إلى الأموال أم أنكما نسيتما ما نحن فيه؟»

قالت أمي:

- «لقد أكرم الله أخاكِ بعمل، وأخبرني اليوم أنه أرسل لنا المال، وسيستلمه خالك غدًا صباحًا من مكتب البريد، وسنحاول أن نتكيف بهذا الراتب حتى تحصلين على فرصة عمل أخرى»

شعرتُ بالتردد من كلامهما، وقلتُ راجيةً:

- «غدًا فقط»

هزت أمي رأسها نافيةً، وقالت:

- «ولا ساعة واحدة أخرى مع هذا الرجل يا حنين، كيف تقبلين المال من رجل بهذه الأخلاق حتى إِنْ كان مقابل جهدك، ثم إنني لن أشعر بالأمان عليكِ وأنتِ تذهبين إلى هذا العمل»

قطع حديث أمي رنين هاتفها، ذهبتْ تجاهه والتقطته وأجابت، أكمل خالي كلامه بكلام أمي نفسه وهو يحاول أن يقنعني، جلستُ وأنا أحك رأسي وأفكر، كلامهما صحيح مئة بالمئة ولكن أشعر بالحنق أن يضيع مجهودي كل الأشهر السابقة في الهواء هكذا بمنتهى البساطة.. هداكِ الله يا رحاب لو أنكِ استمعتِ إلى كلامي لم يحدث كل هذا من البداية، ولكن ما أدراني ربما أمي محقة، وأنه كان سيتجه إلينا يومًا ما حتى إن تجنبناه..

انتبهتُ على صوت أمي وهي تقول بصوت عالٍ:

- «هل أنتِ متأكدة مما تقولين يا سعاد؟!!»

صمتتْ برهة، وأكملتْ بصوت حزين:

- «حسنًا سأنهي معكِ المكالمة الآن وأتصل بكِ في وقت لاحق»

توقفنا عن الحديث أنا وخالي ونظرنا إليها بترقب في انتظار لما ستقوله وقد تملكنا القلق، نظرت إلينا بعينين حزينتين وانخرطت في البكاء.

●●●

(17)

أتاني صوتها الباكي الممزوج بالقهر قائلة:

- «لا أدري كيف تجرأ على فعل هذا!!»

صمتتْ لحظة وزادتْ:

- «وغد.. حقير.. ولكنني سأعرفه مَنْ أنا وسأجعله يدفع ثمن تجرُّئه غاليًا»

- «هوني عليكِ يا رحاب.. أعلم أن الأمر شديد عليكِ ولكن لا أتعجب أن يصدر موقف كهذا من دكتور حاتم؛ فكلنا نعلم شخصيته وأنتِ أولنا»

صمتت رحاب تمامًا، ربما شعرت بالخجل وتذكرت كلامي، وكيف أنني حذرتها مما آلت إليه الأمور الآن، ولكن عنادها منعها من الاستماع إليّ..

حاولت ألا أثقل عليها بعتابي، أو أن أظل أذكرها بنصحي الدائم لها، فأنا أعلم أنها تجلد ذاتها الآن كثيرًا على عدم إنصاتها، فلا داعي أن أزيد عليها ما تمر به..

خففت من حدة الموقف قائلة:

- «أتعلمين أكثر ما يحزنني أنني سأفتقد الشاي باللبن الذي يعده عم عبده»

ضحكت ضحكة مكتومة وقالت:

- «أنا أسفة جدًّا يا حنين، إنني السبب في تركك للعمل وأنا أعلم حاجتك إليه»

قلتُ:

- «أنتِ لستِ السبب يا رحاب، أخطأتُ منذ البداية في الاستمرار بالعمل رغم اكتشافي لشخصيته، وأظن أنه جاء الوقت المناسب الآن»

قالت تطمئنني:

- «سأبحث عن عمل لي ولكِ، ولن أذهب إلى أية وظيفة إلا وأنتِ معي»

قلتُ ضاحكة:

- «إذًا ستنتظرين طويلًا»

صمتت برهة ثم تابعت:

- «هل ستذهبين للشركة ثانية؟»

- «نعم سأذهب غدًا؛ حتى أجمع متعلقاتي من المكتب»

- «أرجوكِ يا حنين أن تحضري لي متعلقاتي أنا أيضًا.. فلن أستطيع الذهاب إلى هذا المكان ثانية»

- «حسنًا.. سأحضرها لكِ معي»

سألت متعجبة:

- «ولماذا لم تذهبي اليوم؟»

- «اليوم الجمعة وهو عطلة، هل نسيتِ؟»

- «ياإلهي نسيت تمامًا»

أكملت:

- «كما أنه لدي أمر ما بالبيت ولن أستطيع النزول»

قالت والقلق يشوب صوتها:

- «هل حدث شيء عندكم بالبيت؟»

- «لا لا.. أمي تحتاجني فقط معها اليوم»

- «حسنًا لن أطيل عليكِ، وأوصلي سلامي كثيرًا للخالة»

- «حسنًا..اعتني بنفسك جيدًا»

- «سلام»

- «سلام»

أغلقتُ الخط وخرجتُ إلى غرفة المعيشة، كانت أمي تجلس على الأريكة بانتظاره.. نظرتُ إليها سائلة:

- «هل وصل؟»

قالت باقتضاب:

- «نعم قال لي إن أمامه نصف ساعة ويأتي إلى هنا»

- «لم يسألك عن شيء؟ ولماذا طلبتِ حضوره إلى هنا فجأة؟»

- «بالتأكيد سأل، ولكنني أخبرته أنني لن أستطيع مناقشة الأمر معه بالهاتف»

أطلقت زفرة قلق وأنا أقول:

- «آمل أن تخيب ظنوننا»

وقع بصري على المظروف الموجود على الطاولة بوسط الغرفة..

سألتها:

- «هل استلم خالي النقود من مكتب البريد؟»

- «نعم»

قلت بتردد:

- «وكم أرسل؟»

- «ثلاثة آلاف جنيهًا»

شعرتُ بالحزن عند سماع الرقم؛ فهذا يؤكد قليلًا ما أخبرتنا به الخالة سعاد صديقة أمي، جلستُ بجانبها، وربتُّ على ساقها اليمنى:

- «أمي لا نريد أن ننفعل.. نريد أن نفهم الأمر منه، ونناقشه بهدوء فلربما اختلط الأمر على الخالة سعاد»

أومأت لي برأسها ببطء موافقة، والحزن يكسو ملامحها.

دق جرس الباب، قمتُ وأسرعتُ بفتحه، دلف آسر مسرعًا ثم نظر

إليّ، واتجه بالسؤال إلى أمي مستغربًا:

- «ماذا هناك يا أمي؟ أحدث لكم شيء؟ لماذا طلبتِ حضوري إلى هنا من الغردقة بهذه السرعة؟ وما هذا الأمر الذي لن نستطيع مناقشته بالهاتف؟»

قامت أمي من مكانها حتى استقرت أمامه تمامًا، وسألته سؤالًا مباشرًا:

- «آسر.. ما طبيعة عملك في الغردقة؟»

نظر إليّ ثم نظر إليها، وقد ظهر على ملامحه التوتر، قائلًا:

- «كما أخبرتك من قبل.. أساعد والد صديقي في مطعمه»

احتد صوت أمي وهي تقول:

- «مطعمه أم ملهاه الليلي؟!»

جحظت عينا آسر من المفاجأة، وهز رأسه نافيًا بقوة، وهو يقول:

- «ملهى ليلي!! مَنْ أخبرك بهذا الكلام!! مَنْ قال لك هذا الكلام يحاول أن يوقع بيني وبينكم»

قالت أمي بصوت منخفض:

- «اتصلت بي صديقتي سعاد زوجة الدكتور مرتجى بالأمس.. كانت تطمئن على صحتي بعد وفاة أبيك، وسألتني عنك، وعن وظيفتك، ولما تأكدت أنني لا أعلم شيئًا عن وظيفتك الحقيقة ترددتْ قليلًا، ولكنها أخبرتني في نهاية الأمر أمام إلحاحي»

صمت آسر ونظر إلى الأرض، فأكملت أمي:

- «انتقلت سعاد إلى الغردقة منذ عامين؛ لانتقال عمل دكتور مرتجى بإحدى المستشفيات هناك، والأسبوع الماضي استقبل دكتور مرتجى بعض أصدقائه من الدول الأجنبية، وأخبروه أنهم سيتناولون العشاء في مكان يعرفونه من خلال زياراتهم في الأعوام السابقة لمدينة الغردقة، وعندما ذهب وجلس معهم اكتشف حقيقة المكان وانسحب بعد خمس دقائق مخبرًا إياهم أن مثل هذه الأماكن ينهانا ديننا عن الجلوس فيها.. وهَمَّ بالخروج لكن ظهرتْ أمامه المفاجأة»

ثم قالت بانفعال:

- «آسر الخلوق المحترم ابن الأستاذ طارق -رحمه الله- الذي يشهد الجميع بحسن سمعته يتجول بين الطاولات هناك، ويلبي احتياجات الزبائن!!»

صاحتْ وهي تسأله:

- «أليس كذلك؟»

صمت آسر وهو مطأطئ رأسه، فصاحت أمي ثانية وقالت:

- «أجبني»

عقد آسر حاجبيه، وقال بعد أن أطلق زفرة تدل على الاستسلام:

- «نعم أنا أعمل نادلًا بملهى ليلي.. لم أجد وظيفة بمثل هذا الراتب

الذي من خلاله أستطيع أن أحصل على ما أريد وألبي احتياجاتكم»

صاحتْ أمي والذهول في عينيها:

- «لا تتحجج بنا.. أنت لم يشغل بالك أمورنا قط.. أنت تقبل المال الحرام من أجل نفسك فقط»

قال آسر بغضب:

- «وماذا كنتِ تنتظرين أن أفعل يا أمي؟!.. تعرضتُ لصدمة قوية بين ليلة وضحاها اختفى كل شيء.. كل شيء.. وإِنْ ذهبت لأي عمل الآن سأتعب كثيرًا مقابل الحصول على وريقات زهيدة لن تفيد»

قالت أمي متعجبة:

- «تتكلم وكأنك تعرضت وحدك لهذه الصدمة.. جميعنا في مثل موقفك، ولكننا استطعنا أن نتكيف مع حياتنا الجديدة، وأن نستغني عن الكثير من الأشياء»

قال وهو يشيح بوجهه بعيدًا:

- «هذه قدرات يا أمي.. هناك مَنْ يستطيع التكيف وهناك مَنْ لا يستطيع»

قالت بقوة:

- «نعم أنت ضعيف ولذلك أطعمت جسدك حرامًا بعد أن تعب أبوكَ

وشقي من أجل ألا تنبت أجسادكم من الحرام، ثم أمام رغباتك هددت كل ما فعله لأعوام من أجلك»

اقتربت أمي منه ونظرت في عينيه، وقالت بهدوء وهي تغالب بكاءها:

- «مَنْ أنت؟! أنت لست ابني.. أنت لست آسر الذي ربيته أنا وأبوه وحنين.. أنت شخص آخر ملأ الجشع قلبه، وتكالبت عليه الدنيا حتى أسقطته في آبارها المظلمة»

وضعت أمي يدها على كتفه، وقالت بحنو:

- «ارجع يا آسر إلينا، واترك هذا الطريق يا بني.. فطريق الحرام آخره ندم وحسرة..ارجع وسيفرجها الله وسيوسعها علينا من حيث لا نحتسب، صدقني»

تنهد آسر وهو ينظر بعيدًا، وقال:

- «لن أستطيع»

رجعت أمي للخلف وهي تحاول أن تمنع دموعها من السقوط وقد بدا عليها الحزم، وقالت:

- «إذًا لك ما اخترت، ولكن في مقابل اختيارك هذا.. انس أن لك أمًّا على وجه هذه الدنيا، أو أن لك عائلة، ولا تطأ قدمك هذا البيت يومًا حتى تترك ذلك العمل»

ثم التقطت أمي المظروف من على الطاولة، وألقته بوجهه، وقالت:

- «وخذ هذه النقود معك.. حافظ أبوك عمره كله على هذا البيت أن لا يدخله حرام، ولن أدنسه بعد موته»

ثم تابعت وقد سقطت دموعها رغمًا عنها:

- «الحمد لله الذي أمات أباك قبل أن يرى هذا اليوم وإلا كان سينفطر قلبه حزنًا كما هو مفطور قلبي الآن.. اذهب من هنا لا أريد أن أرى وجهك ثانية.. اذهب»

حاول آسر أن يقترب منها ولكنه تراجع، نظر إلي وقد ظهر في عينيه الضيق الشديد، نظرت إليه نظرة رجاء ترجوه بشدة أن يبقى لكنه فتح الباب وأغلقه خلفه بقوة..

ذهبتُ إلى أمي أحتضنها، وقد أجهشت بالبكاء، تعجبت من إصرار آسر على الذهاب فهو لا يستطيع التخلي عن رغباته وإِنْ كان سيلبيها بالحرام.. تبًّا لتلك الأموال التي أفسدت علينا حياتنا، ذهبت بأبي، وأوجعت قلب أمي، وأفسدت آسر، وكادت أن تفسدني.. تبًّا لتلك الأموال التي أفقدت ذلك البيت فرحته، وأبدلته مكانها حزنًا وهمًّا لا ينتهيان.. تبًّا لها ثم تبًّا»...

***

استيقظت باكرًا، وتحركت بخفة داخل الغرفة حتى لا يستيقظ براء ومارية؛ لأرتدي ملابسي فاليوم هو السبت وهو أنسب يوم للذهاب إلى الشركة؛ لأحضر متعلقاتي أنا ورحاب..

يوم السبت هو ليس يوم عطلة ولا يوم عمل ولكن دكتور حاتم كان يعطينا فيه حرية الاختيار ما بين الذهاب فيه إلى الشركة؛ لمضاعفة عملنا أو الراحة في البيت، ويقوم عم عبده بفتح الشركة في موعدها الرسمي، والأهم من ذلك كله أن دكتور حاتم لا يأتي في هذا اليوم مطلقًا مما يعني أنني لن أرى وجهه ولن أضطر للحديث معه..

انتهيت من ارتداء ملابسي، والتقطت حقيبتي، شددت اللحاف على جسدي براء ومارية النحيلين حتى يدفئا جيدًا، ابتسمت وأنا أتأمل ملامح براء التي قد بدأت تتحول تدريجيًّا إلى ملامح هاشم..

تمنيت أن لو يكون هاشم معي ويحمل عني قليلًا مما ألاقي.. تنهدت وأنا أتوجه خارجًا وأترحم عليه وعلى أبي داعيةً لهما بأن يكون مثواهما الفردوس..

اتجهت إلى المطبخ؛ لأتناول أي شيء قبل ذهابي فوجدت أمي تجلس على الأريكة بغرفة المعيشة وتضع يدها على خدها وقد خَيَّمَ عليها الحزن..

اقتربت منها قائلة:

- «صباح الخير يا أمي»

أجابت بصوت مرهق:

- «صباح الخير يا حنين.. هل ستذهبين؟»

جلست بجانبها ووضعت يدي على يدها:

- «والله يا أمي لا أريد أن أتركك، ولكنه أنسب يوم لجمع متعلقاتي؛ فدكتور حاتم لا يذهب إلى الشركة كما أنني لن أتأخر.. ساعة وسأعود فورًا»

ربتت أمي على يدي:

- «لا تشغلي بالك حبيبتي أنا بخير لا تقلقي.. اذهبي أنتِ واقضي حاجتك»

توجهت إلى باب الشقة بعد أن ودعتها، وانتعلت حذائي ونزلت، استقليت الحافلة، وجلست بإحدى المقاعد المجاورة للنافذة.. نظرت إلى هاتفي على أمل أن أجد اتصالًا من آسر، ولكن سرعان ما خاب أملي.. اتصلت به كثيرًا بالأمس لكنه لم يرد على أي من اتصالاتي، كنت سأخبره ألا ينزعج من كلام أمي، وأنني سأقوم بتهدئة الأمور بينهما، وأحاول أن أقنعه بترك ذلك العمل.. ربما شعر بالكلام الذي سأخبره به فآثر عدم الرد..

نظرتُ من خلال النافذة إلى تلك المباني التي حفظتُ معالمها جيدًا فهي رفيقة الطريق على مدار سبعة أشهر، هذا هو ما سأفتقده حقًّا.. فالطريق هو الوقت المستقطع الوحيد في حياتي.. أنعزل فيه عن جميع البشر وإِنْ كنت بينهم جسدًا.. لا أتكلم مع أحد، ولا يشغل بالي شيء.. أغرق في تأملاتي وأنا أتطلع إلى السحب والطريق والمباني والأزقة والحافلات، أدقق النظر في التفاصيل الصغيرة التي ربما لا يلاحظها أحد بالمرة وإِنْ كان يمر عليها يوميًّا فتترك في قلبي أثرًا لا يزول..

أخذني من تأملاتي صوت رنين هاتفي، هممت بفتح حقيبتي سريعًا؛ لعل يكون المتصل آسر، ولكنني وجدتُ جهة الاتصال رحاب، كانت تتأكد أنني في طريقي إلى الشركة وتذكرني بمتعلقاتها الموجودة بالأدراج؛ كي لا أنسى شيئًا..

أغلقت معها وأنا أتذكر مكالمتها في آخر الليل بالأمس، وهي تخبرني أنها قررت أن تقوم بتحرير محضر ضد دكتور حاتم تثبت فيه واقعة تحرشه بها، وأنها لن تهتم بكلام الناس، ولا بردود أفعالهم، وكل ما يشغل بالها أن تنقذ أية فتاة من الممكن أن تقع بشباكه في المستقبل..

ولكنها ستنتظر ابن عمتها المحامي حتى يرجع من سفره بعد عشرة أيام؛ ليتابع معها إجراءات هذا الأمر..

احترمت شجاعتها وقرارها، ولكنني شعرت بالخوف أيضًا عندما قالت إنها ستأخذني أنا وأسامة شاهدان على هذه الواقعة، فنحن الوحيدان اللذان كانا بالشركة وقتها وشهدنا جميع ما حدث..

لم أدخل إلى أي قسم شرطة في حياتي إلا مرة واحدة وقت استخراج بطاقتي، ولم أوضع في مثل هذا الموقف من قبل وأكون شاهدًا وليست في قضية عادية بل قضية شائكة تتعلق بسمعة دكتور كبير في مجال دعاية الأدوية مثل دكتور حاتم، ولكنني لن أكتم شهادتي أبدًا إذا طُلب مني ذلك.. أريد أن أساند رحاب في موقفها لكي نكف أذى هذا الشخص عن جميع الفتيات، كما أنه جاء الوقت المناسب الذي أرد به لرحاب ما تفعله معي دومًا..

ظهرت تلك اليافطة الحمراء، فنزلت من الحافلة، وعبرت الطريق للجهة الأخرى متجهة إلى الشركة، استقبلني عم عبده بسؤاله:

– «صباح الخير دكتورة حنين.. هل أعد لكِ الشاي باللبن؟»

– «شكرًا لك ياعم عبده لا أريد؛ فأنا في عجلة من أمري.. هل هناك أحد بالداخل؟»

– «نعم دكتور سيد فقط، أتى منذ عشر دقائق»

أومأت له برأسي واتجهت إلى غرفة المكاتب، ألقيت تحية الصباح على دكتور سيد، واتجهت إلى مكتبي، وبدأت بجمع متعلقاتي..

جاء دكتور سيد عند المكتب وقال بصوت خيم عليه الحزن:

– «ستتركين الشركة؟»

قلت وأنا أضع بعض الأشياء بصندوق صغير:

– «نعم.. لم يعد لي مكان هنا»

قال:

– «علمت ما حدث للأسف»

سألته وأنا أستفسر:

– «ومَنْ أخبرك؟»

– «أسامة»

سكت قليلًا ثم أكمل:

– «كنت أعلم عاجلًا أم آجلًا أنك ستتركين هذا المكان.. فالطيبون لا مكان لهم هنا»

ثم نظر إلي، وقال:

- «إذا احتجتِ إلى أي شيء دكتورة حنين لا ترددي في طلب المساعدة.. معكِ هاتفي وسأكون في خدمتك بأي وقت»

قلت:

- «شكرًا لك يا دكتور سيد.. أتمنى لك التوفيق في حياتك.. أوصل سلامي لأسرتك الكريمة»

سمعنا صوت سيارة قد توقف محركها للتو، نظرت إلى دكتور سيد باستغراب شديد، وقلت:

- «هل يأتي اليوم؟!»

أجاب وهو يهز رأسه نافيًا:

- «في العادة لا.. من الممكن أن يكون شخص آخر وليس هو»

- «أتمنى ذلك فأنا لا أريد رؤية وجهه ثانية»

وما إن مرت خمس دقائق حتى سمعنا وقع خطواته في الممر، تضايقتُ كثيرًا من مجيئه، لا بد أنه أوصى عم عبده بإبلاغه عند حضوري إلى هنا..

أطل برأسه وعلى وجهه ابتسامته المعتادة التي تثير استفزازي.. أظهرتُ عدم الاهتمام بحضوره، وأكملتُ جمع متعلقات رحاب، مشى ببطء حتى أتى قرب المكتب، وقال:

- «إذًا اتخذتِ قرارك بترك العمل من أجلها؟»

رفعت رأسي إليه، وقلت:

- «لا من أجلها بل من أجلك»

ابتسم عند سماع إجابتي، وقال:

- «دكتورة حنين أريد مناقشة أمر مهم معك بمكتبي بعد أن تنتهي»

قلت بحزم:

- «لم يعد يعنني أهمية أي أمر بهذه الشركة»

أمال رأسه ناحيتي وأخفض صوته، وهو يقول:

- «ولكن أظن أن الأمر سيهمك حقًّا» لمعت عيناه وهو يقول جملته الأخيرة مما أوقع الخوف في قلبي..

انتهيت من جمع متعلقاتي أنا ورحاب ووضعتها جانبًا، هممت بالخروج من الغرفة فناداني دكتور سيد، وقال:

- «إذا حدث أي شيء نادي باسمي فقط، وستجدينني أمامك»

أومأت له برأسي موافقة، واتجهت لمكتب دكتور حاتم..

رحب بي وكأنه يراني لأول مرة، طلب من عم عبده إحضار مشروب لنا، وهَمَّ بغلق الباب لولا أنني منعته من ذلك..

بدأ حديثه بابتسامة ماكرة قائلًا:

- «هل تعلمين أن دكتور أسامة سيشتري السيارة التي حلم بها دومًا نهاية هذا الأسبوع»

نظرت إليه بضيق، وقلت:

- «وهل هذا هو الأمر المهم الذي تود مناقشته معي؟!»
علا صوته بالضحك، وقال:
- «بالتأكيد لا»
عقد ذراعيه على المكتب، وقال بصوت منخفض:
- «أنا أعلم أن لديك أحلامًا أنتِ الأخرى وتودين تحقيقها»
صمت برهة، وزاد، وعيناه ممتلئة بالخبث:
- «سأعطيكِ مكانها بالشركة وبأكثر من راتبها وسأمنحك مكافأة كبيرة، أو من الممكن أن نطلق عليها قرضًا طويل الأمد حتى لا تعتبرينها رشوة فأنا أعلم بمبادئك»
رجع بجسده في المقعد وأكمل:
- «كل هذا مقابل أن تنفي ما حدث عندما تطلب شهادتك في المحضر الذي ستقوم بتحريره»
اتسعت حدقتا عيني من المفاجأة من عرضه، وتعجبتُ أنه علم بأمر المحضر؛ فرحاب لم تخبرني إلا بالأمس ليلًا!! تذكرت صوتها وهي تخبرني أنها ستطلبني للشهادة أنا وأسامة، لا بد أنها أخبرت أسامة وبالتأكيد أخبره..
ابتسمت بسخرية، ونظرت إليه قائلة:
- «من الواضح أن كثرة تعاملك مع الكثير من عديمي المبادئ يا دكتور حاتم جعلك تتوهم أن جميع الناس هكذا»

ضيق عينيه، وقال وقد بدأ الغضب يظهر على ملامحه:

- «دعكِ من هذه الخرافات، ولا تدعي المثالية فنحن لسنا بالمدينة الفاضلة.. لا تكوني حمقاء واقبلي عرضي فأنا أعلم حاجتك جيدًا لهذا المال»

قلت وأنا أقوم من المقعد:

- «من الممكن أن تضيفها لرصيد دكتور أسامة؛ فأنا أظن أنه لن يمانع أن تقوم بزيادة رشوته.. أقصد مكافأته»

قام وهو يضرب المكتب بقبضته، وقد تحولت لهجته إلى الوعيد:

- «حسنًا.. إذا رفضتِ هذا العرض فأنت ستجعليني ألجأ إلى أساليب أخرى قد لا تحبينها»

قلت باستنكار:

- «هل تقوم بتهديدي؟!»

- «نعم.. أهددك وأحذرك في الوقت نفسه؛ فأنا لا أسامح أبدًا مَنْ حاول أذيتي.. أنا أعلم الكثير عنك وعن عائلتك وإصرارك على موقفك قد يعرض أحدهم لخطر تندمين عليه طوال حياتك»

ارتجف قلبي عندما قال كلامه الأخير، وأصبت بالذعر الذي بدا على ملامحي بالرغم من محاولتي إخفاء هذا..

زاد بعد أن جلس:

- «فكري في الأمر جيدًا ولا تتسرعي فأنا أعلم عنك الحكمة ومازال عرضي الأول قائمًا كما هو»

استدرتُ بظهري بعد أن ابتلعت ريقي ولم أنطق ببنت شفة؛ فتهديده جعل رأسي يدور.. اتجهتُ خارج مكتبه بخطى متعثرة حتى أوقفني صوته منبهًا إياي:

- «دكتورة حنين.. لا يخطر ببالك لحظة أن تقومي بإبلاغ الشرطة عما قلته لكِ.. فأنا علاقاتي متعددة وسأعرف إنْ فعلتِ هذا ولن يفيدك بشيء فلا تزيدي غضبي بفعل مثل هذا»

نظرتُ إليه بغضب، وتحركتُ متجهة للخارج، خرجتُ من الشركة هائمة على وجهي، يحاول عقلي استيعاب كل هذه المصائب المتلاحقة.. أشعر أنني لا أقوى على تحمل كل هذا جملة واحدة، كما أن كل ما حدث في السابق شيء وما أنا مقبلة عليه شيء آخر.. تذكرتُ نبرة صوته المليئة بالوعيد، وعينيه المتلونة بالشر، لا أظن أنه يهددني من باب تخويفي أو الضغط على موقفي، بل هو قادر على فعل ما يقوله؛ فأمواله وعلاقاته تساعده في ذلك..

هو لا يستطيع الاقتراب من رحاب ومنعها؛ لعلمه برتبة عمها بالشرطة التي تجعله يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على تهديدها..

لذلك يقوم بالضغط عليَّ؛ لعلمه بظروفي وأنه لا يوجد من يستطيع حمايتي، وأسامة كالخاتم في إصبعه فلم يبذل جهدًا في إقناعه بالأمر، فهو رجله المخلص له منذ زمن بالشركة..

شعرتُ بانقباض في قلبي عندما تذكرتُ براء ومارية، لا بد أنه يقصدهما بتهديده، تراءت بعض التخيلات أمامي، وضعتُ يدي على وجهي وأنا أهز رأسي بقوة لأنفض هذه التخيلات عن ذهني.. لا.. لن أستطيع.. لن أتحمل حدوث أي شيء لهما..لن أجعلهما يدفعان ثمن أخطاء رحاب، لن ألقي بهما في مثل هذه الصراعات، ولن أخبر أمي بكل هذا، فبالتأكيد ستحثني على التمسك بموقفي وقول الحق كما كان موقفها عندما أخبرتها بتحرش دكتور حاتم برحاب، ولكن الموقف الآن اختلف، هي لن تشعر بالخوف الذي أشعر به الآن، لم يقم أحد من قبل بتهديدها بإيذاء أطفالها، لم تتعرض لما أتعرض له.. بقيت أمي طول عمرها بالبيت خلف أسوار المدينة الفاضلة، وبقينا معها بداخلها، حتى خرجنا إلى الدنيا مبتعدين عن تلك الأسوار لنرى الدنيا التي لم تخبرني أمي عنها يومًا قط.. الدنيا التي تفترسك بأنيابها لمجرد أنك شخص ضعيف لا تملك إلا مبادئك، فتارة تستطيع أن تواجهها بقوة وتنتصر، وتارات تدميك أنيابها الحادة حتى تستسلم لها وتنصاع لأوامرها.. كما انصاع آسر لها في النهاية..

وأظن هذه المرة أنني لن أقوى على المواجهة.. كنت سأقاوم إِنْ كان الأمر سيمسني أنا فقط.. أما أن يتجه لأولادي فلا.. سأستسلم هذه المرة.. فلا خيار أمامي إلا الاستسلام.

•••

(18)

مضت نصف ساعة وأنا أجوب رصيف المحطة جيئة وذهابًا في انتظار القطار الذي تأخر عن موعده ربع ساعة حتى الآن..

كان بعض المسافرين يقفون عن يميني وعن يساري بانتظاره أيضًا وهم يحملون حقائبهم المتنوعة بين حقائب متوسطة الحجم وأخرى يحملونها على ظهورهم، وعدد منهم مثلي لا يحمل شيئًا سوى حقيبة على كتفه، أو خالي اليدين.

انتبه الجميع فجأة إلى صوت صفارة القطار المتصاعد في الأرجاء معلنًا عن وصوله، ظهر ذلك الهيكل المعدني الضخم فضي اللون، وبدأ بالاقتراب منا بشكل سريع حتى وقف أمامنا ببطء مع صوت فرملة محركه المتقطعة، فصدر صوت صليل نتج عن احتكاك عجلاته المعدنية بالقضبان المثبتة على الأرض اقشعر له بدني حتى استقر تمامًا، تجمع الناس أمام الأبواب، فُتحت وبدأ الناس بالصعود..

صعدتُ وأنا أنظر إلى الرقم الموجود على تذكرتي والأرقام المدونة على ذلك اللوح المعدني الرفيع أعلى المقاعد..

بدأتُ أتنقل بين المقطورات حتى وجدت الرقم المدون على التذكرة، فجلستُ وأنا أتنهد؛ ارتياحًا أنني استطعتُ أخيرًا أن أصل إلى مقعدي..

عقدتُ كلتا ذراعي أمام صدري وأنا أنظر إلى النافذة الزجاجية بجواري إلى رصيف المحطة، التفتُّ حولي ببطء، فلم أر في وجه أحد قريبٍ مني الاهتمام بالنظر إليّ.. أظن أنه لم يرسل أحدًا لمراقبتي ومعرفة إلى أين سأذهب..

تناهى إلى مسامعي رنين هاتفي ووجدت جهة الاتصال رحاب، أجبت فبادرتني بسؤالها:

- «هل جاء القطار؟»
- «نعم»
- «حسنًا.. اعتني بنفسك وعندما تصلين أخبريني»
- «بالتأكيد إن شاء الله»

بدأ القطار بالتحرك مع صوت صفارته، اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أنظر إلى سماء القاهرة فربما تكون تلك المرة الأخيرة التي أنظر إليها.. بالرغم من الحياة المادية التي تطغى على هذه المدينة، وتسلب روحها شيئًا فشيئًا على مدار الوقت فإنها مكان نشأتي وقضيت بها طفولتي وكل ذكرياتي وذكريات عائلتي بها ومهما ذهبنا يظل الحنين في قلوبنا ينبض لمكان طفولتنا وذكرياتنا الأولى، لا أعرف طبيعة مدينة الإسكندرية ولا أعرف هل سنرتاح بها أم لا، ولكن ما من خيار أمامي، رضيت أم أبيت

تمشي حياتي باتجاه واحد الآن، ويجب أن أسير به، فأنا لا أملك رفاهية الاختيار هذه الفترة، رجعت بجسدي في المقعد القماشي، وأنا أحاول الاسترخاء وأتذكر منذ ثمانية أيام.. منذ ثمانية أيام فقط كيف كانت الأمور تجري على ما يرام، فقد حزمت أمري واتخذت قراري بعد تهديد دكتور حاتم لي بأنني سأفعل مثل أسامة، وسأشهد أن كل ما تدعيه رحاب كذبٌ، وأن دكتور حاتم لم يمسها قط، أخذت هذا القرار وأنا مرتاحة البال، ولم يؤنبني ضميري كثيرًا، كنت أشعر أنني فعلت ما يجب تجاه رحاب بكثرة نصحي لها وهي لم تستمع، إذًا لماذا أدفع أنا وأولادي ثمن عنادها، بجانب أنني أحتاج إلى الأموال هذه الفترة خاصة بعد اكتشاف أمر آسر الذي كنت أعتمد على راتبه في حالة إن تركت عملي، كما أنني تحت هذا التهديد في وضع المضطر الذي لا حيلة له وعليه الاستسلام.. جلست مع نفسي كثيرًا وأنا أتشبع بتلك الأسباب حتى إذا قام ضميري من سباته العميق في أي لحظة يجد أمامه أكثر من مبرر يخمده ثانية..

توقفت عن الرد على مكالمات رحاب، وانقطعت عنها حتى لا يثنيني عن قراري أي شيء كما أنها ستقاطعني بالضرورة ولن تفهم أسبابي عندما تعلم بشهادتي.

كان كل شيء يسير بهدوء وسلام داخلي حتى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لإحضار براء كالعادة من مدرسته ولكن حدث شيء غريب هذه المرة وجدت براء ينتظرني على باب المدرسة وهذا لم يحدث من قبل، ابتهج عندما رآني

وبدأ في التحرك تجاهي، أشرت له بيدي أن يتوقف قبل أن تخط قدماه الطريق الأسفلتي، ولكنه لم ينتبه لي وبدأ في العبور.. تسمرت في مكاني بعدما سمعت صوت صرير عال نتج عن احتكاك عجلات إحدى السيارات بالأسفلت ووقع براء أمامها من شدة خوفه.. جريت عليه وأنا أحمله وأحتضنه ولا أصدق أنه لولا هذه السنتيمترات القليلة للحق براء بأبي وهاشم..

دخلت إلى المدرسة وأنا أستشيط غضبًا من هذا الإهمال الجسيم، ولكن الجميع أصابته الدهشة لحدوث هذا، وتعجبوا كيف خرج براء من بين أيديهم، ولم يشعروا به، ولم يحدث هذا من قبل أبدًا..

أخذت أفكر في ترتيب الأمور في أثناء رجوعي إلى البيت، وكيف أنني كنت سأفقد براء في لحظة، شعرت أن الله يوجه لي رسالة من خلال هذا الموقف.. أريد أن أشهد شهادة زور خوفًا على أبنائي ولا أفكر في عاقبة هذا الأمر عليهم..

هي أقدار الله سيلقونها حتمًا مهما فعلت لمنعها عنهم ومهما حاولت حمايتهم.. وصلت إلى المنزل ووجدت خالي قد وصل قبلي، فانفجرت في البكاء مما جعل أمي وخالي يصابان بالذعر ويسألاني عمَّا حدث.. قصصتُ لهما ماذا حدث لبراء ثم أخبرتهم بعدها عن ذهابي الأخير للشركة، وتهديد دكتور حاتم لي..

قامت أمي واحتضنتني، وهي تحاول أن تخفف عني قائلة:

- «حماكِ الله يا ابنتي شرور تلك الدنيا.. أعلم أن الأمر يزداد شدة عليكِ، ولكن ستنفرج كل تلك الأمور قريبًا صدقيني وسيزول كل ما نعيشه الآن»

مسحت الدموع من على وجنتي، وأنا أهز رأسي مؤكدة كلامها..

جلسنا بعدها نفكر ماذا سنفعل مع تهديد دكتور حاتم وكيف سنحل الأمر إذا أدليت بشهادتي الحقيقية ضده، قال خالي:

- «نبلغ الشرطة»

قلت نافية:

- «لا يا خالي.. هو حذرني من اتخاذ هذا الموقف وألا أفعل أي فعل يثير غضبه، كما أن له الكثير من المعارف ولا أعرف هل سيجدي هذا الأمر أم لا ولن أجازف بهذا الفعل»

قالت أمي:

- «عندما تذهبين وتدلين بشهادتك أخبريهم أنه يقوم بتهديدك»

توجهت إليها وقلت:

- «ويعلم هو، ويسرع بإرسال رجاله إليكم، ويفعل ما يفعل، ولن أحصل على أي شيء وقتها بل إني سأُلام لأنني لم أبلغ من قبل»

صمتت أمي وهي تضع يدها على ذقنها، ثم سألت حائرة:

- «إذًا ماذا سنفعل؟»

نظرت إليهما وقلت بتردد:

- «هناك حل واحد فقط أمامنا»

قال خالي:

- «وما هو؟»

قلت ببعض الخوف من ردة فعل أمي:

- «أن نترك هذا المكان ونرحل لمكان آخر بعيد عن القاهرة»

قامت أمي من مكانها واتسعت حدقتا عينيها مستنكرة، وقالت:

- «نترك بيتنا!!»

- «لا حل عندي يا أمي غير هذا.. هذه الطريقة الوحيدة التي سأشعر من خلالها أننا سنكون بأمان»

قالت أمي وهي تهز رأسها نافية:

- «لن أستطيع ترك بيتي.. اتركيني أنا هنا، أنتِ لا تعرفين مكانة هذا البيت عندي.. حصلنا عليه بعد خمسة أعوام من ولادتك، وكان بداية فتح أبواب الخير والرزق على أبيكِ، أنا هنا منذ خمسة وعشرين عامًا امتدت جذوري بهذا البيت ولا أحد يستطيع اقتلاعي»

ثم بدأت في البكاء بعد أن انتهت من كلامها، قمت وأنا أمسك يدها وأحاول تهدئتها قائلة:

- «أمي أرجوكِ لا تُصعبي الأمر؛ فأنا لن أستطيع تركك وحدك هنا.. فلو علم باختفائي بعد إدلاء شهادتي من الممكن أن يستشيط غضبًا ويقوم بأذيتك»

نظرت إلى الأرض وقد أصابتها الحيرة..

تابعت:

- «أنا أعلم تمامًا مكانة هذا البيت في قلبك ومكانته كذلك كبيرة في قلبي، ولكن بماذا ستنفعني الحوائط إن جرى لأي أحد منا أي شيء؟! بماذا سيفيدني البيت وقتها؟!»

قالت أمي وقد بدا الحزن في صوتها:

- «وإلى أين سنذهب؟»

قلت:

- «إلى الآن لست متأكدة، ولكن أغلب الظن إلى الإسكندرية، دكتور سيد زميلي بالعمل ذكر كثيرًا أمامي أن لديه أقارب هناك ويمكنه مساعدتي في الأمر»

قال خالي:

- «إذًا سأذهب معكم للعيش هناك»

قلت وأنا أشير نافية بيدي:

- «لا يا خالي لا نريد أن نسبب لك المشاكل، وأن تنقلب حياتك رأسًا على عقب بسببي، كما أن زوجتك ستغضب كثيرًا»

أجاب بحزم:

- «تغضب كما تغضب، لن أستطيع أن أترككما وحدكما ببلد غريب لا تعرفان به أحدًا بدون رجل معكما حتى إن كان هذا الرجل عجوزًا مثلي، ولكن وجوده بالبيت سيكون حماية لكما وللأولاد»

صمتُّ وقد ارتحت بداخلي لقرار خالي؛ فإنني وإن أظهرت رفضي إلا إننا بالفعل بحاجة لرجل معنا هناك، لا أعرف ماذا سنواجه، ولا أريد حدوث المزيد من المشاكل، يكفي ما سببته لهم جميعًا..

- «ومتى سنبدأ بنقل أشيائنا؟» سألت أمي..

ابتلعت ريقي وقلت:

- «قد لا نتمكن إلا من أخذ القليل من ثيابنا»

نظرت إليّ أمي باستنكار، فاستطردت سريعًا موضحة:

- «لا نريد أن نلفت النظر إلينا أننا ننتقل لمكان آخر حتى لا نثير تساؤلات من حولنا، سنخرج معًا وكأننا ذاهبين لزيارة ما، وسنستقل القطار بعدها»

صمت برهة وزدت:

- «ما سأفعله الآن أنني سأتصل بدكتور حاتم أخبره بموافقتي على عرضه حتى يطمئن ولا يرسل أحدًا لمراقبتنا، وسأتصل بدكتور سيد حتى أفهمه الأمر وأرى كيف سيساعدنا.. أتمنى أن يسعفنا الوقت فبقي أسبوع واحد لذهاب رحاب وتحريرها محضرًا ضده ولا أستطيع أن أجعلها تتأخر أكثر من هذا.. فكلما تأخرت في تحرير المحضر كلما ضعف وقتها»

شعرت بالحزن يسيطر على أمي، ولكنها تعلم جيدًا أنه ليس بيدي حيلة، وأنني مجبرة على هذا ما دمت سأتمسك بموقفي..

مر يومان بعدها قمت بالاتصال فيهما بدكتور سيد وشرحت له الأمر، وكان عند حسن ظني فبعد اتصالي بساعة واحدة أخبرني أن أحد أقاربه وجد لنا مكانًا بثلاث غرف بالسعر الذي أخبرته أنني أستطيع دفعه، ثم ذهبت إلى مدرسة براء، وقمت بسحب أوراقه، وبعد أن اطمئننت أننا صرنا مهيئين للانتقال وأوجدنا مكانًا نذهب إليه، اتصلت بدكتور حاتم وأخبرته بموافقتي والذي سعد كثيرًا عند سماع هذا، وأثنى على عقلي وحكمتي في اتخاذ قراراتي..

أخذت براء ومارية وذهبنا لبيت جدهما وجدتهما والدي هاشم؛ كي يسلموا عليهما قبل أن نرحل، تفاجئا كثيرًا عندما أخبرتهما برحيلنا إلى الإسكندرية وتسألا عن السبب.. أخبرتهما أنني وجدت فرصة عمل أفضل هناك ولن تتوفر مثل هذه الفرصة هنا.. أعلم أنهما سيغضبان من داخلهما بسبب اتخاذي لقرار مثل هذا وحرمانهما من رؤية براء ومارية أسبوعيًّا كما اعتادا، ولكني لا أستطيع إخبارهما بالحقيقة؛ حتى لا يصيبهما الذعر على الأطفال كما أنهما لن يستطيعا فعل شيء لي.. فعائلة هاشم عائلة مسالمة وبسيطة وأخواه الاثنان سافرا منذ عدة أشهر؛ لإكمال دراستهما ولا أريد إقحامهما في أمر قد يعود عليهما بالمشاكل.. أخبرتهما أنني سأبلغهما بالعنوان فور تأكدي منه، وأننا سنكون بانتظارهما هناك ليأتيا ويقضيا معنا بعض الوقت..

بدأت أمي بوضع الأغطية البيضاء على الأثاث حتى لا يكسوه التراب، كنت ألاحظها وهي تتأمل أعمدة البيت وأرضه وجدرانه وكأنها تشبع عينيها منه، شعرت باشتياقها له من قبل أن نرحل عنه، حتى بقي يوم على رحيلنا،

ذهبت إليها فوجدتها جالسة على طرف السرير صامتة تمسك إحدى المحارم بيدها، دلفت إلى غرفتها سائلة:

- «هل قمتِ بتحضير أغراضك المهمة يا أمي؟»

أومأتْ برأسها لي ببطء، ذهبتُ وجلستُ بجانبها وأنا أربتُ على كتفها، فتحتْ كلتا يديها وقامتْ بفرد المحرمة القماشية التي تمسكها، كانت محرمة بيضاء اللون عليها تطريز بمنتصفها على شكل بيت صغير بمدخنة بخيط لونه أحمر، وحوله بعض النباتات المطرزة بخيط لونه أخضر، وطائران يحومان فوقه بخيط أسود..

قالت وهي تغالب بكاءها:

- «قمت بتطريز هذا المنديل عندما قدمت إلى هذا البيت تعبيرًا عن فرحتي به.. أتذكر وأنا جالسة في مكاني هذا نفسه وأقوم بتطريزه، كنت وقتها في بداية ممارستي للتطريز، وظللت عاكفة عليه طوال الليل حتى انتهيت منه قرب الفجر، وفرح أبوكِ كثيرًا عند رؤيته إياه»

ثم قامت بضم المحرمة إلى صدرها تحتضنها وقد سقطت دموعها.. قلت مهونة عليها:

- «لا تحزني يا أمي أرجوكِ.. أعلم أنني السبب في كل هذا ولكن أعدك عندما يزول هذا الأمر سنعود إلى هنا ثانية ونعيش ببيتنا من جديد ولا نتركه أبدًا»

قالت بخيبة أمل:

- «وما أدرانا.. قد أكون وقتها لحقت بأبيكِ»

قلت بسرعة أنهاها:

- «لا تقولي هذا يا أمي أرجوكِ، بارك الله في عمرك وحفظكِ لنا»

وضعت يدها على ساقي، وقالت:

- «لا عليكِ يا حبيبتي حزني هذا سيزول إن شاء الله، أهم شيء أن تبقين أنتِ وبراء ومارية بخير»

ربت على يدها قائلة:

- «حاولي أن تنامي مبكرًا فموعد القطار الساعة العاشرة صباحًا»

- «حسنًا»

قبلتها وودعتها، ثم ذهبت إلى غرفتي؛ لأتأكد من جمع متعلقاتي المهمة أنا وبراء ومارية..

بحثت جيدًا في خزانتي وأدراجي عن أي شيء قد أحتاجه فأنا لا أعلم هل سأستطيع المجئ إلى هنا قريبًا أم لا..

وقع نظري في الدرج الأخير لمكتبي على ذلك السلك الدائري لأحد الدفاتر، أزحت المذكرات الورقية التي تعلوه وأخرجته.. نظرت إليه وأنا أقلبه بين يدي وأبتسم، فتحته وبدأت بقراءة الخواطر التي تقبع بين طياته..

كم كتبت في ذلك الدفتر الرمادي من خواطر وكلمات وأحاسيس،

كم كنت حالمة وقتها كل ما يشغل بالي هو الحب وما يدور حوله من ألم وفرحة وحزن ونشوة.. لم أكن أرى الدنيا بعيني التي أراها الآن بها.. الدنيا حينها كانت بسيطة نقية غير معقدة وخادعة مثل الآن، كلما كبرت تنضج أحاسيسي ومشاعري معي وتزداد تعقيدًا، كل زمن يأتي علينا نترحم على الذي قبله، ونظل ننعي تلك الأيام الراحلة، وفي مراحل أعمارنا القادمة سنترحم على الأيام التي نمر بها الآن وننعها كذلك، ونظل هكذا حتى الموت.. ما بين حنين ونعي ومحاولة الوصول للأفضل أو الرجوع ولكن تأبى دائرة الحياة..

بقيت مستيقظة طوال الليل وأنا أنظر من النافذة إلى النجوم اللامعة كالمصابيح في السماء أبثها شجوني تارة، وأقرأ في دفتري الرمادي تارة فأستعيد بعض الذكريات..

حتى بدأ الصباح في البزوغ واستيقظت أمي والأولاد، تناولنا الفطور سريعًا وبدأنا في التحرك، استقلينا سيارة أجرة أوصلتنا إلى محطة القطار، وكان في انتظارنا هناك خالي وأم سعد، جلسنا بإحدى الأماكن الملحقة بالمحطة فما زال على موعد القطار ساعة، أخبرنا خالي أنه قام بإجراءات نقل ورقه من عمله إلى فرع الإسكندرية ومن الممكن أن يأخذ عشرة أيام حتى يستطيع اللحاق بنا..

سألته عن موقف زوجته ولكن صمت، فلم أسأل ثانية فأنا أعلم بموقفها الغاضب بالتأكيد فلست بحاجة إلى إجابته، كانت أم سعد تبكي طوال وقت

انتظارنا للقطار وتبكي معها أمي، حاولت أن أخفف عنهما وأقول لهما إننا سنرجع مرة أخرى إلى هنا إن شاء الله وستنصلح الأحوال وأنا لا أعرف على أي أساس أقول هذا الكلام، ولكنني لا أملك غيره الآن لأحاول أن ألطف الجو قليلًا..

جاء القطار متأخرًا عن موعده بعشر دقائق، تبادلنا السلام مع خالي وأم سعد وصعدنا إلى المقطورة، بدأ القطار في التحرك شيئًا فشيئًا ونحن نلوح لهما من خلال النافذة حتى اختفيا تمامًا..

كان براء ومارية في عالم آخر فهما يشعران بالإثارة فالقطار بالنسبة لهما مغامرة جديدة لم يخوضاها من قبل، لاحظت ذلك الحماس بأعينهما وهما يلصقان وجوههما بزجاج النافذة ويكتشفان كل شيء بالطريق..

تمنيت كثيرًا أن أنضم إليهما بشعورهما.. لا أحمل عبء شيء ولا أفكر في شيء سوى بتلك المغامرة التي أخوضها الآن..

ولكن لا ضرر. يكفي الآن أنهما يشعران بهذا الشعور، يجب أن يأخذا دورهما في تلك المشاعر البريئة الخالية من المتاعب، فستدور عليهما الدنيا بالتأكيد يومًا ما ويرونها على حقيقتها..

لفح الهواء البارد وجوهنا بقوة عندما وصلنا وترجلنا عن القطار.. كنا نرتدي الملابس الشتوية الثقيلة؛ لعلمنا أن الإسكندرية هذه الأيام تمر بموجة صقيع، كانت السماء مليئة بالغيوم التي تنذر بمطر غزير، وبانتظارنا أحد أقارب دكتور سيد بالمحطة بجلبابه الصعيدي، أخذنا بسيارته إلى

مكان البيت حتى وقفنا أمام مبنى قديم قد تصدعت جدرانه مكون من أربعة طوابق وأخبرنا بوصولنا، بدأنا في التحرك إلى بوابة البناية وصعدنا على السلم المتهالكة درجاته وصولًا إلى الطابق الرابع، فتح الباب ببطء فانتشر الغبار في الجو وأصدر أزيزًا قويًّا، أضاء النور وهو يدعونا للولوج، كانت جدران الشقة لبنية اللون تنتشر عليها البقع الخضراء وبعضها قد تساقط عنها الطلاء وظهر اللون الرمادي بطبقة بيضاء رخوة، وبلاط الأرضية باهت اللون يحتاج إلى كثير من التنظيف حتى يظهر لونه الحقيقي، ونوافذها الخشبية مفتوحة يضربها الهواء فتتحرك ذهابًا وإيابًا..

صدمني هذا المنظر بالرغم من أن دكتور سيد أخبرني أن الشقة ستكون متواضعة ولكن لم أكن أتخيل أنها بهذه الدرجة، أما أمي فشَعَرْتُ أنها ستفقد وعيها من تأثير ما رأت..

خرجت مع صاحب البيت خارج الشقة وأنا أطلب منه أن يجد لنا شقة مناسبة أكثر من هذه ولكنه رد مستنكرًا أن المال الذي لدينا يكفي لتأجير غرفة على السطح وليست شقة مثل تلك، وأنه وافق على إعطائنا هذه الشقة تحت إلحاح دكتور سيد، ولن يطالبنا بالإيجار أول ثلاثة أشهر لأنه يعلم بظروفنا..

وأخبرني أن الأثاث سيأتي اليوم ليلًا ولكنني شكرته، وأخبرته أنه لا حاجة لذلك، وسأتصرف أنا بالأمر، فوضع الشقة يوحي بالوضع الذي سيكون عليه الأثاث ولم أرد لأمي أن تحزن أكثر من هذا.. لذلك قررت سحب المبلغ البسيط

المتبقي بالبنك وشراء عفش مستعمل لنا وإن كنت أحاول الحفاظ على تلك الأموال لوقت الحاجة الشديدة، ذهبت إلى إحدى المحال المجاورة للمنزل لشراء بعض الحاجات وسألته عن أماكن بيع الأثاث المستعمل بالمدينة فدلني عليها..

أخذت أمي وبراء ومارية وذهبنا إلى المكان بسيارة أجرة، وجعلت أمي هي التي تختار جميع الأثاث، وأنا أمازحها أنه من فوائد انتقالنا إلى هنا أنني جعلتها تختار الأثاث للمرة الثانية في حياتها..

بدأنا بنقله على عربة مخصصة للنقل، وبدأنا التحرك، ووصلنا إلى المنزل، وما إن انتهى العمال من وضع الأثاث بالشقة وأغلقوا الباب وراءهم حتى بدأت قطرات المطر تدق على زجاج النوافذ بغزارة.. انتقل براء ومارية إلى الشرفة وهما يقفزان ويصيحان؛ فرحةً بالمطر فهما لم يعتادا على رؤية المطر بهذا الشكل في القاهرة، انضممت إليهما وقفزتُ معهما وبلل ثيابنا المطر ونحن نخرج ألسنتنا؛ لنرتوي منها..

علا صوت أمي بالضحك مما نفعل، وهي تقول:

- «طفلة أنجبت أطفالًا»

ثم رفعت يديها وبدأت تدعو.. «اللهم اجعل هذا المكان فاتحة خير علينا وسببًا لسعادتنا واطرح فيه البركة»

أمنت على دعائها بداخلي وأنا أدعو «اللهم اجعل الأيام القادمة تمر على خير»..

مر يومان كنا انتهينا خلالهما من فرش أثاث البيت، وأخذت أمي غرفتها، وأخذت أنا والأولاد غرفتنا، أما الغرفة الثالثة فتركناها مجهزة لحضور خالي وزوجته..

اتصلت بي رحاب؛ لتطمئن على أحوالنا وتخبرني أنها لا تعرف ماذا تقول لي وكيف تشكرني على موقفي هذا وأن مثلي ندر بهذا الزمن.. وودت أن أخبرها أنني لست كذلك وأنني بشرٌ، وضعفت، وكنت سأشهد زورًا لولا أن الله أرسل لي رسالة، ولولا أسرتي بجانبي التي تدعمني بقراراتي لطغى ضعفي على روحي واستسلمت.. أكدت في نهاية المكالمة على موعدنا غدًا، وذهابها إلى قسم الشرطة؛ لتحرير المحضر، وأنها أخبرت أسامة كذلك بالموعد، لم أرد أن أخبرها طوال هذا الوقت موقف أسامة الذي أخبرني به دكتور حاتم فربما أيقظه ضميره خلال هذا الوقت فيقول غدًا شهادته الحقيقية..

استيقظت صباحًا واتجهت للخارج في طريقي لمحطة القطار بعد أن أوصيت أمي بعدم فتح الباب لأي أحد، وإذا احتاجوا أي شيء يقومون بالاتصال بي..

اتخذت القطار المتجه إلى القاهرة وأنا أدعو الله طوال طريق سفري أن يمر اليوم على خير، ويجنبنا أنا وأمي وأولادي كل من يريد بنا مكرًا، استقليت إحدى سيارات الأجرة عند وصولي وذهبت إلى قسم الشرطة، ألقى المكان رهبته بداخلي عندما دخلت إليه، فهو مزدحم للغاية.. الجميع يتحرك في الوقت نفسه، الكثيرون أيديهم مصفدة بالأغلال نتيجة جرائمهم..

ظهرت رحاب من بعيد وهي تشير إليّ، ذهبت إليها وكان بجانبها ابن عمتها وأسامة.. ألقيت التحية، ثم بدأ ابن عمة رحاب بالكلام قائلًا:

- «ستقوم رحاب الآن بإجراء المحضر، وستقول إن لديها شاهدين للواقعة، وتذكركما وتذكر أنكما حاضرين الآن، وسيدخلونكما واحدًا تلو الآخر للشهادة»

أومأنا له برؤوسنا موافقين، دلف هو ورحاب إلى الداخل، وابتعدت أنا عن أسامة بعض الخطوات؛ تجنبًا للحديث معه، كان هناك رجلان يراقبوننا من بعيد أظنهما من رجال دكتور حاتم؛ لينقلا له ماذا يحدث باستمرار، مرت نصف ساعة خرج بعدها أحد أمناء الشرطة ونادى على اسم أسامة، دخل أسامة وغاب عشرين دقيقة كنت أشعر خلالها بالتوتر الشديد، فأنا التالية ثم خرج وعلى وجهه ابتسامة ساخرة فهمت منها ما حدث بالداخل..

خرج أمين الشرطة ونادى على اسمي، دخلت ورأيت أثر ما فعله أسامة على وجه رحاب وخيبة الأمل تكسو ملامحها..

بدأ الضابط بسؤاله لي:

- «اروي لنا ما حدث رجاءً»

رويت ما حدث ببطء وأنا أحاول أن أستدعي جميع التفاصيل بذهني؛ كي لا أنسى شيئًا حتى انتهيت، وبدأ بتوجيه بعض الأسئلة لي، وكنت أجيب عنها دون أن أفكر، أجيب بالصدق فقط..

انتهينا جميعًا وخرجنا، احتضنتني رحاب وشكرتني، ثم قالت لي:

- «رأيتِ ماذا فعل أسامة.. كَذَّبَ كل ما حدث»

أجبتها متعجبة:

- «وماذا كنتِ تنتظرين من أسامة!! وهو كالخاتم في إصبع دكتور حاتم من زمن»

قالت بتأفف:

- «لكن لم أكن أعلم أنه من الممكن أن يبيع نخوته مقابل حفنة من المال»

- «دائمًا تضعين ثقتك بالأشخاص الخطأ»

هزت رأسها موافقة وهي تقول:

- «معكِ حق»

ثم توجهت إلى ابن عمتها المحامي وسألته:

- «وماذا سيحدث الآن؟»

أجاب:

- «سيرسلون إليه ويطلبونه للتحقيق، وسيجمعون الأدلة ويرون بعدها.. ولكن شهادة زميلكما أضعفت الموقف»

تمتمت رحاب:

- «حقير مثله»

ثم توجهت إلي بالحديث:

- «أين ستذهبين الآن؟»

قلت بصوت متردد:

- «كنت أفكر بالرجوع إلى الإسكندرية، فأمي وبراء ومارية بمفردهم ولكن هناك رجلان خلفي أظنهما من رجال دكتور حاتم وأخاف أن يتبعاني»

قالت:

- «سأوصلك بالسيارة إلى صديقتي وستنقلك وسط مجموعة من أصدقائنا المحجبات إلى صديقة لنا أخرى حتى لا يعرفونك، وسوف تبيتِين عندها الليلة وتسافرين غدًا صباحًا بالقطار»

قلت مستنكرة:

- «لا أستطيع أن أتركهم الليلة بمفردهم»

قالت بحزم:

- «وأنا لن أتركك تعرضين أنفسكم للخطر من أجل ليلة»

فكرت بكلامها ووجدته منطقيًّا، اتصلت بأمي وأخبرتها بالأمر وطمأنتني أنها ستعتني بالأولاد جيدًا هذه الليلة..

ذهبت مع صديقة رحاب التي أوصلتني لصديقتها.. لم أنم طوال ليلة أمس من الخوف والقلق، وأنا أفكر ماذا يمكن أن يفعل دكتور حاتم، وكيف كانت ردة فعله عندما علم بشهادتي بعدما اتصلت وأكدت له بموافقتي على عرضه، وأنني سأدلي بشهادتي لصالحه.

هل سيبحث عني؛ لينتقم مني ويلحق الأذية بي وبأولادي؟ وإِنْ وجدني، ماذا سأفعل حينها؟ ماذا سأفعل إِنْ عرف مكاننا الجديد؟ ماذا سـ...

- «تذكرتك يا أستاذة.. تذكرتك يا أستاذة»

انتبهت على صوت محصل التذاكر، أعطيته تذكرتي فوضع علامة تأكيدًا على صحتها وانصرف..

أخذتها منه ووضعت طرفها على شفتي، وأنا أفكر ناظرة إلى النافذة، ماذا لو اكتشف مكاننا؟ إلى أين سنذهب بعدها؟....

●●●

(19)

سحبت أطراف أكمامي إلى أصابعي، وأنا أنفث الهواء في يدي وأحكهما ببعضهما بعضًا؛ كي أدفأ قليلًا..

تناولت كوب المشروب الساخن من على الطاولة المجاورة لي، واحتضنته بأناملي؛ ليصل الدفء لهما، وأنا أراقب من النافذة قطرات المطر الخفيفة وهي تدور حول مصابيح الإنارة بالطريق وقد قاربت الساعة الرابعة فجرًا..

حجب رؤيتي بخار تنفسي المتصاعد على الزجاج ففتحت إحدى ضلفتيها قليلًا؛ لأتمتع برؤية الشتاء، وأشتم رائحة البحر الممزوجة برائحة المطر عبر تلك الرياح الرطبة..

جميع البنايات حولنا قصيرة لا تتعدى الأربعة طوابق قد بنيت منذ زمن بعيد مما يساعد على نقل رائحة البحر إلينا بالرغم من ابتعاده عنا بعشرة بنايات..

سكان المدينة يقولون إن فصل الشتاء أطال البقاء هذا العام، وأن أمطاره تأبى وداعنا، مضى شهران ونصف منذ مجيئنا إلى الإسكندرية، استطاع خلالها حب هذه المدينة أن يخترق قلبي بسرعة كبيرة، ارتبطت ببحرها، وجوها الماطر، وشوارعها، ومبانيها، ومحالها، مازالتْ تحتفظ بجمال روحها الراقية بعيدًا عن الماديات الزائلة، اعتدت عليها وصرت

أعرف كثيرًا من الأشياء هنا، فأنا أقوم بشراء احتياجات البيت بنفسي مما ساعدني في معرفة أماكن عدة، وكيفية الذهاب إليها فمن مزايا الإسكندرية سهولة التنقل بين المناطق..

أمي لم تعتد عليها بعد؛ ربما لطقسها البارد الذي يفت في عضدها، أو لوضع الشقة مقارنة ببيتنا القديم، آخذها هي والأولاد أحيانًا لنتمشى قليلًا على الكورنيش، وأريها جمال هذه المدينة؛ أملًا في أن تشعر بالراحة.. أتمنى أن تحبها وتعتاد عليها عندما يهل فصل الربيع بنسائمه اللطيفة ويذهب فصل الشتاء ويزول البرد..

التحق براء بمدرسة قريبة من البيت وبالرغم من شخصيته الاجتماعية وسرعة تعرفه على الآخرين فإنه لم ينسجم مع أقرانه بصفه حتى الآن، أحاول أن أصل إلى سبب المشكلة ولا أجد شيئًا سوى أنه ربما لا يستوعب تلك التغييرات الكثيرة بحياتنا مؤخرًا التي تحدث بشكل متلاحق..

أخذت رشفة من الكوب وأنا أفكر كيف يمكنني إصلاح هذا الأمر.. فليس لدينا هنا جيران نعرفهم أو أصدقاء لديهم أولاد بسنه نذهب إليهم ويأتون إلينا حتى يألف العيش هنا بجانب أنني أخشى تكوين علاقات جديدة مع مَنْ حولنا، وقد يتطلعون إلى معرفة سبب مجيئنا كما أنني لا أستطيع أن أسمح لأحد بزيارتنا دون أن أعرفه جيدًا..

تناهى إلى مسامعي ذلك الصوت المكتوم الخارج من الغرفة الثانية بالرواق وقد حجبه قليلًا غلق الباب..

إنه صوت زوجة خالي وعراكها المعتاد معه يوميًّا فعندما تشعر بالبرد وهي تتقلب لا تعرف كيف تعبر عن شعورها إلا بالعراك مع خالي وكيف أنها انتقلت إلى هذه الخرابة وتريد العودة إلى ما كانت عليه فهي لا تحب هذه المدينة قط..

أتذكر أول مرة عندما وطأت قدمها أرض الشقة وكيف وقعت الحقائب من يديها عند رؤية الجدران والأرض والنوافذ، كانت تستشيط غضبًا ونظرات الاشمئزاز لا تترك عينيها وهي تتطلع إلى كل شيء بالشقة بالرغم من محاولاتنا بالترحاب الجم بها..

أنا لا ألومها على هذا.. فلو كنت مكانها ربما لا أوافق على ما فعله خالي وأفعل مثلها وأكثر لكن هي لا تفهم أن وجود خالي يحدث فرقًا بالتأكيد فمجرد شعوري أنه يوجد رجل بالبيت معنا يمنحني السكينة والاطمئنان..

انتهيت من مشروبي واتجهت إلى المطبخ؛ لأنجز بعض الأعمال به..

فاليوم السبت وهو عطلة والجميع نائمون أما أنا فوضعي مختلف..

مضى الوقت سريعًا حتى سمعت جرس منبه هاتفي ينبئني عن قدوم السادسة والنصف، وكنت قد انتهيت من غسيل الأطباق والأواني وتنظيف المطبخ فزوجة خالي دومًا تخبرني أنها تشعر بالاختناق عند دخولها إلى هذا المطبخ الضيق فهي معتادة على المطابخ الواسعة.. فأحاول ألا أزيد اختناقها برؤيته ضيقًا ومتسخًا في الوقت نفسه.

ما زال على موعدي ساعة إلا قليل إلا إنني قمت بكي ملابسي وارتدائها وهممت بالنزول، فاليوم أتخذ طريق البحر عكس كل أيام الأسبوع الباقية التي أتخذ بها الطريق المختصر..

مشيت بطريقي وأنا أرى زرقة البحر من بعيد تظهر شيئًا فشيئًا كلما تقدمت، السماء صافية، والأرض ما زالت رطبة من أثر المطر، وقد تجمعت بعض برك المياه الصغيرة على الجانبين، اجتزت العشر بنايات وقطعت الطريق لأصل إلى جهة الكورنيش..

ضممت ياقة معطفي إلى رقبتي أكثر؛ حتى أقيها لسعة البرد التي زادت بالاقتراب من البحر، كل يوم أريد الذهاب إلى إحدى المحال لشراء كوفية صوفية تدفئني ولكن لا يسعفني الوقت فمنذ أن عملت بتلك الروضة الأهلية أصبحت أعمل من السابعة والنصف صباحًا حتى الثالثة عصرًا..

أتذكر عندما وجدت ذلك الإعلان المعلق على إحدى الفلل ويعلنون عن حاجتهم لمعلمات للعمل بالروضة التي تقبع بتلك الفيلا ترددت في البداية، أينعم أحب الأطفال كثيرًا ولكن لم أعمل بهذا المجال من قبل، ولا أتقن التعامل مع عدد كبير من الأطفال، فكرت أنه حان وقت أمي والاستعانة بخبرتها ومجالها وحلمها القديم في مساعدتي وإرشادي عن أفضل الطرق للتعامل معهم والتقرب منهم.. أعطيت نفسي فترة اختبار للأمر إن نجحت سأكمل وإن فشلت سأتركه، كما أن هذه الفرصة جيدة بالنسبة لي فلم يكن لدي وقت للبحث عن عمل أو شركة أخرى لدعاية الأدوية فقد مر شهر إلا أيام قليلة، ولم

أجد فرصة عمل وأصابني القلق فالأيام تجري وكما مر شهر سيمر الشهران الباقيان سريعًا، وسأجد صاحب البيت يأتي ويطالبني بالإيجار.

اعترض خالي على العمل بالروضة وأنها ليست تخصصي فأنا دكتورة فكيف أعمل بالروضة؟! تلك القوالب التي يضعها مجتمعنا، وكأن الطبيب أو المهندس إذا حاول العمل بأي شيء آخر سيحط هذا من مكانته، ولكنني أبديت رغبتي التامة بالذهاب إلى تلك الروضة وخوض التجربة، أخذت رقمهم وتمت المقابلة وأخبروني بالموافقة.. كانت الروضة بمنطقة راقية تبعد عن البيت خمسة وعشرين دقيقة مشيًا.. كان راتبهم سبعمائة جنيهًا، في البداية سعدت بسماعه ولم يكن لدي أسباب للاعتراض؛ فأنا لا أملك شيئًا من الأساس ولكن بمرور الأيام والجهد المبذول شعرت أنه ضئيل كما أنه لا يسد إلا بعض الأشياء بالبيت، كان خالي يشاركنا بمبلغ بسيط ولكن لم أحب أن أثقل عليه؛ لعلمي أن راتبه يضعه بيد زوجته فكنت لا أعتمد عليه كثيرًا لذلك اضطررت إلى أن أبحث عن عمل آخر أساند براتبه ذلك الراتب الضعيف ولم أجد إلا تلك الوظيفة التي فررت منها دومًا وهي العمل بإحدى الصيدليات القريبة من البيت من الرابعة عصرًا وحتى الثامنة مساءً..

فكرت في ترك العمل بالروضة والذهاب لأعمل عدد ساعات أكثر بالصيدلية فالعمل هناك مريح وسأحصل على راتب أفضل..

ولكن مع مرور الأيام لي بالروضة أحببتها كثيرًا وتعلقت بها.. فعالم الأطفال برئ للغاية، أشعر وأنا بجوارهم وكأني بجوار الملائكة.. يتعاملون

بطبيعتهم، يخبرون الجميع بما يريدونه بحرية، إذا أحبوا أظهروا، وإذا غضبوا أظهروا، وإذا تعبوا ناموا، وإذا حزنوا بكوا.. لا خداع ولا نفاق ولا تلون..

أرى هذا في براء ومارية ولكنني كنت بحاجة لرؤيته في مجتمع أكبر من الأطفال خاصة بعد ما مررت به..

أشعر وأنا أجلس وسطهم بالرجوع إلى ذاتي، إلى فطرتي التي نشأت عليها، إلى مبادئي التي غُرست بداخلي وأحاول أن أبثها فيهم.. كنت كلما رجعت إلى العمل بالصيدلية مساءً ورأيت الواقفين بها، أتذكر شركتي القديمة وزملائي هناك ودكتور حاتم والمواقف التي حدثت معي، مع الاختلاف الكبير بين الشخصيات فجميع العاملين بالصيدلية أشهد لهم بالاحترام والأخلاق الحسنة، ولكنه عالم الكبار الذي ستجد فيه أيضًا الشرور في أي عمل مهما كان فيثنيني هذا عن ترك الروضة وأتمسك بها أكثر..

وصلت إلى الروضة وقد تجمد وجهي بفعل هواء البحر، استقبلتني صديقتي أماني وهي إحدى المشرفات هناك.. قبّلتني على خدي وابتعدت قليلًا قائلة:

- «وجهك بارد للغاية»

قلت وأنا أتصنع الارتعاش:

- «نعم مشيت من طريق البحر اليوم»

ضحكت وقالت:

- «مجنونة»

سألتها:

- «هل جاءت أستاذة هدى؟»

- «لا.. ليس بعد.. أظن أنها ستتأخر لعلمها أن أكثر الأطفال لا يحضرون؛ لأن أغلب أسرهم عطلة اليوم ويبقوهم ليتمتعوا بقربهم»

هززت رأسي، ثم سألتها:

- «هل أتى أحد من الأطفال؟»

- «نعم أربعة»

اتجهت نحو الغرفة قائلة:

- «إذا جاءت أستاذة هدى أخبريني»

جلست وسط الأطفال أقصص عليهم القصص تارة، وألاعبهم تارة، ونتكلم تارة، أحب الأيام التي يكون بها عدد الأطفال قليلًا؛ فالجو يكون هادئًا وجميلًا..

سمعت جرس الباب وبعدها بدقيقتين ظهرت أماني وبيديها مريم..

قمت من مقعدي ببطء وأنا أتجه لهما قائلة:

- «أهلًا أهلًا بالجميلة مريم.. كيف حال حبيبتي اليوم؟»

نظرت إليّ بعينيها الجميلتين اللتين ظهرتا من خلال خصال شعرها المنسدلة على جبهتها ولم تجب..

زدت:

- «هيا انضمي إلينا.. فاليوم لدينا الكثير من المغامرات التي سنقوم بها»

تركت مريم يد أماني، ووضعت حقيبتها بالمكان المخصص للحقائب، وجلست على الطاولة الحمراء المستديرة..

اتجهت إلى أماني وهمست:

- «هل أخبرتِ والدتها الأسبوع الماضي أنني أريد الجلوس معها؟»

قالت:

- «الذي يحضرها السائق الخاص بعائلتها وأخبرته بالأمر وأخبرني أنهم سيأتون اليوم في الواحدة ظهرًا للمقابلة»

أومأت لها رأسي موافقة، ورجعت مرة أخرى إلى الأطفال، كانت مريم صاحبة الأربعة أعوام ونصف تشغل بالي كثيرًا، فمنذ أن أتت إلى الروضة وهي لا تتكلم مع أحد صامتة طوال الوقت، تتجنبنا ولا تتفاعل مع أية أنشطة، حتى وقت الطعام تتخذ مكانًا بعيدًا وتتناوله.. حاولت أن أشركها معنا مرات عدة ولكن دون فائدة، أحاول أن أفهم ماذا بها؟ وهل أفعالها نتيجة حزنها لشيء ما، أم أن طبيعتها انطوائية، ولذلك طلبت مقابلة إحدى والديها؛ لأفهم منه وأتناقش معه ما هي أنسب الحلول لنجعلها تتفاعل وتمرح وتعيش طفولتها فبالتأكيد أنهم يشعرون بحالتها تلك في البيت.

مر الوقت سريعًا وأتت خلاله أستاذة هدى مديرة الروضة، وألقت التحية علينا، واطمأنت على أحوالنا..

أستاذة هدى امرأة فاضلة ومربية جليلة..كل يوم أتأكد أنها أقامت هذه الروضة لا من أجل جمع الأموال بل لتنشئة جيل مميز على المبادئ والقيم الصحيحة..

بدأنا في لعب لعبة المغامرات وهي أننا نتخيل أننا رجعنا بآلة الزمن إلى العصور القديمة، فنستكشف ما بها، جلست مريم على مقعدها لا تريد المشاركة كعادتها لكن كانت أحيانًا تبتسم من ردة فعل إحدى الأطفال، وأحيانا أخرى تنسجم معنا بملامح وجهها فقط..

كانت عقارب الساعة قد قاربت الواحدة والربع.. أتت أماني ووقفت على الباب، وأشارت إلى مريم ثم أشارت للخارج، فهمت من إشارتها أن إحدى والديها قد قدم، أخبرتها أن تبقى معهم حتى أنتهي..

خرجت مع الأستاذة هدى إلى صالة الاستقبال وكنتُ قد شرحتُ لها الوضع من قبل ولماذا طلبت إحدى والديها..

دلفنا ووجدنا رجلًا واقفًا يعطينا ظهره وينظر من خلال النافذة..

بادرت بسؤالي إياه:

- «هل حضرتك والد الطفلة مريم؟»

لف بجسده إلينا ببطء..

شعرتُ بالاضطراب وبدأتْ دقات قلبي تتزايد وتتصاعد الدماء إلى وجهي..

شاهدتُ تلك العينين البنيتين خلف نظارته الزجاجية ولحيته الخفيفة البنية المائلة للسواد..

إنه حمزة.

●●●

(20)

وضعتُ يدي على عجلة القيادة، وأسندتُ ذقني باليد الأخرى وأنا أنظر إلى الطريق أمامي ولا أراه، أشعر أني مشوشٌ للغاية وتتصارع المشاعر بداخلي..

تنهدتُ وأنا أتعجب مما حدث اليوم، أراها بعد مضي كل هذه السنين ونلتقي ثانية!!

شعرتُ عندما رأيتها بكمية كبيرة من الأحاسيس المتناقضة بداخلي، ما بين اشتياق جارف إليها وزجر شديد لنفسي على ذلك؛ فأنا أعلم أنها امرأة متزوجة..

لو أن الأمور جرت كما ينبغي، لو أن الأحداث سارت كما كان مُخطط لها لصارت حنين الآن زوجتي..

أتذكر آخر يوم رأيتها فيه بعد صلاة العيد، لم أنسَ أبدًا نظرة عينيها الخجولة المحبة، وافقتْ على الزواج بي على الرغم من ظروفي وقتها.. لم تنظر إلى رفيقاتها وتطمح أن تنال فرصة مثلهن، تخلتْ عن كثير من الأشياء من أجلي وقابلتُ كل هذه التضحيات بخذلانها وجرح قلبها..

حككت جبهتي بضيق وأنا أحاول أن أتوقف قائلًا.. كفى جلدًا لنفسك

يا حمزة ماذا كنتَ تستطيع أن تفعل أنت الآخر؟ وُضعت في موقف صعب ولم يكن لديك أي خيار حينها.. ولكن ما الجديد؟! فحياتك كعادتها تموج بكثير من الصعاب ولم تكن حياتك سهلة يومًا..

وضعتُ كلتا يديّ على عجلة القيادة وابتسمتُ ساخرًا ثم زفرتُ زفرة طويلة وأنا أراقب ضوء الإشارة الأحمر وأذهب معها إلى زمن بعيد.. بعيدٍ جدًّا.. منذ أن كنت طفلًا، نشأت بمحافظة المنيا وكانت حياتي مليئة بالترف والتدليل؛ لكوني الابن الوحيد، أحاطني أبي وأمي بسياج من الخوف الشديد؛ حرصًا على حياتي مما جعلني بمعزل عن الناس، لا أتعامل مع أحدٍ غيرهما إلا قليل ولا أحب أحدًا غيرهما، وكان لهذا فائدة كبيرة فعزلتي ساعدتني على التأمل في الأشياء من حولي والتفكير بها والبحث عن أصولها.. لا أتقبل أي شيء دون أن أفهمه ويتقبله عقلي، لكن شعور الوحدة كان يرهقني بين الحين والآخر، كنتُ أرغب في التواصل مع عدد أكبر من الناس فيحول خجلي دون ذلك.. أتذكر أول حب في حياتي بعد أبي وأمي لم يكن لفتاة بل كان لصديقي عمر، كان عمر بصفي الدراسي نفسه وكان يتمتع بشخصية مغناطيسية يجذب كل من حوله إليه، فهو اجتماعي ومحبوب من الجميع حتى المعلمين، ربما كان هذا هو سبب حبي له؛ فشخصية عمر هي الشخصية التي رغبتُ أن أكون عليها دومًا، وليست تلك الشخصية الانطوائية قليلة الكلام التي لا ينتبه إليها أحدٌ، لم يصنع وجودي يومًا حيزًا في أي مكان ولم يشكل حضوري أو غيابي فرقًا لأحدهم، لم يكن لدي أصدقاء مقرَّبون.. أقرب الناس لي هم أبي وأمي وبالأخص أبي..

لم أكن قادرًا على التقرب من عمر فهو كما أسمع من بقية الأصدقاء شخص متدين ولم يكن يخفى عني هذا؛ فمنذ أن كنا صغارًا وأنا أراه يصلي بمسجد المدرسة، وممسك دائمًا بكتاب المسلمين (القرآن) مما خلق حاجزًا بداخلي بيني وبينه..

كبرنا معًا عامًا بعد عام.. أنقطعُ عنه في فصل الصيف وأعودُ أراه مجددًا مع بداية العام الدراسي فنقف قليلًا مع بعضنا البعض؛ لنطمئن على أحوالنا وكيف كان صيف كل منا، وأعود بعدها لقوقعتي من جديد.. لم يذهب عن ذاكرتي أصعب موقف مررت به في حياتي وهو وفاة والدي وكان ذلك قبيل امتحانات الثانوية العامة، شعرتُ حينها أن الدنيا اسودت أمام عيني فقد كان أبي هو صديقي المقرب وأحب الخلق إلى قلبي.. أثرتْ وفاة أبي على نفسي بشكل كبير، انعزلتُ عن الناس أكثر وصرتُ ملازمًا لغرفتي.. لم أرغب في عمل أي شيء سوى النوم؛ لأغيب عن تلك الحقيقة المرة.. حقيقة ذهاب أبي عن الحياة..

لم أفكر بمستقبلي أو المذاكرة، وانخرطتُ في مشاعر الحزن حتى ظهر عمر ولأول مرة بهذا الشكل في حياتي، طلب زيارتنا، وأتى لبيتنا، وجلس معي، أخبرني أن هذا ليس حلًّا وأن لو كان أبي هنا لحزن مما أفعل، وأنه يجب أن أعود إلى دروسي ومذاكرتي ومجموعات التقوية التي كانت تجمعنا معًا، كان الشخص الوحيد الذي وقف بجانبي بتلك الفترة، وشجعني على المذاكرة من جديد، فكان يأتي إلى البيت خصيصًا ليتأكد أنني أتابع مذاكرتي بشكل جيد وأنني على ما يرام حتى جاءت الاختبارات وحصلت على مجموع يؤهلني لتحقيق حلمي والالتحاق بكلية الحاسبات والمعلومات..

بدأ عامي الأول في الكلية وكان من إحدى أسباب سعادتي هو وجود عمر بفرقتي نفسها فهو الآخر يحب علم البرمجة ولديه أحلام بإنشاء شركة كبيرة تكون رائدة في عالم البرمجيات، ولكن على جانب آخر أرّقني شيءٌ ما فأكثر ما لاحظته عند بداية دخولي الكلية هو تغير طباع أمي كثيرًا معي.. أصبحت حازمة حادة الطباع متقلبة المزاج، وتبرر ذلك دومًا بأن أبي ترك لها مسئولية ويجب أن تكون على قدرها، وظهر ذلك في قلقها المفرط وعصبيتها الشديدة عندما أتأخر في الاتصال بها، كانت تعاملني كطفل صغير، حاولتُ التأقلم على طباعها الجديدة وألا أتضايق من هذا؛ فهي تفعل ذلك أولًا وأخيرًا بدافع حبها لي وخوفها علي..

تقربنا أنا وعمر كثيرًا خلال الكلية، أصبحنا نرى بعضنا أكثر، ونجلس لمناقشة المحاضرات معًا، شعرتُ لأول مرة أن الجدار الحائل بيني وبينه بدأ في الزوال، وساعدني في ذلك شخصيته المرنة في التعامل التي تشعرك أنك قريب جدًّا منه..

أتذكر كيف مرت الأيام، وأصبحتُ أنا وعمر وبقية مَنْ تعرفنا عليهم في الكلية على علاقة قوية ببعضنا البعض، نساند بعضنا في فهم المحاضرات ونقسم الأعمال علينا؛ لنحصل على مدار الثلاث سنوات على تقدير جيد جدًّا..

أصبحتُ ملازمًا لهم في جميع الأوقات أذهب معهم أينما ذهبوا وأذاكر معهم، شعرتُ وأنا بينهم بتعويض الحرمان الذي بداخلي منذ أن فقدتُ أبي..

بعض ممن حولنا كانوا يتعجبون من علاقتنا فجميعهم كما يطلقون عليهم (متدينون) فكيف أشعر بالانسجام معهم وأبقى بجوارهم، لكنني لم أكن أشعر بالغربة بينهم قط؛ فهم يعاملونني كما يتعاملون فيما بينهم، وما كانوا يتركونني إلا لأداء الصلاة بالمسجد..

كنتُ أراقبهم من بعيد بدافع الفضول، وأتساءل بداخلي بماذا يشعرون يا ترى وهم يؤدون تلك الحركات صعودًا ونزولًا؟ أهي بحق تريحهم كما يزعمون؟

بحثتُ كثيرًا في صلاة المسلمين فوجدتُ أنها تؤثر فيهم روحيًّا، وأظن ذلك منطقيًّا فحرصهم على أدائها وراءه سبب بالتأكيد، حاولتُ ألا أتوغل بالأسئلة داخل نفسي كثيرًا لكن بحكم طبيعتي كنتُ أبحث حتى أعرف وأفهم ما حولي خاصة إن كان شيء يتعلق بأصدقائي.

كان يأتي شهر رمضان وأنا بينهم وأراهم يتكلمون عنه بعيدًا عن رمضان الذي أعرفه، فحديثهم الحماسي عن اقتراب موعده، وكيف سيستعدون له أثار استغرابي؛ فلقد سمعتُ عن شهر رمضان طوال حياتي منذ صغري سواء من خلال التلفاز وأنه شهر الحسنات، أو من خلال توصية أمي لي أن أتجنب الأكل أمام المسلمين في هذا الشهر؛ مراعاة لشعورهم.. كل معلوماتي عنه أن المسلمين يقومون بالصيام فيه من الفجر حتى المغرب، وتضج موائدهم وقت الإفطار بمختلف الأصناف من المأكولات، ويتناولون بعدها شتى أنواع الحلوى أمام التلفاز.. كان رمضان في مخيلتي عبارة عن موائد عليها

أطعمة عدة ومشروبات مختلفة، ومسلسلات وبرامج جديدة تُعرض فيه لا أكثر من هذا..

ثلاث سنوات وأنا يشدني استعدادهم وإصرارهم مع اقتراب موعده، وأنسحب عند حديثهم بحجة الذهاب لشراء أي شيء يروي عطشي حتى لا يزداد فضولي وتكثر الأسئلة بداخلي..

بقيتُ هكذا حتى أتى رمضان في عامنا الرابع بالكلية، وطلب مني عمر على استحياء ككل عام مع اقتراب الشهر أنه لو كان في إمكاني أن أكتب المحاضرات التي سيتغيبون عنها ؛ لأنهم لن يستطيعوا الحضور بانتظام خلال العشرة أيام الأخيرة من الشهر وبالطبع وافقتُ بكل ترحيب على طلبه..

أتذكر حينها كيف شعرتُ بالحزن لعلمي بانشغالهم عني ككل عام، فهم إما في المحاضرات وإما جالسون في الجامعة يمسك كلٌّ منهم بمصحفه ليقرأ فيه، ولا يوجد لديهم وقت للحديث أو المسامرة كعادتنا، كل منهم يحاول استغلال كل دقيقة تمر عليه، لم أكن أجد ما أفعله في هذا الوقت سوى الذهاب لشراء أي شيء يسد جوعي ويروي عطشي وأذهب به إلى الحمام لتناوله؛ مراعاة لشعورهم وهم صائمون، حتى تغيَّب عامل النظافة بإحدى الأيام لمرضه، وكانت رائحة الحمام غير مشجعة لتناول الطعام، فكرتُ أين يمكنني أن أذهب، فدار بخلدي سؤالٌ وهو لماذا لا آكل في جو نظيف فهذا من حقي، ولن يستطيع أحد معاتبتي فأنا لست مسلمًا، لم يجبرهم أحد على فعل هذا حتى أراعي شعورهم، مَنْ شاء منهم أن يفطر فليفطر..

أخذتُ طعامي حينها وجلستُ على أريكة خشبية كانت بالقرب من مجموعتي، وبدأتُ بتناوله، وعلى عكس ما تخيلته لم ينظروا إليّ قط، ولم يتطلعوا إليّ باشمئزاز، لم يعاتبني أحدهم على فعلي هذا، كلٌ منهم منهمكٌ بشدة في ذلك الكتاب.. شعرتُ وكأنهم في عالم آخر.. غير عالمي الذي أجلس فيه..

وضعتُ الطعام جانبًا واقتربتُ من عمر، وددتُ أن أطرح عليه السؤال الذي يتردد بداخلي منذ ثلاث سنوات، كان يقرأ بكتابه فجلست بجانبه حتى ينتهي..

انتهى وتوجه لى مبتسمًا، شعرتُ بالتردد قليلًا وفكرتُ أن أسأله أي سؤال آخر غير الذي جئتُ به، لكن ابتسامته طمأنتني، فقلت له سائلًا:

- «لماذا أنتم بهذا الشغف يا عمر؟ لماذا لستم كالبقية تهتمون بالطعام وأصنافه وبالتلفاز فقط؟»

نظر إليّ عمر قائلًا:

- «كثير من المسلمين للأسف لا يشعرون بقيمة هذا الشهر ويضيعونه في مثل هذه الأشياء»

صمتَ برهة، وقال متحمسًا:

«هذا الشهر فرصة لنا للبدء من جديد.. تزيد رحمة الله فيه بنا.. كل ليلة يُنجى أناس من النار ويكتبون من أهل الجنة؛ لذلك نحن نسعى لنفوز بهذه النجاة»

ظهرتْ علامات التعجب على وجهي، وسألته باستغراب:

- «ولماذا يا عمر إنسان مثلك ممكن أن يكون من أهل النار؟! أنت شاب صالح تحافظ على الصلاة تساعد غيرك.. أبعد كل هذا يكون جزاؤك النار؟!»

ابتسم واقترب مني قائلًا:

- «أنا أحسن الظن بالله أنه سيجعلني من أهل الجنة ولكنني أسعى لأعلى من ذلك.. أنا أريد أعلى منزلة في الجنة.. أريد الفردوس»

مرتْ أمامي كلماته تلك من قبل ولكنه عندما قالها شعرتُ بشيء مختلف.. ابتسامته ونظرته الثابتة وإحساسي بشعوره القوي..حرّك شيئًا بداخلي، قمتُ من أمامه على الفور حتى لا أسترسل في الأسئلة، وأنفض عن نفسي ذلك الإحساس، ولكنه لم يتركني، عدتُ إلى البيت، ودخلتُ إلى غرفتي سريعًا، وفتحت حاسوبي، وبدأت بالبحث عن بعض الكلمات التي ذكرها عمر؛ لأعرف عنها أكثر..

الفردوس.. النجاة.. شهر رمضان..

كلما بحثتُ عن شيء ظهر لي مئات المواضيع المتعلقة به، فيدفعني فضولي لأبحث عنها هي الأخرى، ويتفجر بداخلي ظمأ لا ينتهي لمعرفة هذا الدين، مَرَّ الليل سريعًا، وأوشك الصباح على الظهور وأنا ما زلت على حاسوبي..

حاولتُ أن أتذكر بعض الكلمات التي كان يقرأها عمر اليوم، واستطعتُ في النهاية الوصول للآيات والاستماع إليها..

شعرتُ وقتها وكأن مشكاة نور أُلقيت بقلبي، وأحسست بميل إلى الإسلام ولكن رأسي يموج بالكثير من الأسئلة التي تعصف بفكري، وأريد الإجابة عنها.. كما أن شعور الخوف يجتاحني رغمًا عني..

أَنْ تُغير معتقدًا تؤمن به منذ صغرك ونشأت عليه ليس بالأمر السهل أبدًا، لا أنكر أنني كنتُ معجبًا ببعض تعاليم الإسلام منذ صغري وزاد إعجابي بها عندما اقتربت من عُمر، لكن لم أفكر قط في اعتناقه يومًا..

انتظرتُ حتى حانت العاشرة صباحًا فتوجهت إلى الجامعة؛ بحثًا عن عمر حتى وجدته، شعرتُ أن سبب ذهابي إليه لرغبتي في الاطمئنان أكثر من إجابة أسئلتي، أخبرته بما حدث معي منذ الأمس وأن لدي الكثير من الأمور أريد الإجابة عنها..

ترك عمر كل شيء بيده وجلس معي، جاوب عن جميع أسئلتي بنفسه تارة وبالاستعانة بشبكة الإنترنت أو أحد أصدقائه تارة أخرى..شعر بخوفي فحاول أن يهدئني وهو يخبرني أنه لن يجبرني أحدٌ في هذا العالم على فعل شيء لا أريده؛ فلا داعي لخوفي، وشعرتُ بالراحة بعد جلستي معه..

رجعتُ إلى البيت بعدها، لم أستطع حضور محاضرات هذا اليوم، فكرتُ كثيرًا حتى اتخذتُ قراري واتصلت بعمر الساعة السادسة مساءً وأخبرته أنني أريد اعتناق الإسلام..

لم أنس سعادته وقتها، وتكبيره وحمده لله كثيرًا، وأخبرني أنه كلما رأى حسن خلقي وطيب سريرتي كان يدعو الله لي أن يكمل هذا بإسلامي

حتى استجاب الله دعوته، وأعطاني عنوان أحد المساجد القريبة من بيته، وقال إنه سيكون بانتظاري..

خرجتُ من البيت، وأخذتُ طريقي إليه حتى وصلتُ إلى هناك، اقتربتُ من باب المسجد فشعرتُ بضربات قلبي تتزايد، وألقى الموقف هيبته في نفسي..

رآني عمر من الداخل فدعاني للدخول، خلعتُ حذائي، ووطأتُ بقدمي أرض المسجد لأول مرة في حياتي، استقبلني عمر وأخذني لجمع من الناس يجلسون بإحدى الزوايا، كانوا أصدقاءنا المقربين وعددًا صغيرًا من المصلين في انتظار الصلاة..

جلستُ أمام عمر، وقد بدأ صوتُ أنفاسي يتصاعد، بدأ عمر بحمد الله وشكره، وسألني إذا كنت ما أزال متأكدًا من قراري، فأجبته بنعم..

قال الشهادتين ببطء ورددتهما وراءه بصوت مرتجفٍ باكٍ من فرط شعوري الذي أحسستُ به في تلك اللحظة..

كَبَّرَ جميع الحاضرين وتقدموا نحوي وهم يسلمون عليّ ويحتضنونني ويهنئونني بدخولي الإسلام، أخذني عمر بعدها إلى بيت أحد أصدقائه القريب من المسجد الذي كان يعيش به بمفرده؛ لأغتسل وأتوضأ..

رجعنا إلى المسجد ثانية وقد أذن العشاء، ووقفتُ بجانبهم في الصف، وأقمتُ أول صلاة في حياتي، لم أكن أحفظ الفاتحة أو أي شيء من القرآن بعد، ولكنني كنت أعرف ترتيب الصلاة..

كنتُ أريد أن أصلي معهم.. أن أشعر بهذا الإحساس مثلهم..

رجعتُ إلى بيتي ذلك اليوم إنسانًا آخر.. ازدحم صدري بالمشاعر المتخبطة، ففي يومين فقط تبدلتْ حياتي كلها..

ولكن أكثر شعور كنت أستطيع أن أميزه بين تلك المشاعر هو إحساس الأمان الذي فقدته منذ أن توفي والدي..

بدأ الإرهاق الجسدي والعقلي في الهجوم فمنذ البارحة لم أنم ولم يتوقف عقلي عن التفكير لحظة، ألقيتُ بنفسي على السرير، وغططتُ في نوم عميق..

اشتقتُ لتلك النومة الآمنة كثيرًا.. أن أنام دون أن أتذكر فقدان والدي ويثير هذا شجوني، دون أن أفكر بمواقف أمي التي تضايقني، دون أن أفكر في ضعفي..

أجمل الليالي التي تجد نفسك فيها لا تفكر في شيء سوى النوم، فتغمض عينيك وتستسلم له ببساطة؛ لتغط في نوم عميق..

دون تفكير.. دون اشتياق.. دون ذكرى قد تجعلك تذرف دمعًا..

أصعب ما كان يواجهنى بعد ذلك هو أمي، لن أستطيع إخبارها بالأمر؛ فلن تتقبله أبدًا، ومن الممكن أن يؤثر هذا على علاقتنا ويزيد من مرضها..

استشرتُ عمر في الأمر فأخبرني أنه يمكنني أن أكتم الأمر عنها حتى أستطيع إخبارها في الوقت المناسب..

بقيتُ بعدها مع عمر وأصدقائنا، وبداخلي نَهَمٌ لا ينتهي لمعرفة تعاليم الإسلام أكثر، أصلي معهم وأصوم وأفهم منهم الكثير من الأمور..

حتى أتت الاختبارات وانتهت حياتي الدراسية وهذا ما زاد الأمر صعوبة؛ فلقد أصبحتُ أجلس مع أمي أكثر الوقت.. حاولتُ أن أصلي دون أن تشعر بشيء ولكن حياتي خالية من الاطمئنان.. أصلي بشكل سريع وأحيانًا لا أستطيع الصلاة لحلول أقارب لدينا بالبيت، أو لأننا خرجنا معًا وتأخرنا بالوقت..

حاولتُ أن أحافظ على أمور ديني وقليلًا ما كنتُ أستطيع، شعرتُ بالضيق يخنقني شيئًا فشيئًا، فكرتُ وأخذتُ قراري بعد عام ونصف من تخرجي أنني سأذهب إلى عمر وأعيش بجانبه ونفتح شركة معًا للبرمجيات؛ فلقد انتقل بعد التخرج مباشرة إلى القاهرة فمجال العمل بها حيوي وكبير، كان دومًا يقدم لي هذا العرض، أنه إذا شعرتُ في أي وقت بعدم الراحة أتصل به على الفور وهو سيتصرف في الأمر..

حاولتُ الاتصال به مرارًا وتكرارًا لكن هاتفه دومًا مغلقٌ.. لا أعرف أين اختفى؟ ولا أعرف له أية وسيلة اتصال أخرى غير هاتفه..

آخر مرة تحدثنا معًا كانت قبل إغلاق هاتفه بأسبوعين ولم يخبرني أنه سيسافر أو سيقوم بتغيير الرقم..

جلستُ مع نفسي وأنا أعتصر ذاكرتي وأستدعي عنوانه.. أتذكر أنه ذكره أمامي مرة أثناء حديثنا وهو يعطيه لأحد أصدقائه بالخارج على شبكة الإنترنت؛ ليرسل له شيئًا عبر شركات الشحن.. استطاعت ذاكرتي أن تسعفني بالمنطقة واسم الشارع.. أخبرتُ أمي أنني اتخذتُ قرارًا بفتح شركة مع أحد

أصدقائي، وهذا الأمر يُوجب أن أكون بجانبه حتى تستطيع الشركة أن تقف على قدميها في وقت قصير.. استنكرتْ تمامًا حينها ورفضتْ ابتعادي.. أخذتُ أيامًا بعدها في محاولات عدة لإقناعها أنني كبرت ويجب أن أشق طريقي بالحياة وحدي وطمأنتها أنني سأكون على اتصال دائم بها، وسآتي إليها كل فترة حتى وافقتْ أخيرًا على مضض، حزمتُ حقائبي وخرجتُ باكرًا متخذًا طريقي إليه، وبداخلي فرحٌ وشوقٌ كبيرٌ لحياتي الجديدة..

نجحتُ في الوصول إلى منطقته في نهاية الأمر بعد أن تخبطتُ قليلًا بين المناطق والطرق، وسألتُ عنه فوجدتُ جميع أهل منطقته يعرفونه على الفور، وتعجبتُ من سؤالهم:

- «هل تريد منه مالًا أو أي شيء؟»

قلتُ:

- «لا.. أريد أن تدلوني على بيته فقط وسأذهب إليه»

ظهر الحزن على وجوههم، وقال واحدٌ منهم:

- «لن تستطيع»

سألتُ مستغربًا:

- «ولماذا؟»

- «لقد توفي في حادث منذ عشرة أيام»

تسمرتُ في مكاني من مفاجأة الخبر، فلم أكن أتوقع أن يكون هذا سبب

اختفائه، وجدتُ باب مسجد أمامي فهرولت إليه واتخذتُ جانبًا، وبدأتُ في البكاء، كان عمر من أقرب الناس إليّ، حتى إن كنا نتواصل على فترات متباعدة لكن مجرد شعوري بوجوده أو أنني إذا قمتُ بمهاتفته بأي وقت سأجده يمنحني الاطمئنان، شعرتُ بحزن كبير عليه، وبقيتُ بالمسجد محتارًا في أمري لا أدري ماذا أفعل.. فكرتُ في الاتصال بأصدقائنا والذهاب إلى أي واحد منهم.. فلقد انتقل بعضهم إلى القاهرة أيضًا، لكن علاقتي بهم جميعًا ليست بتلك القوة التي تسمح لي بالمكوث عندهم كما أنني لا أعلم هل ظروفهم مهيأة لاستقبالي أم لا، فكرتُ في الرجوع إلى أمي مرة أخرى ولكن لا أريد هذا؟..

ظلت الحيرة تعصف بي وما أنقذني حينها إلا عرض عم عثمان حارس المسجد بعدما لاحظ بكائي وحزني، وهو أنه يمكنني أن أبقى بالمسجد إذا أردتُ، فأرتب أوراقي وأنظر ماذا أفعل..

مَرَّ أسبوع وأنا على هذا الحال لا جديد يطرأ ولا أعرف أي قرار يجب أن أتخذ، وزاد الأمر على نفسي عندما أخبرني عم عثمان أنه يجب أن أرحل غدًا، شعرتُ أنه لا يوجد حلٌّ أمامي غير الرجوع مرة أخرى إلى أمي، وعزمتُ على العودة حتى وجدتُ عم طارق يدخل من باب المسجد ويخبرني أنه سمع حوار عم عثمان اليوم ويعرض عليّ الاستضافة في بيته.. أحببتُ عم طارق كثيرًا وأحببتُ عائلته..خالة مديحة وآسر وحنين.. حنين التي تعلق قلبي بها مرة بعد مرة في كل صدفة رأيتها فيها..

لم أتذكر أنني رأيتُ تفاصيل وجهها في أية مرة كنت أصادفها، ولكنَّ خلقَها وحياءَها يعطيها هالة من الجمال تجذب أي شخص إليها..

كان يضيق صدري عندما أفكر في وحدتي وحياتي وما صارت عليه فتأتي هالتها أمامي فتخفف ما بي وتزيل الوحشة وتُذهب الوحدة..

صليتُ استخارة، واتخذتُ قرار التقدم إليها والبحث عن أهلها؛ سعدتُ كثيرًا عندما أخبرني إمام المسجد أنها ابنة عم طارق..

هممتُ إليهم لطلب يدها، وكلي خوف وأمل ضعيف أن توافق أو يوافق أهلها على شخص بمثل ظروفي..

وكانت المفاجأة.. أخبرني عم طارق بالموافقة بعد عدة أيام..

ازددتُ حبًّا لتلك العائلة بأكملها ولحنين بشكل خاص..

كانوا يعلمون بظروفي ويتقبلونها ويخففون عني.. اشترينا خواتم الخطبة وحددنا موعدها، كل شيء كان في البداية رائعًا، صارت الأمور كلها بشكل جيد حتى أتاني ذلك الاتصال عصرًا أول أيام العيد قبل خطبتنا بيومين، اتصال من الطبيب المسئول عن حالة أمي يخبرني فيه بأن حالتها تطورت فجأة وساءت كثيرًا وأنها ترفض الذهاب إلى المشفى ويجب أن أكون بجانبها في هذا الوقت، تركتُ كل ما في يدي وقتها، وأخذتُ أول طريق للذهاب إلى بيتنا..

أتذكر عندما رأتني كيف انفجرت في البكاء وهي تحتضنني وتحمد الله أنها استطاعت رؤيتي قبل أن تموت، وتعاتبني بمرارة على غيابي كل

هذا الوقت حتى إن كنت على اتصال بها بالهاتف فهذا لا يغنني عن رؤيتها..

تأثرتُ جدًّا بدموعها وكلامها، وشعرتُ بتأنيب الضمير.. نعم كنت على اتصال بها طوال فترة بعدي عنها، ولكن كان يجب أن أزورها بين الحين والآخر، أن أبقى بجانبها وقت مرضها المفاجئ، ألا أتركها هكذا وحيدة تستعين بالغرباء لمساعدتها وابنها على قيد الحياة..

جلستُ بجانبها تلك الليلة، وأنا أرعاها، وأضاحكها؛ كي أخفف عنها غيابي حتى أخبرتها أنني سأذهب غدًا صباحًا وسآتي لزيارتها في أقرب وقت بالتأكيد لكنها تشبثتْ بي وأقسمتْ أنها لن تتركني أبدًا وبدأتْ في البكاء..

صَعَّبَ هذا موقفي، فيجب أن أذهب فالخطبة بعد غد.. فكرتُ أن أخبرها بالأمر كله، لكنني شعرتُ أن الوقت غير مناسب لهذا الآن؛ فلو قلت لها سيزيد هذا من مرضها حتمًا، ولو علمت أن خطبتي بعد يومين من الممكن أن تتوفى حزنًا لإحساسها أنها آخر من يعلم بأمر زواج ابنها الوحيد..

أخبرتها أن هناك أمرًا ضروريًّا ولا أستطيع الغياب عنه، وسآتي لزيارتها ثانية بعد يومين، اقتنعت قليلًا بعد أن أخذت مني قسمًا بهذا..

نمت ليلتها بغرفتي، واستلقيت على سريري، وأنا أحمد الله أنني نجحتُ في إقناع أمي أخيرًا بالذهاب واستسلمتُ للنوم وأنا أتخيل مراسم الخطبة غدًا ووجه حنين الملائكي وهي بجانبي وتبتسم لي..

قلقتُ من نومي على صوت حركة ما بالغرفة فمددتُ يدي وأشعلتُ

الأباجورة المجاورة لسريري، فوجدتُ أمي بالقرب من المشجب، وبنطالي ومحفظتي ملقيان على الأرض، وقد اتسعتْ عيناها من المفاجأة وهي تنظر إلى مصحفي الصغير وبطاقتي الشخصية..

جلستُ على سريري ببطء وأنا أنظر إليها وأبتلع ريقي.. أشارت لي بيدها سائلة:

- «ما هذا؟ ماذا يفعل هذا بجيبك؟ وما هذا الاسم المكتوب في البطاقة؟ كنتُ سأظنها بطاقة شخص آخر لولا أنني رأيتُ صورتك»

اتجهتُ بعيني إلى الأرض ولم أتكلم..

تابعتْ بترقب:

- «منذ أن رأيتك وأنا أشعر أن بك شيئًا ما مختلفًا خاصة بعد إصرارك على الذهاب غدًا مما دفعني إلى التفتيش وراءك»

ثم قالتْ بحزم:

- «أخبرني الآن ماذا كان يحدث وراء ظهري طوال الفترة السابقة ولا أعلمه»

تحركتُ نحوها وقلتُ بهدوء:

- «حسنًا سأشرح لكِ كل شيء يا أمي وأفهمك الأمر»

جذبتُها من يدها وما زالت علامات التساؤل على وجهها، وأجلستُها بجانبي على السرير، وبدأتُ أقص كل شيء عليها..

كنتُ أعلم أنها ستغضب كثيرًا عند سماع ما مررت به جملة واحدة، ولكن

بعدها ستهدأ بالتأكيد عندما ترى راحتي في هذه الحياة وتسعد لسعادة ابنها؛ فهي أم بالنهاية تتمنى راحة ولدها وما يُفرحه يُفرحها.. كما أن موضوع حنين سيسعدها، فكثيرًا ما كانت تلح عليّ في موضوع الارتباط وتأتي لي بالفتيات وتخبرني عن أمنيتها التي ترجوها قبل مماتها وهي أن تحمل أبنائي وأن تكبر عائلتنا..

أخبرتُها جميع ما حدث في حياتي مؤخرًا.. عن عمر، وفترة الكلية، وكيف تغيرتْ حياتي، وعن إسلامي، وعم طارق، وحنين وتعلقي بها..

كانت المفاجأة تتملكها وهي فاغرة فاها مما أقوله لها حتى انتهيتُ، فقامتْ وهي تصيح وتنعتني بالمجنون الأبله وأنني بالتأكيد فقدتُ صوابي لأفعل هذا، حاولتُ أن أهدئها لكنها لم تكن تسمعني، صمتتْ برهة تفكر، ثم قالت بغضب:

- «هذه الفتاة.. هذه الفتاة هي السبب وأهلها.. من المؤكد أنهم علموا بميراثك الكبير من أبيك لذلك أوقعوك في شباكهم»

قلتُ وأنا أنفي بشدة:

- «لا يا أمي، لا علاقة لهم بما فعلت.. هم لا يعلمون أي شيء عن أموالنا، عندما خرجتُ من هنا لم آخذ شيئًا من أموال أبي؛ لأنني أردتُ الاعتماد على نفسي، واستضافوني في بيتهم حتى وجدتُ عملًا يدر لي المال، ولم يسألوني يومًا عن أموال أبي بالعكس هم يظنوني فقيرًا، وهذا من ضمن أسباب احترامي لهم»

اتجهتْ خارجًا وهي تضرب بيدها على صدرها وتدعو على من لعب

بعقل ابنها الوحيد، ذهبتُ وراءها وحاولتُ أن أفهمها الأمر جيدًا ولكن ما من جدوى.. شعرتُ أنه من الأفضل أن أنصرف من أمامها الآن حتى تهدأ..

مرت ثلاث ساعات وأنا بغرفتي أنتظر نور الصباح؛ لأعود من حيث أتيت، وقررت أنني سآتي لأمي بعد عدة أيام، وحينها ستكون قد هدأت وتقبلت الأمر، تناولتُ بعض الأشياء التي أحتاجها من غرفتي، ووضعتها بإحدى الحقائب وحملتها وتحركت بخفة حتى لا تعلم أمي بذهابي فلو رأتني لن تدعني أذهب وستظل تصيح وتصرخ، فتحتُ باب غرفتي بهدوء لكنني تسمرتْ في مكاني من المفاجأة، وجدتُ خالي مراد جالسًا على الأريكة الموازية لباب غرفتي وأمي بجانبه وكأنه في انتظاري..

قام من مكانه وهو ينظر إليّ بحزم دون أن ينطق كلمة، اقتربتْ أمي مني وربتتْ على كتفي قائلة:

- «اتصلتُ بخالك مراد؛ كي يأتي ويجلس معك ويعقلك»

شعرتُ بضيق شديد في صدري مما فعلت أمي، لماذا أخبرت خالي مراد؟ لماذا؟!.. لم أتقبله في حياتي يومًا فهو شديد الطباع، غليظ الكلام، فظ، ومتسلط.. لا يقتنع إلا بآرائه.. فكرة العقاب التأديبي لا تغادر رأسه.. أتذكر حثه لأمي على ضربي وعقابي عندما كنت طفلًا صغيرًا وأفعل مثلما يفعل جميع الأطفال.. انصاعت أمي لكلامه فترة فهي ضعيفة أمامه ويستطيع إقناعها بما يريد بسهولة، وكانت تعاقبني بقسوة لولا أن أبي نهاها عن ذلك تمامًا..

قال خالي بصوته الأجش:

- «ستأتي معي الآن أنت ووالدتك وستنتقلان للعيش بفيلَّتي.. وسنتناقش هناك»

نظرتُ بغضب إلى أمي، ثم اتجهتُ إليه قائلًا:

- «ولكن يا خالي لا أريد أن أنتقل للعيش هناك»

قال:

- «أخذنا هذا القرار أنا وأمك ولا رجعة فيه، تركناك لقراراتك فترة طويلة وانظر إلى النتيجة.. انصياع لأية كلمة تقال لك ولهث وراء فتاة لا نعلم أصلها من فصلها»

صعدت الدماء إلى رأسي عند سماع جملته الأخيرة وقلتُ منفعلًا:

- «هذه الفتاة وأهلها مِنْ أحسن مَنْ عرفتهم بحياتي»

قال:

- «هم سبب غيابك وتغيرك إذًا كما أخبرتني والدتك؟»

قلتُ نافيًا بقوة:

- «لا.. أخبرتها مرارًا وتكرارًا أنه ليس هم.. ليس هم»

- «عامة ما أقوله الآن ليس قرارًا اختياريًّا أمامك بل أمر ستنفذه شئت أم أبيت، لن نتركك ثانية وحدك.. انس كل ما مضى، وانس أمر تلك الفتاة وستبدأ حياة جديدة معنا، من الواضح أن وفاة والدك خلفتْ

وراءها حرمانًا عاطفيًّا بداخلك جعل كل من أمامك يستغل هذه النقطة بك، ونحن أخطأنا أننا لم نفهم هذا الأمر، وسنصلحه الآن وسنحاوطك ونكون بجانبك»

قالت أمي:

- «اسمع كلام خالك يا بني فهو يريد مصلحتنا جميعًا»

- «ولكن يا أمي ...»

قاطعني بصوتٍ عالٍ:

- «لا يوجد لكن.. ستأتي معنا الآن»

ثم قال مهددًا وهو يشير إليّ بسبباته:

- «ولا تجعل الأمر يأخذ منحنى آخر بعنادك.. إذا صممت على الذهاب سأتبعك وأصعد الموضوع وأورطهم بمشكلة لن يستطيعوا الخروج منها»

شعرتُ بالخوف بعد سماع جملته؛ فتسلط خالي وشعوره أنني خرجتُ عن طاعة أوامره قد يدفعه ذلك لفعل أي شيء..

قلت راجيًا:

- «لا.. أرجوك يا خالي دعهم وشأنهم.. سأفعل ما تريد ولكن لا تؤذهم وتسبب لهم المشاكل؛ فهم لم يؤذوني قط»

صمت برهة وتابع:

- «إنْ كنت تحب هذه الفتاة حقًّا انس أمرها..لأننا لن نوافق عن هذه الزيجة، وسنفعل أي شيء للوقوف أمامها وأمام ما تفعله حتى ترجع إلى صوابك»

نظرتُ إلى الأرض وأنا أشعر ببركان من الغضب يغلي بداخلي..

نظر إلينا وقال:

- «هيا السائق بانتظارنا بالخارج»

قالت أمي:

- «سأحضر بعض الأشياء الخاصة بي وآتي»

نظر إليّ وقال:

- «هيا، نحن للسيارة حتى تأتي أمك»

ذهبتُ معه إلى السيارة وأنا أشعر بالقهر والعجز، جلستُ في الأريكة الخلفية، وأخرجتُ هاتفي ببطء، وأغلقتُ حسابي على موقع الـFacebook، وقمتُ بإعادة ضبط إعدادات الهاتف؛ ليرجع جديدًا كما كان وتُمحى جميع بياناته.. فبالتأكيد سيأخذه خالي مني ولا أريد أن يكون وسيلة للوصول لعم طارق وأسرته..

نظر إليّ خالي بعد دقائق وكأنه تذكر شيئًا، ثم مد يده لي قائلًا:

- «أعطني هاتفك»

أعطيته إياه بعد أن استراح قلبي أنني محوت كل شيء، جاءت أمي وانضمت إلينا في السيارة وانطلقنا..

ظللتُ طوال الطريق أفكر في حنين، وكيف أن الأمور صارت بهذا الشكل بعد أن كان كلُّ شيء مُعَدًّا ورائعًا..

وصلنا إلى فيلا خالي المُحاطة بسورٍ عالٍ وتبدو عليها الفخامة، أمامها حارسان ضخما الجثة، وكلبٌ أسود شرس مدرب لمهاجمة اللصوص.. فُتحت بوابتها، وتابعنا التحرك بالسيارة إلى الداخل.. شعرتُ وأنا أتجه داخلها أنني متجه لسجن كبير؛ لأقضي به فترة عقوبتي التي لا أعلم متى ستنقضي..

أعطاني خالي أنا وأمي إحدى الغرف الكبيرة بطابق الغرف وكان يتعمد وجود أمي معي بالغرفة نفسها حتى تراقبني طوال الوقت، سحب مني كل شيء يمكنني التواصل من خلاله بالعالم الخارجي من باب التأديب، فلا هاتف، ولا حاسوب، ومسموح لي الخروج برفقتهم فقط حتى بعدما أظهرتُ له أنني اقتنعتُ بكلامه ورجعتُ عن قراراتي كلها..

كانت تطلب منه أمي أحيانًا الرجوع إلى بيتنا فهي تلاحظ أنني تحسنتُ كثيرًا، ونسيتُ كل ما كنت عليه، ونسيتُ أمر تلك الفتاة، فيخبرها أنه ما زال لا يطمئن لي بعد، ويجب أن أبقى تحت عينيه..

مرت الشهور ثقيلة على قلبي، شعرتُ بمرور كل دقيقة فيها ولم تغب حنين عن تفكيري خلالها، أتذكر كل شيء.. كلامنا.. مواقفنا، وجلساتنا معًا.. أتذكر عم طارق وخالة مديحة وآسر.. أحسستُ بالوحشة كثيرًا بعد أن فقدتُ ذلك الدفء الجميل الذي كنتُ أشعر به وأنا بينهم.. صرتُ وحيدًا حزينًا منعزلًا كما كنتُ..

كانت أمي حزينة لرؤيتي هكذا، ولكنها كانت تقول لي إن هذا كله من أجل مصلحتي، حتي وجدتُها ذات يوم تدخل إلى الغرفة، وقد تهللتْ أساريرها قائلة:

- «سيذهب حزنك من اليوم يا حبيبي»

قمتُ وقد ملأ الأمل قلبي أننا سنخرج من هنا، قلتُ بشغف:

- «كيف؟»

تابعتْ قائلة:

- «وعد ابنة خالك قادمة اليوم من أمريكا بعد انتهاء دراستها»

نظرتُ إليها مستغربًا، وقلتُ:

- «وما علاقتي بهذا؟!»

قالت متحمسة وهي تبتسم:

- «علاقتك أنك شابٌّ لا ينقصك شيءٌ، وهي فتاة لا مثيل لها، فلماذا لا تتزوجها ويذهب حزنك وتجد مَنْ يؤنسك»

أشحتُ بوجهي بعيدًا بعد أن أصابتني خيبة الأمل، وأنا أقول:

- «أمي أرجوكِ لا تورطيني بأي شيء، وانسي هذا الأمر تمامًا»

قالت مستنكرة:

- «ولماذا أنساه؟! لن أدع تلك الفرصة تفلت من بين أيدينا.. فتاة جميلة ومتعلمة ومثقفة»

ثم أخفضتْ صوتها وتابعتْ:

- «كما أنها سترث كل هذا بمفردها، وإِنْ تزوجتها سيكون هذا لك أيها الأبله.. لا تكن أحمقًا..أنا أفكر بمصلحتك»

قلتُ بتأفف:

- «مصلحتي.. مصلحتي.. مللتُ من تلك الكلمة»

غادرتْ الغرفة وهي تقول بسعادة:

- «نعم مصلحتك.. سأرتب الأمر أنا وخالك.. فهو الآخر يتمنى ذلك.. وسنتمه»

شعرتُ بداخلي بالحنق الشديد؛ لما تفعله أمي، أصبح بها الكثير من طباع خالي المتسلطة..

أكثر ما أندم عليه أنني بُحتُ لها بأمري.. لا أعرف أين كان عقلي حينها لأفعل ذلك..

جاءت وعد ليلتها، ولم أخرج للسلام عليها، غضبت أمي لفعلي وعاتبتني بقسوة، ولكن لم ألق بالًا لعتابها.. التقيتها صدفة على الغداء ثاني يوم من مجيئها..

فتحت أمي وخالي كعادتهما الكثير من المواضيع التي يقولان فيها آراءهما الغريبة، وكنتُ ألتزم الصمت خلال حديثهما حتى لا أشترك معهما بأي نقاش قد يجلب عراكًا، فأنا أعد الأيام؛ كي أخرج من هنا ولا أريد أن أثير غضب خالي..

لكن وعد هذا اليوم ظلت تناقشهما وتعبر عن رأيها وتخبرهما أنهما يجب أن يغيرا مفاهيمهما العقيمة تلك، كانت صريحة وجريئة، وتعبر عن رأيها ورغبتها بمنتهى القوة، أعجبني هذا كثيرًا فأصبحت أشترك معها في اعتراضها على بعض الأمور، ويعلو صوتي قليلًا بعد شهور كثيرة من انعدامه..

ولم تكن أمي أو خالي يعترضان بل بالعكس كان يُفرحهما هذا الأمر؛ لأن هذا يدل على اتفاق تفكيرنا وشخصيتنا أنا ووعد..

لم يكن يخفى علينا حركاتهما المصطنعة من أجل التقريب بيننا.. كأن يجعلا مقاعدنا على المائدة بجانب بعضها البعض، أو يتناولان العشاء مبكرًا فنتعشى أنا وهي بمفردنا، ولكننا كنا لا نلقي بالًا لهذه الأمور ولا نهتم بها..

أتذكر عندما مررتُ يومًا بجانب مكتب خالي وسمعتُ صوته هو ووعد عاليًا، وهما يتناقشان في أمر ما.. قالت وعد بشكل حازم:

- «انسَ هذا الأمر يا أبي لن تجبرني على شيء لا أريده.. أو أن أتزوج إنسانًا لا أحبه»

فصاح خالي:

- «أنا أعرف مصلحتك هذا أنسب شخص لكِ»

- «وأنا أيضًا أعرف مصلحتي، وأعرف أنه ليس الشخص المناسب لي»

قال منفعلًا:

- «صرتِ عنيدة.. الدراسة بهذه البلاد علمتك التمرد، هذا خطأي من البداية أنني وافقت على ذهابك»

خرجتْ من الغرفة بعد هذه الجملة وهي غاضبة، وأغلقتْ الباب وراءها بقوة، رفعت رأسها لأعلى فوجدتني واقفًا أمامها، فنظرت إليّ بغضب، ثم انصرفت..

شعرتُ بالسعادة بعد سماع عراكهما فهي الأخرى لا توافق على فكرتهما بأمر الزواج، وهذا سيعزز موقفي أكثر..

تجنبتنا وعد بشكل كبير بعد هذه المناقشة وتجنبتني أنا بشكل خاص وساعدتها في ذلك.. صرتُ أتحاشى مقابلتها، ولم يكن هذا يعجب خالي وأمي بالتأكيد.. كلما حدثتني أمي في الأمر بعدها ألقي بالكرة في ملعب وعد قائلًا:

- «يا أمي كيف أرتبط بفتاة لا تتقبلني.. هذا ضد رجولتي»

فتصمت وتذهب لخالي تخبره أن يجلس مع وعد لإقناعها؛ لأنني محق فيما أقول مما يجعل خالي يختلي بوعد في مكتبه لمدد طويلة لمحاورتها حتى ينتهي الأمر كالعادة بصوتهما العالي، وانسحاب وعد من المناقشة..

حتى تلك الليلة التي احتل فيها الأرق رأسي وأذهب النوم عني فقررت أن أتمشى قليلًا خارج غرفتي، تمشيتُ بذلك الرواق الطويل وأنا أطل بعيني إلى الأسفل إلى تلك النافورة التي تتوسط مدخل البيت.. توقفتُ

مكاني متفاجئًا وأنا أشاهد وعد وهي تحمل حقيبتها وتنتقل بخطوات خفيفة؛ خشية أن تحدث إزعاجًا حتى خرجت من باب البيت، نزلتُ سريعًا على الدرج لأتبعها وأعرف ماذا تفعل، مشيتْ حتى وصلت إلى آخر حديقة الفيلا، وأزاحتْ بعض الحشائش من الأرض، وانحنتْ لفعل شيء ما، ثم وقفتْ وهي تسحب ذلك الغطاء الحديدي وتهم بالنزول.. تقدمتُ سريعًا وأوقفتها.. تفاجأتْ عند رؤيتي وزفرتْ بضيق..

سألتُها مستغربًا:

- «ماذا تفعلين؟»

قالتْ:

- «سأعود من حيث أتيت»

- «أمريكا؟!»

- «نعم»

- «ولماذا؟»

- «لن أبقى هنا حتى يصبح أمر هذا الزواج واقعًا وأتفاجأ ذات يوم بخبر من أبي أن الزفاف غدًا»

- «لن يحدث هذا»

قالت مستنكرة:

- «وما أدراك؟»

أجبتُ مؤكدًا:

- «لأننا لن نسمح بذلك»

- «نسمح!! لو كان الأمر بأيدينا لتركوك تعيش حياتك كيفما تشاء وتذهب إلى حبيبتك»

اجتاح الضيق صدري دفعة واحدة بعد جملتها الأخيرة..

تابعتْ:

- «عرفتُ كل ما فعلوه معك.. ولكنني لن أستسلم مثلك.. لن أدع حياتي يتحكمون بها كيفما شاءوا»

قلتُ بغضبٍ:

- «وهل الهروب من أمام المشكلة هو الحل؟»

قالت:

- «إِنْ كان خيار المواجهة لن يجدي.. فالهروب أحد أوجه المواجهة»

ثم نظرتْ إليّ بضيق قائلة:

- «أنت لا تفضل الهروب ولكن تفضل العيش بهذه الطريقة السخيفة التي تعيش بها.. أليس كذلك؟!! محبوس في بيت كبير مثل هذا لا تستطيع أن تأخذ قرارًا واحدًا.. تخليتَ عن حياتك وحبيبتك هكذا بمنتهى السهولة»

قلتُ منفعلًا:

- «لم أتخلَّ عنها ولكنَّ أباكِ هددني أنه سيورطها في مشاكل هي وأهلها»

قالت وهي ترمقني متأففة:

- «لم تكن تحبها»

أجبتُ بقوة:

- «أحبها جدًّا وإلى الآن لم تغب عن بالي لحظة»

نظرتْ إليّ وقالت غاضبة:

- «لو كنت تحبها لقاتلتَ من أجلها»

أوجعتني جملتها، ووضعتني في مواجهة حقيقية أمام نفسي..

تابعتْ:

- «لم يكن يستطيع الاقتراب منهم إِنْ وجدك قويًّا متمسكًا بما تفعل لكنك ظهرت أمامه ضعيفًا خائفًا»

أشحت بنظري بعيدًا.. صمتتْ برهة وزادتْ:

- «صدقني إِنْ وقفتَ أمامه وشعر بقوتك لن يقترب منك ثانية.. تمرد على ما أنت فيه لا تكن سلبيًّا بهذه الطريقة»

ثم أكملت:

- «أنا غير مقتنعة بما قمت به ولكنني أؤمن بحق كل إنسان في اختيار الحياة التي يريدها بجوار مَنْ يحبهم.. فلماذا فَرَّطتَ في حقك؟»

نظرتْ إلى الغطاء الحديدي وقالت:

- «هذا المخرج لا يعلم أحد عنه شيئًا، كنا نستخدمه ونحن صغار للاختباء أنا وأصدقائي.. وبعدما كبرت تجمعت عليه الحشائش ونسي الجميع أمره.. أتمنى أن تكون أنت التالي الذي يخرج منه»

قالت وهي تنزل من خلاله:

- «طائرتي غدًا صباحًا.. لا أعلم متى سأعود.. أتمنى أنا أراك على خير.. أو لا أراك إطلاقًا وتكون بحياتك مستمتعًا بجوار حبيبتك.. سلام»

نزلت ببطء حتى استقرت على الأرض، واتجهت يمينًا واختفت.. وضعتُ الغطاء الحديدي فوق الفوهة ثانية، ووضعتُ فوقه الحشائش..

رجعتُ إلى غرفتي ولم أستطع النوم بقية تلك الليلة، ظل كلامها يتردد صداه داخل عقلي.. شعرتُ بالخزي من نفسي.. هي فتاة واستطاعت أن تفعل ما لم أقدر على فعله.. لماذا استسلمتُ لهما كل هذه المدة بهذه الطريقة.. لماذا لم أقف أمام خالي حينها، لو شعر بإصراري لما استطاع أن يمنعني من الذهاب، أو أن يؤذي حنين وأسرتها، لكنني كنتُ ضعيفًا أمام تهديده، وانسحبت من أول جولة..

ظهر نور الصباح واستيقظ الجميع وأنا بسريري لم أنم بعد.. خرجتُ من غرفتي متجهًا لغرفة الطعام، كان خالي وأمي يجلسان ويتناولان فطورهما.. انضممتُ إليهما بعد أن ألقيتُ تحية الصباح..

قال خالي لإحدى الخادمات:

- «اذهبي إلى السيدة وعد وأيقظيها للفطور»

ذهبت الخادمة ورجعت بعد دقائق لتخبر خالي أن وعد ليست بغرفتها.. أمرها أن تذهب لحديقة الفيلا وتناديها؛ فأحيانا تمارس الرياضة في هذا الوقت..

كنتُ أترقب ماذا سيفعل عند اكتشافه ذهاب وعد.. حتى جاءت الخادمة مرة أخرى وأخبرته أنها لا تجد وعد بأي مكان..

بدأ التوتر يتسلل إلى خالي، فنادى جميع الخدم وأمرهم بالبحث عن وعد، وكانت الإجابة واحدة «غير موجودة».. التقط خالي هاتفه وأجرى اتصالًا بأصابع متوترة.. قال وهو يغالب خوفه:

- «أين أنتِ؟»

ثم صاح:

- «ماذا تقولين؟!! هل جننتِ؟!! ارجعي حالًا.. ارجعي حالًا يا وعد.. وعد.. وعد»

أجرى الاتصال مرة أخرى.. أنزله من على أذنه وهو يلقي هاتفه غاضبًا:

- «أغلقت هاتفها»

- «ماذا يحدث؟» سألت أمي..

قال بغضب:

- «وعد بالمطار الآن عائدة إلى أمريكا»

- «ماذا تقول؟! ولماذا؟»

- «لإلحاحي عليها في أمر الزواج»

أشاحت أمي بوجهها بعيدًا قائلة:

- «أف لهذه التربية.. فتاة طائشة عنيدة تمشي وراء قراراتها ولا تعرف مصلحتها»

قلت بصوت غاضب:

- «وهل تسميان تسلطكما مصلحة؟!!»

انتبها على جملتي، وقال خالي مستغربًا:

- «ماذا تقول؟!»

قلت منفعلًا:

- «أنتما تتحكمان بحياة الآخرين من باب المصلحة، وما هي إلا استجابة لرغبة التسلط بداخلكما ليكون الجميع تحت إمرتكما وتحركاهم كالدمى»

قمت وأنا أتابع:

- «تركتكما تتحكمان بحياتي وتحبساني بهذا السجن واستسلمت لكما.. كل ما فعلته وعد الآن كان يجب أن أفعله منذ زمن»

قال خالي:

- «ماذا تقصد؟»

نظرت إليه بغضب:

- «أقصد أنني لن أستسلم ثانية ولن أسمح لكما بالتحكم في حياتي وسأخرج من هذا السجن»

نظرت إليّ أمي برجاء، وقالت خائفة:

- «اهدأ يا بني أرجوك.. لا تجعل الانفعال يأخذك ويخرجك عن صوابك»

نظرت إليها:

- «خرجتُ عن صوابي عندما قررتُ أن أحكي لكِ عمَّا فعلتُه بحياتي.. تخيلتُكِ ستفرحين عندما تجديني سعيدًا ولكنك خذلتِني»

نظرتْ إلى الأرض بمرارة ممزوجة بحزن.. تركتُهما وصعدتُ إلى الغرفة جمعتُ بعض الأشياء بحقيبتي، ونزلتُ مرة أخرى متجهًا إليهما قائلًا بحزم:

- «سأخرج من هذا الباب الآن، وسأعيش حياتي كما أريدها»

ثم نظرتُ إلى خالي وقلتُ بتوعد:

- «وإِنْ علمتُ يومًا أنك تحاول إيذاء أي أحد أعرفه سأقف أمامك بكل قوة وأحاربك حتى أموت»

أدرتُ ظهري لهما متجهًا إلى باب البيت.. جرى اثنان من الحراس؛ ليمسكاني فأشار إليهما خالي بيده فابتعدا، ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- «إِنْ خرجتَ من هنا.. لن تأخذ مليمًا واحدًا من ميراث أبيك أو أمك»

التفتُّ إليه وابتسمتُ ساخرًا، وأنا أضع حقيبتي على الأرض قائلًا:

- «وخذ هذه لك أيضًا»

تابع وقد زاد غضبه:

- «وانس أن لك عائلة يومًا.. أو أن لك أمًّا»

صاحت أمي وهي تبكي:

- «لا يا مراد.. لا»

وجرت نحوي وهي تحتضنني قائلة:

- «لا تتركني يا بني أرجوك.. أعتذر عن كل ما فعلته لك ولكن لا تتركني»

ربتُّ على كتفها، وقلتُ:

- «سأكون على اتصال دائم بكِ يا أمي، وسآتي إليكِ ثانية ولكن عندما تتركين ذلك السجن وتعودين إلى البيت»

احتضنتها بقوة ثم قبلتها، واتجهت خارجًا حتى وصلتُ إلى الطريق.. لم أكن مصدقًا ما أنا فيه وأنني استطعتُ أخيرًا أن أخرج من هذا السجن.. ليس سجن خالي بل سجن نفسي أولًا.. أن أحطم جدران الخوف التي كانت تحاوطني وقيود العجز التي طالما كبلتني.. كل ما كان يلزمني أن أتحلى بالشجاعة وأقف بوجه خالي كما أخبرتني وعد.. لعنتُ غبائي وضعفي ألف مرة حينها..

أول ما خطر ببالي هو حنين، فاتخذت طريق العودة إليها وإلى عم

طارق والخالة مديحة وآسر، هيأتُ نفسي لتقبل أي فعل منهم، ولكن لن أتركها أبدًا هذه المرة، حتى إِنْ أغلقوا الأبواب في وجهي، حتي إِنْ نعتوني بأقذع الألفاظ سأصبر حتى أفوز بها..

وصلتُ إلى هناك وذهبتُ للجلوس في المسجد حتى تحين صلاة المغرب وأقابل عم طارق وأشرح له الأمر وأبدي رغبتي بالتقدم لحنين ثانية.. وجدتُ إمام المسجد يقرأ القرآن بإحدى الزوايا فذهبت إليه وسلمت عليه، فسألني أين غبت فشرحتُ له ظروفي وماذا حدث لي، وأنني آتي اليوم لإصلاح ما أفسدته من قبل، فأخبرني وخيبة الأمل بادية على وجهه أنه قد فات الأوان فحنين تمت خطبتها منذ أسبوعين لشاب يسمع عنه من الخير الكثير..

شعرتُ بوجع بالغ في قلبي حينها واجتاحني الندم، من المؤكد أنه شاب جيد؛ كي يفوز بقلبها وحبها.. ويكون تعويضًا عما عاشته من خذلاني لها..

خرجتُ من المسجد والهم جاثم على صدري، نعم كنتُ ضعيفًا، ولكنني فعلت كل هذا أولًا وأخيرًا؛ خوفًا عليهم من توريطهم بأية مشاكل..

لكن لن يشفع لي هذا الآن فلقد انتهى الأمر..

انتبهتُ من إبحاري العميق في الذاكرة على صوت أبواق السيارات التي خلفي؛ لكي أتحرك بعد تحول لون الإشارة إلى الأخضر..

ومريم تجذبني من أطراف قميصي وهي تقول:

- «هيا..هيا»

انطلقتُ سريعًا بسيارتي على الطريق، وأنا أفكر في كل ما جرى وفي ما حدث اليوم وأتساءل متعجبًا عن سبب مجيء حنين إلى هنا، وسبب عملها بالروضة، ولماذا لم تعمل في مجالها.. وهل انتقلت جميع العائلة إلى هنا أم هي وزوجها فقط؟.. لا أعلم إن كانت أنجبت أم لا؟.. وهل....

انتبهتُ فجأة وزجرتُ نفسي وأنا أحاول أن أتوقف عن التفكير.. حاولتُ أن أحدّ من ذلك الشعور المتدفق بقلبي رغمًا عني منذ رؤيتها فيجب أن أنساها تمامًا وأنسى تلك المشاعر، فليس من حقي أن أشعر تجاهها بهذا الآن..

ليس من حقي أن أقترب من زهرة جميلة وُضعت بحديقة أحدهم ليرعاها ويخفيها عن الناظرين..

ليس هذا من شيمي.. فأنا لست ممن يختلس النظر.

●●●

(21)

- «دكتورة حنين.. دكتورة حنين»

انتبهت من شرودي على صوت دكتور حسن وهو يناديني، وجدتُ أحد الأشخاص واقفًا أمام ذلك الحاجز الزجاجي الفاصل بيننا وبين الزبائن، تناولتُ الروشتة من يده وصرفتُ له العلاج المكتوب بداخلها إلا دواء واحد وقلت له:

- «هذه جميع الأدوية ما عدا هذا غير متوفر»

- «ما اسمه؟» قال دكتور حسن..

أخبرته باسمه فقال إن هذا الدواء توفر اليوم صباحًا وقام بإحضاره، أتى دكتور حسن تجاهي بعد أن انصرف الزبون سائلًا:

- «دكتورة حنين أبكِ شيءٌ اليوم؟ منذ أن جئتِ وأنتِ شاردة وأخبرتِ الزبون بعدم توفر الدواء رغم إخباري لكِ عندما أتيتِ أنه تم توافره اليوم»

قلتُ بصوت متردد:

- «ربما أشعر ببعض الإرهاق.. اليوم كان شاقًّا بالروضة وخرجتُ منها إلى هنا مباشرة»

قال:

- «يمكنك أن تذهبي وتستريحي إذا أردتِ ولن يُخصم شيءٌ من راتبك»

أومأت له برأسي موافقة وشكرته..

دكتور حسن هو صاحب الصيدلية التي أقف بها، في الأربعينيات من عمره.. يعده الجميع هنا الأب الروحي للمكان؛ فهو لا يزعج أحدًا، ولا يتدخل بشئون أحد إلا إذا طُلب منه التدخل ويستشيرونه في أمورهم لما يعرفون عنه من الحكمة، ولكنني كنتُ أتجنبه تمامًا وهذه المرة خوفًا أكثر من أي شيء آخر، ربما رسب موقف دكتور حاتم داخلي بعض العقد النفسية التي خلقت حاجزًا بيني وبين التعامل مع أي غرباء، وأظن أنها ستأخذ وقتًا حتى تزول..

التقطتُ حقيبتي واتجهتُ خارج الصيدلية، اتخذتُ جانب الطريق، وبدأتُ أمشي ببطء عاقدة ذراعي أمامي ناظرة إلى الأرض، لا أريد أن أذهب إلى البيت سريعًا.. أريد أن أتمشى قليلًا حتى يزول ما بي ولا تلاحظه أمي وتصر على معرفة ما حدث، فرؤية حمزة اليوم مفاجأة كبيرة لي، وأظن أنها كانت مفاجأة كبيرة له أيضًا؛ فلقد لاحظت ذلك في عينيه، شعرت بالاضطراب عند رؤيته وبدأتُ أتحدث وأنا أشيح ببصري بعيدًا حتى أتحكم بانفعالاتي ولا تظهر معرفتي المسبقة له أمام أستاذة هدى، أخبرتُه بشكلٍ سريعٍ أمر مريم وفي جملتين فقط:

- «مريم منطوية كثيرًا ونريد أن تتفاعل معنا ونرجو مساعدتكم لنا في ذلك»

وانسحبتُ بعدها إلى الداخل مما أثار دهشة أستاذة هدى، بقيتْ هي معه قليلًا وشرحت له بعض الأمور المتعلقة بمريم ثم ذهب، أتت بعدها وسألتني عن سبب عدم توجيه أية أسئلة له بخصوص مريم حتى أفهم ماذا بها، ولكنني عللت ذلك أنني تفاجأتُ عندما رأيت والدها وكنت أعتقد أن والدتها هي مَنْ أتت وهذا سبب تلعثمي قليلًا.. أظنها لم تقتنع بهذا الكلام فأنا أتعامل يوميًّا مع آباء أطفال يأتون ويسألون عن أحوال أولادهم، ربما شعرت أن هناك أمرًا ما ولم ترد أن تتطفل بالسؤال..

زفرتُ وأنا أتذكر ملامحه، رؤيته اليوم أثارتْ الكثير من المشاعر داخلي، وجميعها بعيدة عن الحب أو الاشتياق بل العكس.. مشاعر ممزوجة بالحنق والغضب والضيق.. تجدد الجرح بقلبي، ليس بقوة حدوثه حينها بالتأكيد ولكن ندبته الباقية أوجعتني، تذكرتُ منذ قرابة العشر سنوات عندما تركني يوم خطبتنا واختفى بعدها، أول مَنْ سبب لي جرحًا بحياتي كان هو.. ذهب وتزوج وأصبح غنيًّا كما هو ظاهر عليه الآن وأنجب فتاة أيضًا، ربما يكون تركني يومها من أجل العودة لحبه القديم.. قطبتُ حاجبي من الضيق وأنا أتمتم:

- «خائن»

ولكن لا مشكلة لعله خير فلربما رجع له حبه بعد خطبتنا أو زواجنا ووقتها كان جرحي سيصير أكبر، ولقد عوضني الله بعده بهاشم وهو أفضل منه بكثير كما كانت تخبرني أمي دومًا..

سمعت رنين هاتفي فأخرجته سريعًا فمع كل رنين يصعد من هاتفي يتجدد الأمل بداخلي أن يكون المتصل آسر، فمنذ أن رحل غاضبًا يومها من البيت لم يتصل بنا قط، ولا يعلم عنا شيئًا حتى إنه لا يعلم بانتقالنا، وجدت رقمًا غريبًا ليس مسجلًا بالهاتف فازداد الأمل بداخلي وأجبتُ مسرعة..

أتاني صوتها قائلة:

- «كيف حال الجو عندكم؟»

أجبت بفرحة:

- «رحااب.. كيف حالك؟ أفتقدك.. أين غبتِ أيتها النذلة؟.. من حوالي شهرين لم تهاتفيني وعندما كنت أقوم بالاتصال بكِ كان هاتفك دومًا مغلقًا»

- «انشغلت بكثير من الأمور حبيبتي اعذريني وقمت بتغيير رقم هاتفي»

- «لا عليكِ المهم أن تكوني بخير»

- «لكِ عندي خبران ساران»

قلت متلهفة:

- «حقًّا؟ أنا بالفعل في حاجة شديدة لسماع أي خبر سار»

قالت:

- «أي خبر تريدين أن تعرفي أولًا؟»

- «أكثرهما سرورًا»

- «حسنًا.. هل تتذكرين عندما هاتفتك وأخبرتك أن حاتم تمت تبرئته من واقعة تحرشه بي؛ لعدم كفاية ثبوت الأدلة وكان السبب في ذلك أسامة كما أن حاتم قام برشوة بعض القائمين على المحضر وانتهى الأمر؟»

- «نعم أتذكر.. وأتذكر بكاءك الشديد حينها، وكيف أنني أخبرتك ألا تجعلي اعتمادك الكلي على البشر ويكفيكِ قول «حسبنا الله ونعم الوكيل» وسترين أن الله سيأتيكِ بحقك»

- «نعم وأنا قمت بوصيتك ومنذ أيام علمت أن الله أتى لي بحقي»

قلت باستغراب:

- «وكيف؟»

قالت:

- «بعد أسبوعين من تبرئته أتت له امرأة جميلة وكعادته -كما تعلمين- حاول معها؛ فمثل هذا النوع بدلًا أن يخاف مما حدث فلا يفعل ذلك ثانية بعد أن كاد يُسجن، بل إنه بغبائه توهم أن كل مرة ستمر على خير مثل التي قبلها.. المهم أنه كان يحاول أن يصل إليها في كل مرة كانت تأتيه لمناقشة عمل بينهما ولا يفلح حتى إنه في إحدى المرات تجرأ وفعل معها مثلما فعل معي، فقامت غاضبة وذهبت متوعدة إياه، ومن حظه العاثر أنها كانت ابنة صديق حماه، فذهبت إلى أبيها واشتكت له، وذهب أبوها فاشتكى لحماه، وذهب حماه على الفور إلى ابنته لكي يفهم منها هل حاتم الوسيم

الأنيق يفعل ذلك حقًّا، وما كاد يسألها حتى انفجرت ابنته في البكاء وبدأت سرد وقائع خيانته لها مرات عدة، وأنها تعلم جيدًا أن قضية تحرشه بي صادقة ولكنه خرج منها بسبب رشوته، وكانت تصبر على كل هذا لعله يندم ويرجع، ويمنعها حبها له من تركه.. أصر أبوها بعد سماع هذه المصائب كلها على ذهابها معه وأخذها بالفعل، ثم ذهب إليه في الشركة وقام بسبه أمام الجميع، وطلب منه طلاق ابنته دون إزعاج، وأنه سيعرف كيف يأخذ حقه وحق ابنته، وسيعيده إلى الشارع مرة أخرى بعد ما جلبه منه وجعل منه رجلًا مهندمًا صاحب شركة»

- «ثم؟»

- «لا شيء.. بالفعل طلق ابنته، وفَقَدَ مصدر تمويل كبير، للشركة.. بجانب أن حماه حذر كثيرًا من الشركات من التعامل معه؛ لأن سمعته سيئة ولا يجب أن يثقوا به، وكما تعلمين أن حماه رجل أعمال كبير وكثير من شركات الأدوية تخاف من معاداته وتطمع في تمويله.. مما جعلهم يستجيبون شركة وراء شركة ويسحبون دعاياتهم من عند حاتم إلى شركات دعاية أخرى»

زادت وصوتها يملؤه النشوة:

- «ومنذ قليل أتاني خبر أنه أغلق الشركة منذ ثلاثة أيام وأصبح كما كان.. فَقَدَ كل شيء وانتهى أمره»

سألتها:

- «ألم يكن معه أموال احتياطية في رصيد الشركة؟»

قالت:

- «وهذه كانت مفاجأة أخرى، فلم يكن لديه أية أموال احتياطية، وكان يتعامل أن الأموال تأتيه باستمرار، وهو مبذر كما تعلمين ولم يكن يخطر بباله كل هذا»

أكملتْ مندهشة:

- «لا أصدق بالفعل كل ما حدث، لو حكى لي أحدهم أن هذا سيحدث له يومًا لم أكن أصدقه»

قلتُ:

- «ربك يا رحاب مطلع عليكِ وعلى ظلمك وعلى ظلم الكثير غيرك.. هذا الرجل تجبر.. كان يفعل ما يشاء غير مبالٍ.. يغازل ويتحرش ويهدد ويُرشي..كان لا بد له يومًا من سقوط؛ ليرد الله له تلك المظالم كلها ويشفي صدور المظلومين»

- «نَعم حقًّا صدقتِ، ونِعْمَ بالله»

سألتها:

- «وسيد وأسامة ماذا فعلا؟»

أجابت:

- «أسامة عندما رأى حماه وما فعله معه بالمكتب ذهب إليه في الخفاء وأخبره أنه بخدمته إذا أراد أي شيء ضد حاتم.. ثعبانه الذي كان يسمنه طوال الوقت بَخَّ سمه فيه بالنهاية»

- «وماذا فعل حماه؟»

- «استخدمه فعلًا وطلب منه أدلة ضد حاتم يهدده بها إذا حاول فعل أي شيء، وبعد ما حصل على ما يريده ألقاه خارجًا دون أن يعطي له مليمًا واحدًا أو حتى يجلب له وظيفة، وعلم حاتم بما فعله أسامة فتوعد له مما جعل أسامة يلوذ بالفرار إلى إحدى المحافظات البعيدة وما زال يبحث عن عمل ولا يجد»

ابتسمتُ ساخرة:

- «ما حدث معي نفسه حدث معه»

قالت:

- «مع الفارق بينكما بالتأكيد»

سألتها:

- «وسيد؟»

- «سيد -ما شاء الله- واضح أنه أتقن اللعبة كثيرًا.. فتح مكتبًا صغيرًا، بدأ به فكرة الدعاية نفسها ولكن على مساحة أضيق، ويعمل معه اثنان»

- «ما شاء الله فتح الله عليه.. هو شخص محترم ويستحق من الخير الكثير»

قالت:

- «وددت أن أخبرك تلك الأخبار السعيدة فور علمي بها»

- «وما الخبر الثاني؟»

تنحنحتْ قليلًا وقالتْ بصوت حيي:

- «الخبر الثاني هو أنه تمت خطبتي الأسبوع الماضي»

- «ياإاااالهي.. هذا الخبر السعيد حقًّا.. فرحتُ لكِ كثيرًا يا رحاب»

قالت بخجل:

- «الحمد لله.. أتى الأمر بشكل غريب وسريع»

- «وكيف حدث؟»

- «عندما حصلت على عمل منذ شهر ونصف.. أخذتُ عهدًا على نفسي أن أغير مبادئي بعدما حدث لي، واكتشافي أنها كانت جميعها خاطئة وأنكِ كنتِ محقة في جميع نصائحكِ لي يا حنين.. تغيرتُ كثيرًا.. لم أتحجب بعد ولكن أصبحتُ ألبس ملابس لا تصف تفاصيل جسدي ولا أبالغ بوضع الكثير من أدوات التجميل.. مجرد أشياء بسيطة.. لا أمزح مع أحد ولا أختلط كثيرًا.. كلامي كله مرتبط بالعمل فقط.. حتى جاء يوم وأتاني مازن زميلي في العمل وأخبرني أنه تعجبه أخلاقي وشخصيتي ومعاملتي

المتحفظة مع الشباب بالشركة وأنه كان ينتظر فتاة بهذه المواصفات منذ زمن ويود خطبتي، وكانت الخطبة في البيت الأسبوع الماضي بحضور بعض الأقارب..»

قلتُ بفرحة عارمة:

- «رحاب لا تعلمين حجم سعادتي بسماع كلامك هذا، بالفعل يهون على نفسي أي تعب لاقيته في الفترة الماضية.. أتم الله زواجك على خير ياحبيبتي»

- «اللهم آمين.. وأكرمك الله يا حنين أنتِ وأولادك على جميع ما فعلتِه معي»

- «اللهم آمين»

قالت:

- «الزفاف سيكون بعد ستة أشهر من الآن إن شاء الله.. ستحضرين أليس كذلك؟»

- «بلى، بالتأكيد.. كيف أفوت رؤيتك وأنتِ ترتدين ثوب زفافك الأبيض»

أغلقت رحاب الهاتف وهي تودعني على أمل أن نتحدث ثانية قريبًا؛ لتحكي لي مزيدًا من تفاصيل ارتباطها، شعرتُ أن أخبار رحاب أثلجتْ صدري وذهبت بكل ضيق اعتراني منذ الظهيرة..

وصلتُ إلى البيت وأنا منتشية أخبر أمي سريعًا بما أخبرتني به رحاب، فتسعد وتحمد الله أن كَفَّ شر حاتم عن الفتيات، وتدعو لرحاب بكل خير..

لم أخبرها بما حدث معي اليوم وبرؤيتي لحمزة وأن ابنته عندي بالروضة، لا أريد أن أخبر أمي أي شيء متعلق بهذا الموضوع.. فبالتأكيد ستسألني في كثير من التفاصيل، وتتذكر معي ما حدث، وأنا لا أريد أن أخرب شعوري بالسعادة الآن..

أريد أن أضع رأسي على الوسادة فقط واستسلم بهدوء لنوم عميق.. ناسية كل ما حدث في أول اليوم...

***

قالت:

- «لا أريد أن أضغط عليكِ يا دكتورة حنين ولكن لماذا هذا القرار المفاجئ؟ هل يوجد أحد قام بمضايقتك هنا؟»

قلت:

- «لا لا بالعكس يا أستاذة هدى فالجميع هنا يحسن معاملتي جدًّا ولكن أصبحتُ أشعر بالتعب»

قالت:

- «أتت معلمة جديدة منذ يومين وستساعدك في الأمر»

- «وأنا كنت بانتظارها حتى تشغل مكاني ولا أترككم هكذا فجأة، وأتت لتحمل عني وتبدأ مهمتها وأنسحب أنا»

- «أنا أعلم أن الراتب ليس بالكثير ولكن مع بداية الصيف يأتي المزيد من الأطفال وسأقوم بزيادة راتبك»

أشرتُ إليها بيدي نافية:

- «صدقيني يا أستاذة هدى الأمر ليس له علاقة بالراتب إطلاقًا، ولكن أشعر أنه القرار المناسب لي في هذا التوقيت»

صمتتْ برهة وقد ظهر عليها الاستسلام:

- «أليس هناك أي أمل في إقناعك وتنحيتك عن قرارك هذا؟»

- «إِنْ رجعت عن قراري هذا يومًا.. صدقيني لن أرجع إلا لهذا المكان»

قالت بصوت حزين:

- «لا أدري كيف سيتقبل الأطفال عدم وجودك وقد تعلقوا بكِ كثيرًا.. إِنْ كنا نحن الكبار نشعر بالحزن لقرارك.. فكيف سيكون حالهم»

ابتسمتُ قائلة:

- «الأطفال ينسون سريعًا.. سيتأثرون بغيابي حتى يتعودوا على المعلمة الجديدة فيحبونها وينسون أمري بعدها»

قامت أستاذة هدى من مقعدها واحتضنتني بقوة، ودعتها وفتحت الباب فوجدت أماني تقف أمامي وهي تقول ناظرة لأستاذة هدى:

- «لم تنجحي في إقناعها؟»

هزت أستاذة هدى رأسها نافية بحزن، امتلأت عينا أماني بالدموع واحتضنتني، ربتُّ على كتفها وأنا أخبرها أنني سأمر بين الحين والآخر لأطمئن عليهم..

حملتُ حقيبتي وهممتُ بالخروج، نظرتُ إلى الغرفة التي يجتمع بها الأطفال وتذكرتُ وأنا بينهم، والشعور الذي كنتُ أشعر به، وكيف سأشتاق إليه، وضعتُ يدي على صدري وأنا أنظر إليهم مودعة وتحتبس الدموع بعيني، لمحتُ مريم الجالسة على مقعد جانبي مبتعدة عن الأطفال وتنظر إلي.. أدرتُ وجهي سريعًا وخرجتُ إلى الشارع وقد انسكبت دموعي رغمًا عني وأنا أردد داخلي.. ليتها لم تأتِ تلك الفتاة للروضة يومًا.. لماذا لم يذهبها إلى روضة أخرى؟.. ليتني لم أهتم لأمرها فأطلب أحد والديها وأكتشف أن والدها حمزة..

فمنذ ذلك اليوم أصبحت أشعر بالضيق كلما رأيتها وأتذكر مَنْ أبوها، وماذا فعل بي وجرحه القديم، صرتُ أشعر بالتوتر بعد ما أخبرتني أماني أنه أصبح يأتي أحيانًا لاصطحابها إلى المنزل.. ماذا سأفعل إن شاهدته يومًا صدفة، لا أريد رؤية وجهه ثانية، فرؤيته تصيبني بالحنق..

وما ذنب مريم تلك الطفلة البريئة في هذا كله، أتذكر نظراتها السائلة لي عن سر تغيري واجتنابي لها، ولكن كيف سأشرح لها ما بداخلي؟ كيف

سيستوعب عقلها الصغير شعوري تجاه أبيها بعد ما فعله بي؟..

كيف سأفهمها أن بعض الناس لا ذنب لهم سوى أنهم جاءوا بذكرى سيئة؟..

شعرتُ مع مرور الأيام أنني أظلمها، فتعاملي الجيد مع الأطفال واجتنابي لها بعد أن أغدقت عليها مشاعري به إجحاف كبير، مما دفعني للتفكير بترك الأمر كله لأريح وأستريح، فما عاد لقلبي أن يتحمل تجدد جراح ثانية بعد كل ما حدث له..

وصلت إلى الصيدلية فاستقبلني دكتور حسن باسمًاوهو يقول:

- «آمل أنكِ اتخذتِ القرار المناسب لكِ»

هززت رأسي بالموافقة..

تابع:

- «سيكون وقتُ عملك بالصيدلية من الثانية عشر ظهرًا وحتى الثامنة مساءً، وسيختلف راتبك بالتأكيد، وإذا أردتِ زيادة عدد ساعات عملك فتحضرين منذ الثامنة صباحًا، لا مانع عندي»

قلتُ:

- «سأبدأ من فترة الثانية عشر ظهرًا وأرى بعدها إِنْ استطعتُ زيادة ساعات عملي أم لا»

أومأ لي برأسه، ثم ذهب..

استدرتُ وأنا أنظر من خلال باب الصيدلية الزجاجي إلى زرقة البحر في الجهة الأخرى من الطريق وأنا أفكر.. تُرى أين ستكون المحطة التالية؟ هل يا ترى سيحدث شيءٌ جديدٌ في حياتي يجعلني أترك الصيدلية أيضًا؟ لم أعد أستبعد حدوث أي شيء يجعلني أفر من الإسكندرية جميعها إلى مكان آخر.. وليس من الصيدلية فقط ...

***

قاربت عقارب الساعة السابعة مساءً.. كانت الرياح تهز الأشجار بشدة، وتزداد ظلمة السماء الملبدة بالغيوم التي تنذر بمطرٍ شديدٍ.

جلسنا نراقب سرعة بعض الأوراق الطائرة، والسيارات المسرعة على الطريق وكل واحدة منها تحاول الوصول إلى مبتغاها قبل هطول المطر..

تعجب مصطفى قائلًا:

- «لا أعرف لماذا يأبى الشتاء مغادرتنا.. أطال كثيرًا هذا العام»

- «ليس العجيب أنه أطال.. العجيب أن يكون الطقس بهذا الشكل ومن المفترض أننا اقتربنا على فصل الربيع» قالت فريدة ذلك..

علق تامر:

- «يقولون بالأرصاد الجوية إن هذا آخر طقس سيء سَنَمُرُّ به، وسيتحسن الجو ابتداءً من الغد»

مصطفى وفريدة وتامر يقفون معي في الصيدلية، ما زالوا طلبة بالكلية ويقضون فترة تكليفهم، أشعر كثيرًا أنني أختهم الكبرى؛ فقد سبقتهم في التخرج منذ أعوام وأكبرهم سنًّا..

أبتسم عندما يتحدثون عن الكلية وصعوبة بعض المواد وطباع الأساتذة المختلفة، وأسترجع معهم ذكريات تلك الفترة، أتخيل فيهم آسر، وكيف سيكون حالنا لو لم يتغير واستمرت علاقتنا كما كانت في الماضي، لو كان كما هو لأصبح كل شيء رائعًا..

ألاحظ إعجاب تامر وفريدة لبعضهما البعض ولكنهما لم يصرِّحا بذلك.

ثلاثتهم يحترمونني ويقدرونني ويأخذون بقراراتي.. تزامن قدومهم مع استلامي لحصة كاملة من الساعات بالوقوف في الصيدلية، شعرتُ بالراحة معهم خاصة بعد قرار دكتور حسن بنقل مَنْ كانوا يقفون معي سابقًا للفترة الليلية، فلم أكن أرتاح لهم كثيرًا كما أرتاح بين هؤلاء الصغار..

توقفوا عن الحديث فجأة عند رؤية ذلك البرق الخاطف وهو يشطر السماء إلى نصفين، وتبعه صوت هادر خفقت له القلوب خوفًا، التأمتْ السماء مرة أخرى مع تدافع قطرات المطر وقد أصابها الجنون..

جلس كلٌّ منا أمام كوبه الدافئ في انتظار تحسن الجو؛ لكي نستطيع الخروج والعودة إلى منازلنا فقد أصبحت الثامنة وعشر دقائق..

هاتفنا دكتور حسن وأبلغنا أنه اقترب منا ولكن الطريق سيء للغاية لذلك يمشي بحذر شديد؛ خوفًا من انزلاق عجل سيارته، وطلب منا البقاء، وقال إنه سيوصل كل شخص منا إلى منزله، اتصلت بأمي وأخبرتها بالأمر؛ كي لا تقلق من تأخري..

وصل دكتور حسن عند الثامنة والنصف وخمس دقائق ودخل جَرْيًا إلى الصيدلية وهو ينفض قطرات المطر سريعًا قبل أن يتشربها معطفه قائلًا:

- «الطقس سيء للغاية والطريق غير آمن»

قلتُ:

- «يمكنك أخذ مصطفى وفريدة وتوصيلهما؛ فبيوتهما بعيدة عن هنا.. أما أنا وتامر منازلنا قريبة»

أومأ دكتور حسن وهو يقول:

- «حسنًا.. معي صديقي بالسيارة كان من المفترض أن يسافر ولكني ألححت عليه بالمبيت عندي هذه الليلة حتى يستقر الطقس.. سيجلس بالصيدلية معكما حتى عودتي وآخذكم جميعًا»

ثم نظر إلى ساعته وقال:

- «كان من المفترض أن يأتي مَنْ يقفون بالفترة المسائية منذ نصف ساعة ولكن ربما عطلهم الطريق»

أخذتْ فريدة حقيبتها وارتدى مصطفى معطفه وخرجا مع دكتور حسن واستقلوا السيارة، بينما ترجَّل صديقه من السيارة وهو يعدو صوب باب الصيدلية..

اتجهت إلى الداخل لأعد مشروبًا آخر دافئًا بعد أن انتهى الأول، وسمعتُ ترحيب تامر بصديق دكتور حسن وهو يدعوه للجلوس ويسأله ماذا يحب أن يشرب، خرجتُ وألقيتُ السلام ووضعتُ الكوب أمامي، وما إن جلستُ ورفعتُ عينيّ حتى تجمدتا واتسعت حدقتاهما.. كان صديق دكتور حسن الذي يجلس أمامي هو دكتور حاتم!!

ذهبت أناقته كثيرًا فهو يرتدي زيًّا عاديًّا على غير عادته مجرد قميص وبنطال، وملامح الهم الظاهرة على وجهه، وذقنه المنبتة بالشعر أظهرته أكبر من سنه..

ظهرت المفاجأة بعينيه أول ما رآني وما لبث حتى تحولت سريعًا إلى نظرات غضب وشزر ووعيد..

تذكرتُ عندما رأيت نظرة الوعيد بعينيه، نظرته يوم أن هددني بمكتبه قائلًا:

- «أنا لا أسامح أبدًا مَنْ حاول أذيتي»

قمتُ ببطء وأنا أنظر بعيدًا وأسحب معطفي وحقيبتي متجهة للخارج..

صاح تامر مستنكرًا:

- «دكتورة حنين إلى أين؟! ألن تنتظري دكتور حسن حتى يوصلنا؟!»

قلتُ بعد أن ابتلعتُ ريقي دون أن ألتفتُ إليه:

- «سأتأخر كثيرًا إنْ انتظرتْ كما إن بيتي بعيدٌ جدًّا ويجب أن أذهب الآن»

سمعته يقول بصوت منخفض يشوبه الاستغراب:

- «بيتك بعيد!!»

دفعتُ الباب وانطلقتُ أمشي مسرعة وأنا أنظر ورائي؛ خوفًا من أن يلاحقني حتى تجاوزت ثلاث بنايات فرأيتُ يدًا تدفع الباب الزجاجي للصيدلية إلى الخارج، فدخلتُ سريعًا إلى مدخل البناية الرابعة واختبأتُ وراء بابها الحديدي حتى لا يراني..

سمعتُ صوت تنفسي عاليًا وصدري يصعد ويهبط سريعًا من الخوف، أظنه هو مَنْ كان يدفع الباب لملاحقتي..

ماذا سأفعل الآن.. هل سأبقى الليلة هنا؟ غير ممكن وإنْ خرجت الآن ربما ما زال واقفًا فيراني ويتبعني، وحتى إن خرجت بعد مرور بعض الوقت، لقد علم بمكان عملي وربما يسأل دكتور حسن عن عنواني ويأتي لهناك..

أخرجتُ هاتفي بسرعة.. سأتصل بدكتور حسن وأطلب منه ألا يخبره أي شيء عني، توقفتُ لحظة وتراجعتُ قليلًا، وأنا أفكر فأنا لا أعلم مدى صداقتهما فكونه سيأخذه إلى بيته للمبيت هذه الليلة يعني أنه يثق به ومن الممكن أن أضع بقلب دكتور حسن الريبة بطلبي هذا، ولا يوجد مجال الآن لشرح كل ما مررت به، وليس ببعيد أن يطلب منه الآخر عندما يرجع عنواني ويتهمني أنني أخذتُ منه بعض الأموال، وهربتُ إلى هنا ويريد استردادها

فيساعده دكتور حسن من باب خدمته.. ضربتُ بيدي العمود الذي بجانبي وأنا أصرخ بداخلي.. لماذا يحدث كل هذا معي؟ لماذا!!

فكرتُ.. هل أتصل بخالي؟ ولكن ماذا سيفعل فمثلي مثله لا نقوى على شيء..

رفعتُ رأسي قليلًا وقد تذكرتُ شيئًا، نظرتُ إلى هاتفي بتردد وأنا أفكر.. ذهبت إلى قائمة الهواتف المسجلة وحركتها بإصبعي حتى ظهر ذلك الاسم أمامي، ضغطت عليه بإصبعي المرتعش لأجري اتصالًا، رفعتُ الهاتف إلى أذني ببطء وما زال التردد يتملكني، أتاني صوته الهادئ على الطرف الآخر قائلًا:

- «نعم.. مَنْ معي؟»

أجبته بصوت مرتبك:

- «معك حنين.. أنا أحتاج إلى المساعدة»...

●●●

(22)

- «السيد حمزة ينتظرك بهذا المكان»

نظرتُ من النافذة إلى المكان الذي أشار إليه السائق، جذبتُ مقبض الباب وترجلتُ من السيارة بعد أن شكرته.. بدأ في التحرك وانضم إلى صفوف السيارات السائرة على الطريق، صعدتُ على الرصيف وأنا أنظر إلى الأعلى، وقد صفيت السماء بعد أن أسقطت عن كاهلها عبء الغيوم وتوقفت الأمطار مخلفة وراءها هواءً باردًا..

اتجهتُ إلى المطعم المرتفع عن الأرض بسلم مكون من خمس درجات، صعدتها ببطء حتى وصلت إلى الباب فانفتحت إحدى دفتيه الزجاجية المحاطة بإطار خشبي بواسطة رجل يرتدي زيًّا أنيقًا يضع يده اليمنى خلف ظهره ويده اليسرى تشد مقبض الباب وينحني قليلًا؛ ترحيبًا بالزبائن..

دلفتُ إلى الداخل وأنا أنظر في أرجاء المطعم ذي الطراز الكلاسيكي، كان واضحًا أن الأناقة وضعت لمستها على كل شيء بداخله، فالطاولات جميعها مغطاة بشراشف بيضاء ويتوسطها شمعدانات فضية اللون تحمل شموعًا بيضاءَ مشتعلة، والمقاعد خشبية مبطنة بأقمشة حمراء مخملية، وترتكز بإحدى الحوائط مدفأة تشتعل النار بداخلها وتبعث الدفء بالمكان، الحوائط بها نقوش بسيطة تقليدية وعليها مصابيح نحاسية تحمل لمبات ذات إضاءة برتقالية هادئة..

نظرتُ بين الطاولات؛ بحثًا عنه، حتى وجدته جالسًا على طاولة ينظر من خلال النافذة الزجاجية المجاورة له إلى ثوب البحر الأسود وقد نثر القمر لمعته على سطحه..

تقدمت حتى وصلت إلى طاولته، وقلت بصوت يكاد يُسمع:

- «السلام عليكم»

قام من مقعده فور سماع صوتي، وقال:

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»

ثم أشار إلى المقعد الذي أمامه وأكمل:

- «تفضلي بالجلوس»

جلستُ في المقعد وأنا أنظر إلى النافذة على استحياء قائلة:

- «أعتذر عن هذا الإزعاج»

هز رأسه نافيًا وهو يقول:

- «لا يوجد أي إزعاج.. كنتُ جالسًا هنا حين اتصالك بي أستريح قليلًا بعد عمل اليوم، وأرسلت سائقي على الفور إليكِ»

صمت برهة وتابع:

- «أنا زبون دائم لهذا المكان، أرتاد هذا المطعم منذ أن جئت إلى هنا.. أرتاح للجلوس به خاصة بعد أيام العمل الشاقة»

هززت رأسي لكلامه وأنا أنظر إلى أسفل..

أتى النادل مرتديًا زيًّا أنيقًا قميصًا أبيض وصديريًّا أسود، وبيده قلم وورق صغير، سائلًا إيانا:

- «مساء الخير.. ماذا تودان أن تشربا؟»

نظر إلي حمزة سائلًا بعينيه.. هززت رأسي نافية وأنا أقول:

- «لا.. لا شيء»

قال له:

- «حسنًا.. ربما بعد قليل من الوقت نطلب مشروبًا ساخنًا»

انسحب النادل بأدب جم ليعود حمزة إلى الحديث ثانية ويقول:

- «الطقسُ غريبٌ اليوم، أظن أن الشتاء يقوم بالوداع الأخير»

- «نعم الطقس متقلب جدًّا اليوم»

نظر إلي مبتسمًا وأكمل:

- «وأنتِ كيف حالك وكيف تجري أمور الحياة معك؟»

أجبته:

- «الحمد لله بخير»

- «هل انتقلتم للعيش هنا؟»

- «نعم»

سأل:

- «وكيف حال الخالة وآسر وعم طارق؟»

قلت وأنا أشبك أصابعي وأرفع نظري إليه:

- «توفي أبي منذ بضعة أشهر»

قَطَّبَ حاجبيه وقد علت وجهه ملامح المفاجأة الممزوجة بحزن، ثم قال:

- «البقاء لله»

صمتُّ برهة ثم استطردت قائلة:

- «عندما كنت أعمل بالروضة كانوا يعطوننا أرقام هواتف ذوي كل طفل، في حالة إن غابت إحدى المشرفات وحدث أي شيء يمكننا نحن المعلمات التوصل إلى ذويهم مباشرة، وكانت هذه نمرة مريم ونسيتُ تمامًا أن أقوم بمسح جميع تلك الأرقام و...»

أشار إلي بيده يقاطعني، وهو يقول:

- «لا داعي لكل هذا الشرح، الأمر أبسط من ذلك صدقيني»

نظرت إليه وقلت بصوت يشوبه الخوف:

- «المهم الآن أنني قمت بالاتصال لأنني متورطة بمشكلة وأحتاج إلى المساعدة»

عقد ذراعيه على الطاولة وهو ينظر إلي باهتمام قائلًا:

- «وأنا في خدمتك، أخبريني كيف أستطيع أن أساعدك؟»

قلتُ وأنا أدور بحدقتي عينيّ يمنة ويسرة على أطراف الطاولة أمامي:

- «لا أدري كيف يمكنك المساعدة ولكن لتستطيع فهم المشكلة جيدًا يجب أن أشرح لك الأمر من البداية»

رجع بجسده للخلف وما زال الاهتمام باديًا عليه، وقال:

- «كلي آذان صاغية»

بدأتُ أقص الأحداث جميعها عليه من بداية التحاقي بالشركة، ووفاة أبي، وتهديد دكتور حاتم لي وأنه السبب الرئيس لانتقالنا إلى الإسكندرية، كان في أثناء حديثي تتسع حدقتا عينيه من مفاجأة الأحداث تارة ويقطب حاجبيه ويظهر الضيق على وجهه تارة، حتى وصلت إلى ما حدث اليوم قائلة:

- «المشكلة الآن أنني رأيته اليوم ورآني مجددًا!!»

سأل حمزة مستنكرًا:

- «كيف؟!»

قلت:

- «أخبرنا دكتور حسن صاحب الصيدلية التي أعمل بها أنه صديقه وأتى به إلى الصيدلية، ولا أعرف ماذا سيقول له بعد أن رآني، ربما يتهمني بشيء، ويطلب من دكتور حسن المساعدة ليستطيع الوصول إليّ»

وضع يده على ذقنه مفكرًا..

أردفتُ:

- «عندما رأيته خرجتُ سريعًا من الصيدلية وأنا أنظر ورائي؛ خوفًا أن

يلاحقني حتى اختبأتُ بمدخل إحدى البنايات»

وتابعت بصوت منخفض:

- «وقمت بالاتصال بك»

قال:

- «من الجيد أن فعلتِ ذلك فأنا لدي الكثير من المعارف والأصدقاء، وأستطيع التوصل إلى خط سيره وماذا يفعل بعد أن أفلست شركته، أعطني اسمه كاملًا وأنا سـ...»

قاطعه رنين هاتفه فقال:

- «أستأذنك دقيقة واحدة»

ثم أجاب:

- «نعم.. حسنًا.. أعطني إياها»

صمت برهة وأكمل:

- «نعم يا مريم.. حبيبتي ما زال أمامي بعض الوقت وهكذا ستتأخرين عن ميعاد نومك، ادخلي إلى سريرك الآن وعندما تستيقظين صباحًا ستجدين مفاجأة بجانبك»

ابتسم وهو يقول:

- «وأنا أيضًا أحبك.. هيا اذهبي إلى السرير»

أغلق هاتفه ووضعه على الطاولة أمامه قائلًا:

- «إنها مريم، لا تريد النوم حتى تراني أولًا.. مشكلة كل يوم غالبًا»

أشحتُ بنظري بعيدًا وقلت بشيء من الضيق:

- «مريم فتاة عاطفية وتحتاج لكثير من الاهتمام، والانشغال عنها كثيرًا سيضرُّ بها»

قال:

- «نعم معك حق في هذه النقطة، ولكن تأخذني ساعات العمل رغمًا عني، وأنشغل كثيرًا ولا أعرف كيـ...»

قاطعته منفعلة:

- «تأخذك ساعات العمل؟! من أجل ماذا؟ من أجل جمع الأموال وتترك ابنتك هكذا تعاني من الوحدة وفقر الاهتمام!! لا أعلم إذا كانت والدتها تعمل أيضًا أم لا، فمن الواضح أنها تنشغل عنها كثيرًا ويظهر ذلك جليًّا في سلوك مريم.. لماذا تنجبان الأطفال إذًا طالما لن تهتما بهما في النهاية؟!»

ثم تابعت وقد انخفض صوتي:

- «سيسألكما الله عن تلك الابنة يوم القيامة سؤالًا شديدًا»

نظر إليّ حمزة وهو يتنهد مبتسمًا، وقال:

- «ولكن مريم ليست ابنتي»

قطبت حاجبي باستغراب قائلة:

- «ليست ابنتك!!!»

قال:

- «نعم.. تخيلتك لاحظتِ أن اسم أبيها ليس اسمي»

قلت:

- «لم أنظر إلى اسم أبيها من قبل، فمريم الطفلة الوحيدة التي تحمل هذا الاسم بالروضة، فلم نكن بحاجة أن نناديها باسم والدها كي نميزها عن طفلة أخرى»

أكمل:

- «مريم ابنة صديقي المقرب تعرفتُ عليه في أثناء سفري إلى الخارج، وكان متزوجًا ورزقه الله بمريم، وأوصاني عليها قبل مماته هو وزوجته»

شعرتُ بنغز في قلبي، وقلت مشفقة:

- «هل توفي والداها؟»

طأطأ رأسه بأسف وهو يقول:

- «نعم وتركاها لي»

سألتُ باهتمام:

- «أليس لها أقارب؟ أين أجدادها؟»

- «أجدادها وأقاربها معيشتهم لا تصلح لاستقبالها وتربيتها؛ لذلك أوصاني أبوها عليها»

- «وكيف مات والداها؟»

قال بصوت متردد وهو ينظر بعيدًا:

- «الموضوع معقد بعض الشيء»

انتبهتُ لكثرة أسئلتي، فتوقفت وأنا أنظر إلى هاتفي قائلة:

- «ياإلهي إنها العاشرة وعشر دقائق لقد تأخرت كثيرًا»

تناول هاتفه من على الطاولة، وقال:

- «سأتصل بالسائق الآن حتى يأتي إلينا فلا بد أنه وقف بعيدًا؛ لأنه لا يوجد موقف للسيارات هنا»

هززت رأسي نافية:

- «لا.. لا داعي لذلك.. سأستقل سيارة أجرة أذهب بها إلى المنزل»

قال:

- «لن أدعك تستقلين سيارة أجرة في مثل هذا الوقت وحدك، كما أننا لا نعرف أين ذهب ذلك الرجل بعد خروجك وبماذا يفكر» قال جملته هذه بشيء من الحزم، ثم تناول هاتفه واتصل بالسائق يأمره بالمجئ..

نظر إلى النافذة بعد أن أنهى اتصاله، وقال:

- «يبدو أنكِ تحبين مريم كثيرًا»

قلت:

- «بالرغم من كثرة صمتها وعدم تفاعلها فإنها طفلة حساسة ورقيقة مَنْ يفهم طبيعتها يحبها على الفور»

نظر إلي وقال بهدوء:

- «لماذا تركتِ عملك بالروضة؟»

أجبتُ وقد نال مني الارتباك قليلًا:

- «الروضة لم تكن تناسبني من البداية، كان من الخطأ أن أترك مجال تخصصي وأذهب لآخر»

قال:

- «حزنتْ مريم كثيرًا بعد أن غادرتِ، لدرجة أنها نفرتْ من الروضة ولم ترد الذهاب ثانية»

قلتُ:

- «ستتعود على المعلمة الجديدة مع الوقت»

هز رأسه نافيًا وهو يقول:

- «لم تعد بحاجة للروضة، ذهابها إلى الروضة كان سببه الأجازة السنوية للمربية لمدة شهر ونصف، وكانت هذه الروضة هي الأقرب لى فألحقتها بها؛ حتى تمضي فترة الأجازة وعادت المربية معها الآن من جديد»

علا رنين هاتفه، فنظر إليه وقال:

- «هيا لقد أتى السائق»

تقدمني بخطوة متجهًا إلى الخارج، وهو ينظر خلفه بين اللحظة والأخرى ليتابعني حتى وصلنا إلى السيارة ففتح لي الباب الخلفي، دخلتُ وأغلق الباب

ورائي وجلس هو بجانب السائق، وصفتُ لهما العنوان حتى استطاع السائق الوصول إليه، تطلع حمزة من النافذة إلى بناية منزلنا، وسأل متشككًا:

- «هذا هو المنزل؟»

أجبته:

- «نعم»

شعرتُ في سؤاله بالاندهاش أن يصبح هذا بيتنا بعد بيتنا السابق الذي إِنْ دل على شيء يدل على تغير مستوى معيشتنا كثيرًا..

سألته قبل نزولي:

- «ماذا أفعل الآن؟»

قال وهو ينظر إليّ من خلال المرآة الأمامية:

- «لا شيء.. أخبريهم غدًا أنكِ لن تستطيعي الذهاب إلى الصيدلية بأية حجة، وسأقوم باتصالاتي اليوم وسأخبرك غدًا بما توصلت إليه وكيف يمكننا حمايتكم من هذا الرجل، وسأتصل الآن بأحد رجال الأمن بشركتي ليأتي إلى هنا ويقوم بمراقبة البيت»

أمسكتُ بمقبض السيارة وفتحتُ الباب، وهممت بالنزول، توقفتُ برهة وقلتُ باقتضاب:

- «شكرًا»

ابتسم ثم قال:

- «اعتني بنفسك جيدًا»

نزلتُ من السيارة وعبرتُ الطريق إلى الجهة الأخرى، رحلا بعد أن تأكدا من دخولي البناية، صعدتُ سريعًا وفتحت الباب ودخلت بخفة؛ كي لا أُصدر ضجيجًا، استقبلتني أمي مستغربة وقد بدا عليها القلق:

- «ما كل هذا التأخير يا حنين لم يحدث من قبل؟!»

أجبت:

- «أعتذر إليكِ يا أمي، جلسنا كثيرًا من الوقت حتى تأكدنا من استقرار الطقس، وبدأنا بالتحرك»

سألتها سريعًا حتى أشغلها عن هذا الحوار:

- «هل نام الجميع؟»

قالت:

- «نعم.. وأنا أيضًا ذاهبة للنوم»

- «حسنًا تصبحين على خير»

لم أرد أن أخبرها بما حدث اليوم فلو علمت برؤيتي لحاتم ستشعر بالخوف والقلق وستحزن؛ خوفًا من انتقالنا إلى مكان آخر فنتعرض لهذه المشقة ثانية، بدلتُ ملابسي وأعددتُ شطيرة جبن ساخنة، ثم ذهبتُ لألقي نظرة إلى الطريق فوجدت رجلًا قوي البنية يجلس على إحدى المقاعد وهو ينظر يمنة ويسرة ويراقب من حوله..

تنهدتُ ارتياحًا وأنا أتجه إلى غرفتي، دخلتُ تحت الغطاء ببطء حتى لا يستيقظ براء أو مارية..

مددتُ ساقيّ وأسندتُ رأسي على ظهر السرير الخشبي وأنا أتذكر طراز المطعم الكلاسيكي وجلسته الأنيقة..

فكرتُ في حمزة والسائق والحارس الشخصي، تغيرت حياته كثيرًا وظهر عليه الغنى، تُرى ما سبب تلك الأموال كلها؟ وكيف تبدلت أموره بهذا الشكل؟..

أنزلت رأسي على الوسادة وأنا آخذ نفسًا بعمق وأخرجه بزفرة طويلة، أشعر بالارتياح لوجود هذا الرجل بالأسفل، كنتُ سأسهر طوال الليل؛ خوفًا من ملاحقة حاتم أو حدوث أي شيء آخر..

أغمضتُ عيناي وأنا أستسلم للنوم وما زالت شعلة الشمعة التي كانت تقبع بيننا تتراقص أمامي ...

***

أيقظني صوت المنبه المتصاعد على السادسة والنصف صباحًا.. قمتُ بكسل وأنا أجلس على السرير، مسحتُ وجهي بكلتا يديّ وأنا أتثاءب، وضعت إصبعيّ السبابة والوسطى على جبهتي أتحسس بوادر صداع قادمة..

تراءتْ أمامي بعض المشاهد من الليلة السابقة فانتصبتُ في جلستي، وشعرتُ بضيق في صدري وعنفتُ نفسي..

ما هذا الذي فعلته؟!! ما هذا الذي فعلتِه يا حنين؟ لماذا طلبتِ مساعدته؟ لماذا أدخلتِه في الأمر من الأساس؟ لماذا هذا التسرع؟ لماذا جعلتِ الخوف يسيطر عليكِ إلى هذا الحد؟

كان يمكنك الصبر حتى تري كيف تجري الأمور.. مازلتِ طفلة تتعاملين بحمق ولا تعرفين كيف تتصرفين بأمورك، ويصيبك العمى في كثير من الأوقات فتتسرعين في تصرفاتك مثل البلهاء.. شعرتُ بالضيق يزداد في صدري ويجتاحني شعور الندم لما فعلت، نفضتُ الغطاء من على جسدي وأنا أتمتم «غبية» خرجتُ من الغرفة متجهة إلى الحمام فوجدت خالي يفتح باب غرفته وينظر إلي قائلًا:

- «صباح الخير يا حنين»

ابتسمت له ورددت:

- «صباح الخير يا خالي، كيف حالك اليوم؟»

- «بخير الحمد لله.. تأخرتِ كثيرًا بالأمس»

- «نعم كان الطقس سيئًا وانتظرتُ حتى يتحسن؛ لأتمكن من المجئ»

ثم أشرتُ بيدي تجاه الحمام وقلت:

- «تفضل أنت يا خالي أولًا، وسأذهب أنا لإعداد الفطور لك حتى تنتهي» ذهبتُ إلى المطبخ وقمتُ بإعداد الفطور، أيقظتُ براء حتى يذهب إلى المدرسة وساعدته في ارتداء زيه وتحضير حقيبته وتناول فطوره، ألقيتُ

نظرة على مارية وفتحتُ باب غرفتها وباب غرفة أمي حتى تستطيع سماعها إِنْ استيقظتْ، وضعت على الطاولة كوبًا من الشاي وشطرتي جبن مع ثمرة خيار، طرقتُ باب غرفة خالي وقلت بهدوء:

- «خالي.. فطورك على المائدة، سأنزل أنا الآن لأوصل براء حتى لا يتأخر»

أجاب من الداخل:

- «حسنًا يا عزيزتي.. شكرًا لكِ»

فتحت الباب وما إن أغلقته حتى نظر إلي براء بعين يملؤها الحماس قائلًا:

- «هيا؟»

أجبته بالحماس نفسه:

- «هيا»

أجرينا سباقنا المعتاد بالجري على الدرج حتى نرى مَنْ سيصل أولًا إلى أوله، كنتُ أؤخر قدميّ عمدًا حتى يستطيع براء الفوز وأراه وهو يقفز من نشوة الانتصار، وأتصنع أنا الحسرة على خسارتي، وأتوعد له أنني لن أتركه يفوز المرة القادمة، خرجنا من بوابة البناية وأنا أمسك بيد براء فوجدت رجلًا آخر قوي البنية يجلس بالمقعد نفسه الذي كان يجلس عليه الرجل السابق، ويلتفت يمنة ويسرة، تذكرتُ أمر رجل الأمن الذي أخبرني به حمزة فقفز الضيق إلى صدري ثانية، ذلك الضيق الذي يصيبك نتيجة أفعالك البلهاء المتسرعة ويصارعك الندم..

أوصلت براء إلى مدرسته في الوقت المحدد، نظرت إلى ساعة هاتفي وقد قاربت الثامنة والنصف.. ما زال هناك ثلاث ساعات ونصف حتى موعد فترة عملي في الصيدلية، فكرتُ دقيقة ثم بدأت بكتابة رسالة على هاتفي..

«أمي لا تقلقي إن استيقظتِ ولم تجديني، سأذهب إلى الصيدلية» اتخذتُ طريقي إلى الصيدلية مشيًا متخذة البحر رفيقًا، وقد صار الطقس مشمسًا ودافئًا، وصلتُ إلى هناك فوجدتُ مصطفى وتامر قد أتيا وفريدة لم تصل بعد..

صاح تامر عند رؤيتي قائلًا:

- «دكتورة حنين كيف كان رجوعك بالأمس؟»

أجبته:

- «الحمد لله كان جيدًا وصلت البيت بسلام»

قال:

- «كنت أود أن أتصل بكِ للاطمئنان على وصولك ولكنني خفت أن تتضايقي»

ابتسمتُ وأنا أقول:

- «شكرًا لك يا دكتور تامر»

نظرت في أرجاء الصيدلية ثم سألتهما:

- «هل جاء دكتور حسن؟»

أجاب تامر:

- «لا. أتى البارحة أخذني أنا وصديقه وأوصلني، وسأل عليكِ واستغرب كثيرًا عندما أخبرته بذهابك، وقال إنه سيأتي اليوم صباحًا لكنه لم يأتِ بعد».

هززت له رأسي، ثم ذهبت وجلست بمقعدي، وأنا أفكر.. تُرى هل قال له شيئًا عني؟ وإِنْ قال فبماذا أخبره؟

أتت فريدة بعد مضي ساعة ونصف وتبعها بعشر دقائق دكتور حسن، ألقى تحية الصباح ببشاشة وجهه المعتادة، ثم نظر إلي وهو يضع حقيبته في مكانها وقال متسائلًا:

- «دكتورة حنين لماذا ذهبتِ بمفردك البارحة؟»

قلتُ وأنا أرسم ابتسامة على وجهي لأخفي الحقيقة:

- «خفتُ أن أتأخر»

هز رأسه، ثم أكمل ما كان يفعله، شعرتُ أن سلوكه معي كالمعتاد لم يتغير، ربما لم يسأله حاتم عني أو يخبره شيئًا كاذبًا للوصول إليّ..

قاربت الساعة الواحدة ظهرًا، ذهبت إلى دكتور حسن لاستئذانه في الذهاب لكي أحضر براء، كان يجلس على المكتب الموجود بأحد أركان الصيدلية مرتديًا نظارته يدقق النظر في بعض الأوراق، قلت:

- «دكتور حسن سأذهب لإحضار براء من المدرسة وسأرجع خلال نصف ساعة إن شاء الله» قال:

- «حسنًا تفضلي دكتورة حنين»

خطر ببالي أن أسأله بطريقة متوارية إِنْ كان رحل حاتم أم ما زال هنا، قلت متسائلة:

- «هل سافر صديق حضرتك؟»

أجاب:

- «نعم سافر صباحًا»

ضيقتُ عيني وتصنعت التساؤل قائلة:

- «هل يمتلك صيدلية؟»

رفع نظره إلي وخلع نظارته:

- «ومن أين تعرفين أنه صيدلي؟»

ارتبكتُ من سؤاله قليلًا وقلت:

- «كانت في منطقتنا التي نسكن بها صيدلية وصاحبها يشبهه كثيرًا، فظننت أنه من الممكن أن يكون هو»

ارتدى نظارته ثانية وهو يخفض رأسه ناظرًا إلى الورق:

- «لا ليست لديه صيدلية، كانت لديه شركة دعاية أدوية وتعرض لخسارة مالية كبيرة وأغلقها، وهو يخطط الآن للسفر خارجًا، ويريد أن يرحل عن البلاد»

أثلجتْ جملته الأخيرة صدري، وتنفستُ الصعداء وأنا أقول:

- «الجميع الآن يرى الخارج أفضل من هنا»

ثم أكملتُ:

- «بعد إذنك حتى لا أتأخر»

استأذنته وخرجتُ من الصيدلية وأنا أحمد الله، والاطمئنان يملأ صدري فلو سافر حاتم سينتهي هذا الكابوس، وربما نتمكن من العودة إلى القاهرة، وإلى بيتنا، وتسعد أمي ثانية، ويرجع خالي إلى بيته، وتنتهي مشاكله مع زوجته، وسينتهي هذا التوتر والخوف من حياتي، وأستطيع أن أبدأ من جديد.. ربما أنضم لمكتب سيد فأنا أعلم أنني إذا طلبت منه هذا سيساعدني كثيرًا ولن يبخسني حقي مثلما كان يفعل حاتم، اعتلتْ الابتسامة وجهي وأنا أتخيل رجوع حياتنا كالسابق لكنني لن أستعجل الأمور ولن أخبر أمي أي شيء حتى أتأكد من سفره..

ما أتعجب منه حقًّا في هذا الأمر هو أنني أعلم دكتور حسن جيدًا، وشخصيته المحترمة، فكيف يكون صديق حاتم هكذا؟! ربما لا يعلم شيئًا عن مصائبه في القاهرة، وربما أيضًا أن يكون مثله ولا يظهر لنا.. استغفرتُ الله سريعًا عن هذا الظن فمن الواضح أن شخصية حاتم جعلتني صاحبة نظرة متشككة لأي إنسان لا أعرفه جيدًا..

انتبهتُ على صوت هاتفي فالتقطته من جيب حقيبتي ووجدت المتصل حمزة، نظرت إلى شاشته وأنا أجز على أسناني غيظًا من تسرعي ومما فعلت.. ماذا كان سيضيرني لو كنت انتظرت حتى الصباح، وأجريت هذا الحوار مع دكتور حسن أولًا..

أجبت بصوت مقتضب:

- «نعم»

سألني:

- «كيف الأحوال؟»

- «كل الأمور بخير الحمد لله»

قال:

- «أجريت اتصالاتي بالأمس وصباح اليوم بعدة أصدقاء لي واستطاعوا أن يتوصلوا لمعلومات عنه وأخبروني أنه لم يعد كما في السابق، وأصبح فقره لا يساعده على الانتقام من أحد، كما أنه سيخاف كثيرًا أن يقوم أحد بإبلاغ الشرطة فيُتخذ إجراء ضده، ولم يعد معه المال الذي يساعده على دفع رشوة يستطيع الخروج بها، ومنهم مَنْ أخبرني أنه يعد للسفر خارجًا الآن بعد نبذ الجميع له وتجنبهم التعامل معه وأنه....»

قاطعته:

- «نعم.. نعم فهمت. أظن أنني بالفعل بالغتُ في خوفي منه، وهو لا

يستطيع فعل شيء، كما أن سفره للخارج سيحل كثيرًا من الأمور»

قال:

- «حسنًا ولكننا يجب أن نتوخى الحذر حتى نتأكد من سفره، سأتابع مع أصدقائي خطواته، ويوجد الآن رجلان من الأمن يتبادلان مراقبة بنايتكم»

قلت باقتضاب:

- «لا داعي لذلك.. لا تشغل بالك بالأمر لا نريد أن نعطيه أكبر من حجمه، وأبلغ رجالك أن يذهبوا من أمام البناية لم نعد في حاجة لهذا»

صمت برهة وهو متفاجئ من طريقتي في التحدث، ثم قال:

- «ألا ترين أنه يجب أن ننتظر قليلًا حتى سفره؟»

قلت بحزم:

- «لا.. لا أرى ذلك، كما أنني أتأسف على الإزعاج الذي سببته، سيطر الخوف على نفسي ولم أحسن تقدير الأمور ووضعها في نصابها الحقيقي»

شعرتُ بالإحراج في صوته، وهو يقول:

- «حسنًا سأخبرهم بالرحيل الآن وإذا حدث أي شيء لا تترددي في الاتصال»

- «شكرًا»

- «حسنا، لا أريد أن أطيل أكثر.. مع السلامة»

- «سلام»

أغلقتُ الخط وأنا أشعر بالضيق، لم أعتد أن أكون قليلة الذوق في تعاملي هكذا، ولكنني أخطأتُ منذ البداية ويجب أن أصلح خطأي هذا حتى إن كان يسبني الآن وينعتني بالمجنونة التي طلبت مساعدته بالأمس وتكلمه اليوم بهذا الشكل، على أية حال لا يعنيني رأيه فليقل ما يقول.. أخطأتُ أنني أدخلته من الأساس في حياتي بهذا الشكل.. وأصلحتُ خطأي الآن...

***

أتى خالي بعد صلاة الجمعة وهو يشمشم بأنفه قائلًا:

- «ما هذه الرائحة الشهية، أشعر بالجوع»

قلت ضاحكة:

- «هذه وصفة من ابتكار أمي ومن صنع يدي، كنت أعدها لهاشم رحمه الله بأستراليا وكان يحبها كثيرًا»

خرجت زوجة خالي من غرفتها على حديثنا، وهي تنظر بتأفف، وقالت:

- «ومتي ستنتهي؟»

أجبتها:

- «أمامها ربع ساعة لا أكثر»

أدارت ظهرها وهي تقول:

- «عندما ينتهي الطعام أخبروني» ثم رجعت إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءها، قام خالي بتحضير السلطة ووضع الأطباق على المائدة..

كنتُ أشعر بمزاج جيد منذ معرفتي بخبر سفر حاتم لخارج البلاد، وما بعث الاطمئنان في قلبي أكثر أنه مر على رؤيته لي خمسة أيام ولم يحدث خلالها شيء..

أخرجت صينية الطعام من الفرن وحملتها إلى الطاولة، جاء جريًا براء ومارية وجلسا على مقعدهما، بينما أتت أمي بخطواتها البطيئة وهي تثني على رائحة الطعام، وانضم إلينا أخيرًا خالي وزوجته بعد أن كان بانتظارها..

يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي نجتمع فيه معًا على الغداء، أغلب الأيام الباقية يتناول كل شخص منا طعامه بمفرده لاختلاف مواعيد عملنا.. وضعتُ لكل فرد نصيبه من الطعام بطبقه، وأنا ألقي الدعابات، وأتذكر معهم أيام أستراليا، وبعض المواقف الغريبة التي حدثت معنا هناك.. لم نجلس هذه الجلسة منذ زمن، أكثر جلساتنا كانت صامتة أو لمناقشة أمور البيت، نظرتُ في وجوههم وأسعدني استمتاعهم بالطعام وضحكهم عل سرد الذكريات، كان ينقصنا وجه واحد بهذه الجلسة، وجه آسر.. كنتُ أتمنى أن يكون معنا، كنتُ سأشعر حينها باكتمال فرحتي..

رن جرس البيت فتوقفنا عن الطعام ونظر بعضنا إلى بعض باستغراب، قطب خالي حاجبيه قائلًا:

- «مَنْ يأتينا يوم الجمعة؟!! لا يرن جرس هذا البيت أحد غيرنا»

قام خالي من مكانه لفتح الباب، كنت أتابعه بخوف وأفكر بمائة احتمال في الوقت نفسه، نظر خالي من عين الباب وقال لنا بصوت هامس:

- «شابٌّ يرتدي نظارة ولديه لحية قصيرة»

اتسعت حدقتا عيني؛ خوفًا من تأكد ظني، قام خالي بفتح الباب قليلًا وأطل برأسه خارجًا وهو يقول:

- «مَنْ تريد؟»

سمعت صوت يقول بود:

- «أنا حمزة يا عم محمود.. ألا تتذكرني؟»

شعرتُ بالتوتر والاندهاش الممزوج بالغضب وأنا أسأل نفسي «ما الذي أتى به إلى هنا؟!!!»

قمتُ سريعًا لارتداء حجابي، وطلبتْ مني أمي أن أناولها حجابها، رجعتُ فوجدتُ خالي ما زال الحوار بينه وبين حمزة قائمًا حتى تذكره في النهاية قائلًا:

- «حمزة.. نعم.. نعم تذكرتك»

فتح خالي الباب أكثر وهو يقول:

- «تفضل»

دخل حمزة مطأطأ رأسه وقال باسمًا:

- «السلام عليكم.. كيف حالكم جميعًا؟»

جحظت عين أمي عند رؤيته وقالت بشيء من الغضب:

- «حمزة!! بعد كل هذه السنين؟!! كيف أتيت إلى هنا؟! وكيف عرفت طريقنا؟!»

نظر إليّ حمزة وقد بدا عليه التوتر، وهو يقول بصوت منخفض:

- «ألم تخبريهم بشيء؟»

هززت رأسي نافية بغضب، نظرتْ إليّ أمي وقد تطاير الشرر من عينيها قائلة:

- «تخبرينا بماذا يا حنين؟! ما الذي يحدث هنا ولا ندري عنه شيئًا؟ أريد أن أفهم حالًا»

أشرتُ إليها بيدي في محاولة مني لتهدئتها قائلة:

- «حسنًا يا أمي.. حسنًا سأخبرك بكل شيء»

قالت بغضب:

- «الآن أخبريني»

لم أعرف ماذا أقول.. نظرت إلى الأرض وقلت:

- «هناك فتاة بالروضة التي كنت أعمل بها، كانت تعاني من مشكلة ما»

ثم نظرتُ إلى أمي واستطردتُ:

- «مريم يا أمي التي كنت أسألك دومًا ماذا أفعل معها»

أومأت أمي برأسها بسرعة في إشارة منها أن أتابع..

أكملتُ:

- «المهم أنني في يوم ما طلبت استدعاء ولي أمرها حتى أناقش مشكلتها معه»

صمتُّ برهة وأكملت:

- «وكانت المفاجأة يومها أنني اكتشفت أن حمزة هو ولي أمرها»

ثم قلت مسرعة:

- «لكننا لم نتحدث مطلقًا حينها، وتركتُ الروضة ونسيتُ الأمر»

تابعت بصوت متقطع:

- «لكن.. لكن منذ خمسة أيام أتى حاتم إلى الصيدلية ورآني»

ضربت أمي على صدرها بيدها قائلة:

- «حاتم!! حاتم ثانية!! تركنا كل شيء بسببه وأتينا إلى هنا وأتى وراءنا!!»

نفيت قائلة:

- «لا يا أمي لا.. لم يأتِ من أجلنا، هو صديق دكتور حسن صاحب الصيدلية وتفاجأ هو أيضًا يومها برؤيتي ووجدت في عينيه الوعيد»

ثم هززتُ رأسي قائلة:

- «أو ربما توهمتُ أنا بذلك»

نظرتُ إليهم وأكملت:

- «خرجت فور رؤيته هائمة على وجهي.. لا أدري ماذا أفعل.. خفت

عليكم جميعًا، خفت أن يلاحقني ويلحق الأذى بأي أحد فيكم، وهذا الذي لن أتحمله أبدًا، فكرتُ في محادثة دكتور حسن ولكن لم أعرف مدى صداقتهما ومن الممكن أن يخبره حاتم أي أمر عني ويصدقه أكثر مني»

ثم نظرتُ إلى خالي، وقلتُ:

- «ومع احترامي لك يا خالي، ولكن إِنْ حدثتك فماذا كنتَ ستفعل فمثلك مثلي لا نقوى على فعل شيء»

عاودتُ النظر إليهم قائلة:

- «ولن أستطيع إخبار الشرطة.. ماذا سأقول في البلاغ؟ رجل ينظر إليّ شزرًا؟!! لم يكن أمامي سوى الذهاب إلى الشخص الوحيد الذي أعرفه بهذه المدينة ربما يمكنه المساعدة»

ثم قلت مسرعة:

- «وأعترف أنني تسرعتُ في هذا، الخوف تملكني ولم أدرِ ماذا أفعل، كان يجب أن أنتظر ربما قد بالغتُ في تقدير الأمر»

صمتُّ برهة وزدتُ:

- «يومها أخبرني حمزة أنه سيساعدني، وأوصلني إلى هنا بسائقه، وأرسل حارسه كي يراقب بنايتنا، واتصل بي اليوم التالي وأخبرني أنه قام باتصالاته وتأكد أن حاتم لم يعد كما سبق ولن يستطيع إيذاء أي أحد»

ثم نظرتُ إلى حمزة بغضب، وقلتُ:

- «وشكرته يومها على مساعدته وأخبرته أن الأمر انتهى، ولا أعرف سبب وجوده هنا الآن؟!»

نظر حمزة إلينا جميعًا، وقال بصوت يغلبه الحزن:

- «أعتذر لكم جميعًا فمن الواضح أنني أزعجتكم كثيرًا اليوم برؤيتي، ولكن بعد أن قصت حنين عليّ ماذا حدث لكم من تحت رأس حاتم هذا، شعرتُ أنه حان وقت رد الجميل، فعائلة عم طارق رحمه الله فضلهم عليّ لن أستطيع رده بأي شيء»

ثم أخرج مفتاحًا من جيبه ووضعه على الطاولة، وقال:

- «هذا مفتاح لشقة أمتلكها تبعد عن هنا نصف ساعة.. مجهزة بالكامل وستشعرون بالراحة بها، وهي أفضل من هنا كثيرًا»

لمعتْ عينا زوجة خالي وهي تتناول المفتاح من على الطاولة، ثم سألته:

- «كم عدد غرف الشقة؟»

أجابها:

- «أربع غرف»

- «وهل يمكننا الانتقال إليها مباشرة؟»

- «الآن إذا أردتم»

تهلل وجهها بعد سماع جملته الأخيرة، ولكن سرعان ما قطعتُ عليها سعادتها، وقلتُ:

- «ومَنْ قال إننا سننتقل من هنا؟!»

قالت زوجة خالي غاضبة:

- «ولماذا لا ننتقل؟ ألا تنظرين حولك وترين مدى وضاعة هذه الشقة وجدرانها المتصدعة، يأتينا البرد من كل مكان حتى فَتَّ في عضدنا.. هذه خرابة ولا تصلح للعيش الآدمي»

نظرتُ إليها بغضب، وقلت:

- «نحن لا نقبل منة من أحد»

قطب حمزة حاجبيه، وقال مستنكرًا:

- «منة!!»

قلت مؤكدة:

- «نعم منة.. إن كان أبي فعل شيئًا في الماضي فهذا من طبعه، كان دومًا يساعد الآخرين وطوال عمره لم يخذل أحدًا في يوم من الأيام»

اتجه حمزة بنظره إلى الأرض بعد أن سمع جملتي الأخيرة وقد فهم مغزاها، تابعتُ:

- «إن كان أبي ما زال حيًّا سيرفض هذا العرض؛ فهو لا يقبل جزاءً من أحد مقابل أفعاله، فأفعاله كلها كانت لوجه الله، وأرجو أن يكون لقى منها حُسنًا الآن، ونحن مثله لن نفعل ما لم يفعله يومًا فلا نقبل مقابلًا لأفعاله من أحد»

جذبتُ المفتاح من يد زوجة خالي، ووضعته أمامه على الطاولة، وقلت:

- «خذ مفتاحك وارحل عن هنا، وأرجوك لا تأت ثانية، وانسَ أمرنا تمامًا كأننا لم نتقابل»

زجرني خالي قائلًا:

- «حنين.. منذ متى ونحن نتعامل هكذا مع أي أحد دخل بيتنا»

أشار إليه حمزة بيده، وقد كسا الحزن وجهه، وقال:

- «دعها يا عم محمود، أنا أعلم لماذا تفعل هذا»

ثم رجع خطوتين للخلف متجهًا إلى الباب قائلًا:

- «أعتذر لكم مرة ثانية على مجيئي، صدقًا لم يكن قصدي إلا المساعدة»

ثم اتجه إلى الباب وأدار مقبضه، تبعه خالي ليوصله، أخرج إحدى البطاقات وأعطاها لخالي فوضعها في جيبه، ثم أغلق الباب ورحل..

صاحت زوجة خالي بعد أن ذهب حمزة، وهي تقول:

- «هذا وضع لا يُحتمل.. كنت أصبر على هذا الجحر على أمل أن يتغير يومًا، وأرسل الله لنا الآن جائزة صبرنا وركلتِها أنتِ بقدمك أيتها البلهاء، أنا لستُ أَمَة هنا كي تفعلوا بي ما تريدون، سأجمع ملابسي الآن وأرجع إلى بيتي في القاهرة، فما ذنبي لأتحمل أخطاءكم؟!!»

ثم نظرت إلى خالي بعين ثاقبة، وقالت:

- «ستأتي معي أم لا؟»

أجابها خالي مترددًا:

- «كيف نذهب ونتركهم؟!»

قالت:

- «إذًا ابقَ بجوارهم وحدك.. أما أنا فلا» واتجهتْ بخطوات غاضبة إلى غرفتها..

نظرت إليّ أمي وهي تهز رأسها بخيبة أمل قائلة:

- «أنتِ السبب في كل هذا.. لا أصدق أنكِ فعلتِ ذلك»

قلت بأسف:

- «أرجوكِ يا أمي يكفي ما أشعر به من ندم، ولكن ماذا كنتُ سأفعل في هذا الموقف؟.. جميعكم تنظرون إلى فعلي ولا تنظرون إلى السبب، ماذا سأفعل وأنا لا أعرف أحدًا في هذه المدينة.. كما أنني عندما رأيت حمزة وتغير وضعه ومعيشته قلت ربما يكون له علاقاته التي تساعدنا»

اتجهتْ أمي بنظرها إلى الأرض، وقالت:

- «ما تقولينه لا يبرر فعلك، أخشى أنكِ تحججتِ برؤية حاتم، وقمتِ بهذا الاتصال؛ استجابة لرغبة بداخلك»

حدقتُ بها، وقلتُ وأنا غاضبة جدًّا:

- «من الممكن أن أقبل عتابك يا أمي، أما اتهامات باطلة فلن أقبل بها أبدًا.. إِنْ كنتُ أريد محادثته لفعلت ذلك بعد رؤيتي له مباشرة في الروضة، وكان عندي أكثر من حجة لذلك»

صمتت أمي برهة، وأكملتْ:

- «حدث ما حدث والعتاب لن يصلح شيئًا، أرجو أن يكون فهم رسالتك ولا يأتي إلى هنا ثانية»

ثم نظرتْ إلى خالي وقالتْ:

- «اذهب إلى زوجتك وهدئها قليلًا، فأنا أقدر شعورها وأتفهمه»

ذهب خالي بخطى متثاقلة إلى غرفتهما فهو يعلم جيدًا أن محاولاته ستبوء بالفشل..

وددت أن أخبره بقرار حاتم للسفر خارجًا؛ لتصبر فلربما نرجع جميعنا إلى القاهرة من جديد قريبًا، ولكن خفت أن أعلق آمالهم بهذا الخبر ويحدث أي شيء لحاتم فلا يسافر..

مضت نصف ساعة ونحن نسمع محاولات خالي مع زوجته لتبقى ولكنها ترفض أي حديث منه حتى خرجت في النهاية وهي تحمل حقيبتها متجهة إلى باب الشقة، أدارت المقبض، ثم نظرت إلينا بتأفف، وخرجت بعدها، وأغلقت الباب وراءها بقوة..

قالت أمي مسرعة:

- «اتبعها يا محمود.. لا تتركها، وحاول أن ترجعها، وإِنْ سافرت سافر معها، ولا تشغل بالك بنا يا أخي، سنتدبر أمورنا لا تقلق»

وقف خالي دقيقة وقد بدتْ الحيرة على وجهه حتى اتخذ قراره أخيرًا ففتح الباب وذهب وراءها..

أشاحت أمي وجهها عني، وقامت بخطاها البطيئة حتى وصلت إلى غرفتها، وأغلقت الباب بشدة..

بقيت واقفة في الصالة وحدي، وأنا أحاول استيعاب ما حدث..

التهتْ مارية ببعض المكعبات الموجودة على الأرض، بينما جذبني براء من طرف ثوبي وهو يقول:

- «ما الذي يحدث يا أمي؟ لماذا تتعاركون؟»

كنتُ أود أن أجيبه ولكن أنا نفسي لا أعرف كيف تطور الأمر هكذا، كان اليوم في بدايته رائعًا وجميلًا، والآن خرب كل شيء..

احتضنته قائلة وقد اغرورقت عيناي بالدموع:

- «لا شيء حبيبي.. لا شيء»

نظرتُ إلى الأعلى وأنا أتنهد، وأمسح على شعره من الخلف، وأفكر ماذا أفعل فأنا السبب في كل ما حدث اليوم.. وكل ما حدث من قبل.. أنا السبب في كل شيء...

●●●

(23)

- «أعطني إياه»
- «هو معك»

لحظة صمت..

- «نعم يا أمي»
- «براء ماذا بك؟! هذه المرة الثانية التي تتصل بها جدتك وتشتكي منك؟ لماذا لا تطيعها وتزعج مارية؟»

لم يرد..

تابعتُ:

- «كن مطيعًا يا حبيبي حتى لا تغضب منك جدتك، ودع مارية وشأنها والعب أنت بألعابك»

قال بصوت منخفض:

- «حسنًا يا أمي»

تناولتْ منه أمي الهاتف وسألتني:

- «متى ستأتين؟»

نظرت إلى الساعة المعلقة على إحدى حوائط الصيدلية، وقلت:

- «إنها الخامسة والنصف.. أمامي ساعتان ونصف وآتي إن شاء الله»

زفرت أمي بضيق ثم قالت:

- «حسنًا مع السلامة» وأغلقت الخط..

ما زالت أمي تعاملني بحدة بعض الشيء منذ ما حدث من أسبوعين..

غادر خالي يومها مع زوجته وشجعناه أنا وأمي على الرجوع معها إلى بيتهما، ذهب معها لمدة يومين وعاد ثانية لارتباطه بالعمل..

حاول خالي أن يظهر اللامبالاة وعدم الاهتمام بذهاب زوجته، وقرر الجلوس معنا، والرجوع إليها يوم الجمعة من كل أسبوع، لكن قلة كلامه وانعزاله بعض الشيء عنا، كل ذلك عكس حزنه الذي يحاول أن يخفيه لذهاب زوجته، فبالرغم من كل ما تفعله فإن حبها مستقر في قلبه، ووضح ذلك لي جليًّا عندما عاشا معنا ورأيت صبره على كلامها، وعصبية مزاجها، ومواقفها الفظة..ألحتْ أمي في طلبها لتحويل أوراق عمله إلى القاهرة مرة أخرى؛ فهكذا لا يستقيم الأمر ويجب أن يكون بجوار زوجته.. تملكته الحيرة فهو لا يريد أن يتركنا بمفردنا ببلد غريب لا نعرف به أحدًا وفي الوقت ذاته يريد الرجوع إلى زوجته.. كنت أسمعه ليلًا وهو يهاتفها راجيًا إياها أن تعود ويعدها أن الأمور ستنصلح قريبًا فتقابل هذا بالرفض التام، ولما فشلت جميع محاولاته في إقناعها اتخذ قراره وشرع منذ خمسة أيام في نقل أوراق عمله إلى القاهرة ثانية، شعرتُ بحزن أمي عندما علمت أن خالي أمامه أسبوعان على الأكثر وسيغادرنا بالرغم من إلحاحها عليه ليأخذ تلك الخطوة..

أتذكر كلامها لي بعد أن أخبرها خالي بذهابه، وهي تقول بصوت حزين:

- «يرحل الأحبة من حولي واحدًا تلو الآخر في البداية هاشم ثم أبوكِ وبعده آسر والآن خالك»

قلت لها:

- «لكنني سأظل معكِ يا أمي مهما حدث.. أنا وبراء ومارية»

قالت نافية:

- «لا تجزمي بأي شيء يا حنين فبعد ما مررنا به، لا يمكنني توقع ما الذي من الممكن أن يحدث لنا بعد ساعة»

كنتُ أشعر بالحزن أنا الأخرى لذهاب خالي ولكن ماذا سنفعل، يكفي ما سببناه له من مشاكل، لن نكون سببًا في حزنه أيضًا..

زفرتُ بضيق وشعرتُ بالحنق من زوجة خالي.. ماذا كان سيضيرها لو أنها بقيت ولم تفتعل هذه المشكلة، كان الآن كل شيء يسير على ما يرام كما كنا، ولكن لا أريد أن أكون أنانينة وأنظر إلى الأمور بمنظور مصلحتي أنا فقط، فلو وضعت نفسي مكانها ربما أفعل مثلها..

فكرتُ أن نرجع مع خالي فإن لم يسافر حاتم فقد أصبح فقيرًا وزال خطره ولن يستطيع إيذاءنا، ولكنني تراجعتُ قليلًا وأنا أرد على نفسي نافية.. لا.. لا أريد أن أتسرع يجب أن أتريث قبل اتخاذ أي قرار فإن حدث أي شيء لن أستطيع ترك القاهرة ثانية ولا أريد أن أحمل أمي عناء مشاكل أخرى، وإن بقينا هنا ستظل أمي على حزنها بل من المؤكد أنه سيزداد بعد ذهاب خالي..

مسحتُ وجهي وأنا أتنهد وأريح رأسي للخلف، فكرتُ في محاولة ربما تنجح وتُحدِث اختلافًا.. نظرتُ إلى تامر قائلة:

- «دكتور تامر سأذهب عشر دقائق وسأعود»

- «حسنًا دكتورة حنين»

خرجتُ من الصيدلية متجهة إلى المحل الذي يقبع بعد الصيدلية بثلاثة محال، دفعتُ بابه الزجاجي وقلتُ للرجل الجالس خلف ذلك الصندوق الخشبي:

- «أريد أن أجري اتصالًا»

ناولني أحد الهواتف، أخرجتُ هاتفي وبدأتُ بنقل الرقم من هاتفي إلى الهاتف الآخر، واتخذتُ جانبًا من المحل وأنا أضع الهاتف على أذني.. بدأ اليأس يتسلل إلى نفسي مع طول صوت الرنين المتكرر حتى كاد أن ينتهي الاتصال لولا أن أجاب في آخر لحظة:

- «نعم»

تهلل وجهي عند سماع صوته، فقلت:

- «آسر»

قال بصوت ناعس:

- «مَنْ معي؟»

- «أنا حنين»

ظل صامتًا فبادرتُ بالسؤال:

- «كيف حالك؟ اشتقنا إليك كثيرًا»

- «أنا بخير.. أنتم كيف حالكم؟»

- «نحن بخير الحمد لله كل ما ينقصنا هو أنت»

لم يرد على جملتي الأخيرة فأكملتُ:

- «لماذا لا تجيب على اتصالاتي المتكررة؟»

أجاب باقتضاب:

- «أكثر الوقت أكون نائمًا، أو بالعمل ويكون الهاتف بعيدًا عني»

- «ولماذا لا تأتي إلى زيارتنا؟»

كنت أتمنى أن يقول لي إنه أتى ولم يجدنا، ولكن إن فعل هذا كان سيتصل بنا بالتأكيد..

أجاب:

- «ولماذا آتي وأنا أعلم ماذا سيحدث مسبقًا»

- «وما الذي سيحدث؟»

- «ستسبني أمي وتخبرني بغضبها العارم، وأذهب كما ذهبت المرة السابقة»

- «وما يدريك.. لعلها تحتضنك وتصلح ما حدث»

- «لا أظن»

تنهد ثم تابع:

- «للأسف أنتم غير مؤهلين لقبول الاختلاف»

قلت معترضة:

- «ولكن يا آسر هذا ليس اختلافًا.. هذه أساسيات دين ومبادئ»
صمتُّ برهة.. فأكملتُ:
- «لو كنا غير مؤهلين للاختلاف كما تقول، لكان أمي وأبي رفضاك منذ أن تغيرت وتجنبتهما منذ زمن»
زدتُ:
- «ثم ألم تفكر أن طبيعة عملك هي السبب في كل ما حدث مؤخرًا وليس أي شيء آخر؟»
تنهدتُ ثم قلتُ راجية:
- «أرجوك يا آسر فكر في الأمر.. ليس هذا ما ربّانا عليه أبي وأمي.. أنا متأكدة أنك إذا نحيت العناد جانبًا وفكرت في الأمر بفطرتك ستتخذ قرارات صائبة وستتغير حياتك وستختلف الأمور كثيرًا»
قال:
- «ربما، ولكن ما أنا متأكد منه الآن جيدًا أنني أحتاج إلى هذا العمل بالوقت الحالي»
أصابتني خيبة الأمل بعد سماع جملته الأخيرة، قلت وأنا أتعلق بأطراف أمل:
- «ألن تجرب حتى المحاولة وتطل علينا ربما تخيب ظنونك؟»
- «سأحاول بالتأكيد ولكن ليس الآن.. سآتي عندما أشعر أن الوقت مناسب لزيارتكم وأن أمي لن تغضب لرؤيتي»

- «حسنًا يا آسر.. اعتنِ بنفسك جيدًا»
- «وكذلك أنتِ»
- «مع السلامة»
- «سلام»

خرجتُ من المحل والحزن جاثم على قلبي.. أي جحود هذا الذي يغير الإنسان بهذا الشكل، أي تمرد هذا الذي يتوهمه بعض الشباب فيضرب بدينه ومبادئه عرض الحائط من أجل إثبات أنه نضج وأصبح له تفكيره وقراراته الخاصة، ويظن بذلك أنه يصنع لنفسه شخصيته المستقلة..

زادتني مكالمة آسر همًّا فوق همي، دخلتُ إلى الصيدلية مطأطأة الرأس فباغتتني رؤية دكتور حسن..

قلت مسرعة:

- «استأذنتُ عشر دقائق وعدتُ»

أومأ برأسه قائلًا:

- «أخبرني تامر»

جلس دكتور حسن بمكانه المعتاد وبدأ بمراجعة بعض الدفاتر المتعلقة بأدوية الصيدلية، ثم ناداني قائلًا:

- «دكتورة حنين.. أتت الأدوية الناقصة ظهرًا..أليس كذلك؟»

أجبته:

- «بلى.. أتت اليوم»

قال طالبًا:

- «أستأذنكِ أن تأتي عشر دقائق حتى نراجع بعض الملفات معًا»

فتحتُ أحد الأدراج، وسحبتُ الدفاتر التي بداخله وقمتُ متجهة إليه، كنا نفعل هذا الأمر بشكل دوري، نرى أي الأدوية قد انتهت وأي منها قد أوشك على الانتهاء ونطلبها من الشركات ونصنف ما هو متوفر بشكل كبير ولا نحتاجه ونراجع ما تم بيعه بالصيدلية..

كان مصطفي وتامر يتبادلان الحديث بصوت مسموع في أثناء عملنا..

قال مصطفي:

- «الطقس رائع اليوم، كان مشمسًا طوال النهار وتهب نسمات خفيفة منعشة مع الغروب.. ما رأيك أن نتعشى بمكان ما بعد العمل؟»

أجابه تامر:

- «لا مانع عندي.. ما رأيك بأي مطعم على البحر سيكون الجو جميلًا»

شاركهما دكتور حسن قائلًا:

- «أنصحكما باستغلال هذه الأيام قبل حلول الصيف واشتداد الزحام، فالإسكندرية تكون بأروع حالاتها في تلك الفترة ما بين فصلي الشتاء والصيف ولكن لا تهملا مذاكرتكما»

قال تامر وقد ظهر على وجهه الضيق:

- «نعم اقتربت الامتحانات.. ولكن لا بأس بقليل من الترفيه قبل زحام الصيف، فهذا الازدحام يصيبني بالاختناق.. كل عام تراودني فكرة

ترك الإسكندرية في هذا الوقت والرجوع إليها مع بداية الشتاء»
قال مصطفى مستنكرًا:
- «حتي إِن فكرتَ، لا يوجد مكان مناسب للذهاب إليه بالصيف»
قال تامر ساخرًا:
- «بالعكس يوجد الكثير.. أوروبا مثلًا»
علا صوت مصطفى بالضحك قائلًا:
- «يبدو أنك وجدت كنزًا مؤخرًا فكل طموحاتك أصبحت في الخارج الآن»
بدا الضيق على وجه فريدة؛ فتامر أصبح يردد كثيرًا في الأونة الأخيرة أنه يرغب في السفر إلى الخارج ولا يريد العيش هنا، ربما هذا يقلقها فهو لم يتخذ أي إجراء للتقدم إليها أو التلميح لها..
قال دكتور حسن:
- «لم يعد السفر إلى الخارج بهذه السهولة.. أصبح الأمر صعبًا.. بعض من أصدقائي توقف سفرهم خلال هذا العام بدون أي سبب موضح»
ضجر تامر عند سماع هذا بينما انبسط وجه فريدة فرحًا، أما أنا فوقعت جملته الأخيرة بصدري.. بعض من أصدقائه؟ مَنْ يقصد يا ترى؟
أكمل تامر ومصطفى حديثهما، ووجدتُ أنها الفرصة المناسبة لسؤاله..
قلتُ وأنا أنظر إلى الورق:
- «الشباب تأخذهم حماسة السفر ولا يخططون للموضوع جيدًا، الأمر ليس بتلك السهولة التي يتخيلونها»

قال وهو ينظر إلى الدفتر الذي أمامه:

- «نعم معكِ حق»

تابعتُ:

- «أظن السفر الآن يحتاج لسن أكبر ناضج يعرف كيف يدير أموره هناك، ويقيم عملًا يدر له المال الجيد، ولكن لا أعرف ما المجال المناسب لنا بالخارج؟»

قلتُ وأنا أتصنع اللامبالاة:

- «صديق حضرتك الذي أتى إلى هنا من قبل.. أخبرتَني أنه سيسافر خارجًا بعد خسارته، ماذا سيعمل هناك؟»

أجاب:

- «سيحاول أن يقيم فكرة شركته نفسها هناك»

- «و إلى أين سيتجه؟»

- «كندا»

- «وهل سافر؟»

رفع وجهه تجاهي بعد أن نزع نظارته، وهو يقول:

- «دكتورة حنين.. ما قصتك مع صديقي هذا؟!.. تكثرين من الأسئلة حوله منذ أن رأيتِه هنا»

شعرتُ بالدماء تصعد إلى وجهي من الإحراج، ابتعلتُ ريقي، وقلتُ وأنا أغالب ارتباكي:

- «لا.. ليس هناك شيء.. كل ما في الأمر أنني ظننته شخصًا آخر»

- «لا أظن» قالها وكانت عيناه تحمل بين طياتها اتهامًا ضايقني مما جعلني أتخذ قراري بالتحدث مباشرة..

قلتُ بصوتٍ هادئ:

- «حسنًا.. هل تعرف صديقك هذا جيدًا يا دكتور حسن؟»

بدا الاستغراب على وجهه، وقال:

- «ماذا تقصدين؟»

- «هل تعرفه جيدًا؟ عاشرته؟ تعلم طباعه؟»

قال وما زال الاستغراب على وجهه:

- «أنا وحاتم خريجو دفعة واحدة.. كنا نذاكر معًا وعندما تخرجنا فكرنا أن نفتح صيدلية معًا، ولكن وقتها أخذتُ قراري بنقل معيشتي إلى الإسكندرية وبقي هو في القاهرة، مرت السنون وافتتحتُ أنا الصيدلية هنا وافتتح هو شركته هناك.. كنا نتبادل أخبارنا كل فترة ونطمئن على بعضنا»

ثم نظر إلي متمعنًا:

- «ما سبب سؤالك؟»

قلتُ وأنا أنظر إلى المكتب:

- «كنتُ أعمل عند دكتور حاتم بشركته»

ضيَّق عينيه متفاجئًا:

- «عند حاتم؟!»
- «نعم وأظن أنك لا تعرفه جيدًا»

ثم بدأت بسرد أفعال حاتم القذرة عليه، وما فعل برحاب وما فعله مؤخرًا مما كان سببًا في فقره وحاله المزري الآن، كان يستمع باهتمام شديد ولا يعلق سوى بإيماءات رأسه حتى انتهيتُ من كلامي..

شبَّك أصابعه ووضع كلتا يديه على المكتب، وقال بضيق:

- «لم أكن أعلم كل هذا.. كان له بعض الأفعال بالجامعة وأُثيرتْ حوله مشاكل عدة ولكنني تخيلت أنه بعد زواجه تغير وانصلحت أموره»

صمتَ برهة وأكمل:

- «حتى إغلاق شركته أخبرني أن حماه لا يحبه من الأساس، وكان السبب في طلاقه من زوجته، وأنه يثير المكائد ضده حتى خسر شركته بسببه ولم يقل السبب الحقيقي»

رفع نظره تجاهي:

- «ولكن لماذا لم تخبريني كل هذا من قبل يا دكتورة حنين؟ لماذا لم تخبريني منذ رؤيتك له هنا؟»

قلت:

- «صراحة خفت»
- «ممَّ؟»
- «ألَّا تصدقني.. فأنا لا أعلم مدى عمق صداقتكما»

قال بشيء من الحزم:

- «كان يجب أن تخبريني فمهما كنا أصدقاء هناك مبادئ لا تتجزأ»

زفر بضيق:

- «أكثر ما يضايقني هو كذبه بشأن شركته.. وإتيانه إلى هنا وطلب المال مني ليستطيع السفر»

صمتَ برهة وأكمل:

- «أظن أنه لا يستطيع فعل أي من تلك الأفعال بتلك البلاد.. فأي شبهة حوله ستعرضه للترحيل فورًا»

سألتُه وأنا أحاول السيطرة على شغفي:

- «هل سافر؟»

أجاب:

- «نعم منذ أسبوع»

ملأ الارتياح قلبي دفعة واحدة، وكدتُ أن أطير فرحًا، لم أشعر بهذا الشعور منذ زمن..

طلب مني دكتور حسن أن نكمل غدًا؛ لأنه تشوش تركيزه وأصابه الضيق، اعتذرت عمَّا سببته له وسحبتُ الدفاتر عائدة إلى مكاني..

ظللتُ أعد الدقائق من السابعة والنصف حتى حانت الثامنة، التقطتُ حقيبتي وبدأتُ أتحرك بخطى مسرعة متجهة إلى البيت، اشتريتُ بعض الحلوى في طريقي حتى وصلت إلى البناية وصعدتُ إلى الشقة فاستقبلني

براء ومارية باستقبالهما الحافل كعادة كل يوم وخطفا كيس الحلوى من يدي وجريا بعيدًا..

وجدتُ أمي وخالي وهما يجلسان قرب الشرفة وأمامهما كوبان من الشاي تتصاعد منهما الأبخرة المتراقصة..

وضعتُ حقيبتي جانبًا، وألقيتُ السلام عليهما، وانضممتُ إلى مجلسهما وبعد أن سألتني أمي عن يومي وكيف كان العمل، توجهتُ إلى خالي سائلة:

- «وما آخر الأخبار يا خالي؟»

قال:

- «كنتُ لتوي أقول لأمك إن صديقًا لي أخبرني أنه ربما يتم الانتقال خلال عشرة أيام من الآن»

نظرتْ أمي إلى زجاج النافذة وهي تتنهد، فتابع مسرعًا:

- «ولكنني سآتي إليكم يومي الجمعة والسبت من كل أسبوع وأقضهما معكم إن شاء الله»

نظرتْ أمي إلى خالي مبتسمة:

- «لا تقوى صحتك على هذا يا محمود، نحن نكبر ولا نصغر والمجهود يتعبنا، لا تشغل بالك بي يا أخي سأكون بخير.. ما يحزنني هو فراقك لا أكثر وما يهمني هو راحتك وراحة زوجتك»

قطعتُ حديثهما وأنا أبتسم بشدة:

- «عامة يا خالي أنت بالفعل لستَ في حاجة للمجئ هنا ثانية»
قالت أمي مستنكرة:
- «وهل يسبب لكِ هذا تلك السعادة كلها البادية على وجهك؟!!»
ضحكتُ من قولها، واقتربتُ منها وأنا أجلس على المسند الخشبي للمقعد الجالسة عليه وأضع يدي على كتفها قائلة:
- «لا يا أمي ليس هذا سبب سعادتي بالتأكيد»
صمتُّ برهة وقلتُ:
- «لن نكون بحاجة لمجئ خالي إلى هنا لأننا...»
ثم وقفتُ وأنا أنظر إليهما وأقول بحماس:
- «سنعود جميعًا إلى القاهرة»

***

أثبت الربيع حضوره بطقسه الساحر، وشمسه الدافئة على الإسكندرية، السماء صافية إلا من بعض السحب الصغيرة المتقاربة التي تتحرك ببطء وتعانق بعضها بعضًا..
تأبطتُ ذراع خالي ونحن نمشيان على طريق الكورنيش معًا ونتأمل السماء وتداعبنا نسمات البحر المنعشة..
سحبتُ نفسًا عميقًا قائلة:
- «رائحة البحر تلك سحر.. تصنع بالنفس ما لا يصنعه شيء»
قال خالي:

- «نعم.. كان بعض أصدقائي يأتون إلى الإسكندرية ويذهبون إلى منطقة المكس* خصيصًا؛ لاستنشاق رائحة اليود القوية المنبعثة من البحر»

- «وهل هذا المكان بعيد عن هنا؟»

- «نعم أظن ذلك»

- «من الممكن أن نستيقظ يومًا مبكرًا ونذهب إلى هناك قبل رحيلنا»

- «إن شاء الله»

صمتُّ برهة وقلتُ لخالي سائلة:

- «ولكن يا خالي ألا ترى أنه يجب أن ترجع الآن؟ فما زال أمامنا شهر ونصف حتى ينتهي براء من عامه الدراسي ونستطيع بعدها الانتقال»

أجابني:

- «لا.. سيمرون سريعًا، سأظل أذهب إلى العمل هنا وإذا تم نقلي سأقتطع من أجازتي وأبقى معكم حتى نرحل جميعًا معًا»

ثم نظر تجاه البحر وقال:

- «سأقضي هذه الأجازة في وداع الإسكندرية»

- «وزوجتك؟»

ابتسم ابتسامة ساخرة تحمل بين طياتها مرارة وهو يقول:

- «أنا فقط مَنْ يهمني أمرها، لا يشغل بالها كثيرًا حضوري من غيابي، ما دمت أرسل إليها الأموال لن يؤثر عليها غيابي شهر ونصف»

* منطقة بالإسكندرية مطلة على البحر شهيرة بقوة رائحة اليود بها.

ربتُّ على يديه قائلة:
- «أما نحن فلن نتركك أبدًا حتى بعدما نعود»
ثم همستُ:
- «فتأتي زوجتك وتقتلنا جميعًا ونستريح»
ضحك خالي من قولي وسألني بعدها:
- «وماذا فعلتِ بشأن الصيدلية؟»
قلتُ:
- «أخبرتهم برحيلي بعد شهر ونصف إن شاء الله؛ لكي يستطيعوا أن يجدوا بديلًا خلال هذا الوقت»
صمتُّ برهة وتابعتُ:
- «حَزَنَ تامر ومصطفى وفريدة كثيرًا وكذلك دكتور حسن لكنهم في النهاية يتمنون لي التوفيق في حياتي القادمة، ويقومون بتدليلي للغاية هذه الفترة.. يجعلوني أرجع مبكرًا وإِنْ ذهبتُ متأخرة لا مشكلة، وسمحوا لي أن أستأذن اليوم وأتمشى برفقتك بعد أن اتصلتَ بي وأخبرتني بمرورك على الصيدلية واصطحابي إلى الكورنيش.. كان من الصعب حدوث كل هذا من قبل»
نظرتُ إلى البحر، ثم توجهتُ إليه سائلة:
- «ولكن لماذا لم تحضر أمي معك والأطفال؟ كانوا سيستمتعون كثيرًا فالجو رائع»
قال:

- «المرة القادمة إن شاء الله»

تطلع برأسه إلى إحدى اليافطات، وقال:

- «ما رأيك أن نجلس هنا لنتناول أي مشروب؟»

- «حسنًا هيا بنا»

كان المكان بسيطًا مطلًّا على البحر مباشرة، جميع مقاعده وطاولاته من الخوص المجمع، محاط بأعمدة خشبية يعلوها أغطية من القماش المُشمع بيضاء اللون؛ لحجب أشعة الشمس بوقت الظهيرة..

جلستُ وأنا أقول:

- «سأعزمك أنا هذه المرة»

ابتسم خالي لي ثم أتى نادل بسيط المظهر سائلًا:

- «ماذا تودان أن تشربا؟»

قلتُ بعد أن تجولتُ بعيني في القائمة:

- «سأطلب شكولاتة مثلجة»

قال خالي دون أن ينظر إليه:

- «وأنا مثلها»

دَوَّنَ النادل الطلب على الدفتر الصغير بيده وابتعد، ضحكتُ باستغراب وأنا أقول:

- «منذ متى وأنت تشرب الشكولاتة المثلجة يا خالي؟»

انتبه لكلامي فجأة وقال:

- «ظننتك طلبت شايًا، لم أنتبه لما طلبتِه»

نادى على النادل الواقف بعيدًا وقال:

- «أريد شايًا بالنعناع بدلًا من الشكولاتة لو سمحت» أومأ النادل برأسه موافقًا..

نظرتُ إلى البحر قائلة:

- «هذا المكان رائع، جلسته ظريفة، ورخيص الثمن يجب أن نحضر أمي والأولاد المرة القادمة»

أومأ لي خالي مبتسمًا وهو ينظر بعيدًا.. سألته متعجبة

- «خالي.. هل هناك شيء؟!»

- «لا يا حنين لماذا تسألين هذا السؤال؟»

قلتُ:

- «كنا على ما يرام ونحن نتمشى حتى جلسنا..لا تنتبه لما أقول وتنظر إلى ساعتك وهاتفك طوال الوقت وتشرد بعيدًا، أشعر أن ذهنك مشغول بأمر ما كأنك في انتظار شيء»

نظر إليّ خالي مبتسمًا، وقال:

- «نعم أنا في انتظار أحد، فلدينا ضيف اليوم»

قلت مستغربة:

- «لدينا؟! أنا وأنت؟»

- «نعم»

نظر خالي بعيدًا إلى جهة ما، ثم قال:

- «ها قد أتى»

أدرتُ رأسي إلى الخلف متجهة ببصري إلى الجهة نفسها، رجعتُ برأسي سريعًا وقد اتسعت حدقتا عيني غضبًا، وأنا أقول:

- «خالي ما هذا؟!!»

قال وهو يحاول أن يشرح لي:

- «حنين أعلم أن هذا الموقف ربما يضايقك لكن حمزة اتصل بي واستأذنني بالمجيء، وأتى إلينا منذ يومين في أثناء عملك وجلس معنا أنا وأمك، وأفهمنا كل شيء واستأذننا في الجلوس معكِ؛ ليشرح لكِ الأمر.. وخفنا من ردة فعلك، ففضلنا أن نبتعد عن البيت حتى لا نسبب له إحراجًا وتكون المقابلة بالخارج»

سألت مستغربة:

- «وأمي وافقت؟!»

- «نعم وافقت، بعد أن قمت أنا وهو بإقناعها»

ثم نظر إلي قائلًا بهدوء:

- «اسمعي منه فقط ما يريد قوله واحكمي بعدها» حدقتُ في خالي والذهول الغاضب يتملكني خاصة بعد معرفتي بموافقة أمي، نظر إليّ وهَمَّ أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع، فقد وصل حمزة إلى طاولتنا، ألقى السلام علينا وجذب مقعدًا وهو يقول:

- «كيف حالك يا عم محمود؟»

- «بخير الحمد لله يا حمزة»

اتجه إليّ وقال:

- «كيف حالك يا حنين؟»

أشحتُ بوجهى بعيدًا وأنا أقول:

- «بخير»

كنتُ غاضبة جدًّا مما فعله خالي بي، وفي الوقت نفسه لا أفهم شيئًا..

أية جلسة تلك التي يتحدث عنها خالي؛ ليسمح له هو وأمي بعدها أن يجلس معي..

قام خالي وهو يقول:

- «حسنًا سأجلس في الطاولة المجاورة لكما»

تحرك خالي ليجلس بجانبنا وهو يبتسم لي، اقترب النادل منا فأشار إليه خالي بيده، أظن أنه أخبره أننا لن نطلب شيئًا الآن حتى لا يقطع أي أحد حديثنا..

نظر حمزة تجاهي وبدأ كلامه مترددًا:

- «حنين.. لا أعرف من أين أبدأ.. أعلم أنك غاضبة كثيرًا مما حدث منذ زمن ومما حدث مؤخرًا وأنكِ طلبتِ عدم المجيء إليكم مرة أخرى ولكن...»

قاطعته:

- «مخطئ.. نعم أنا غضبتُ من موقفك الأخير؛ لأنه أحرجني أمام عائلتي، وغضبي الأكثر كان من نفسي لتسرعي، أما أي شيء بالماضي فلا، فأنا لم يعد يهمني أمرك كي أغضب منك»

قال:

- «حنين أرجوكِ.. أعلم صعوبة ما مررتِ به جيدًا فلقد تعرضتِ للكثير وتحملتِ الكثير، وأظن أنه أتى الوقت المناسب لأوضح لكِ بعض الأمور»

صمتَ برهة وتابع:

- «وأوضح سبب اختفائي يومها»

قلتُ:

- «لم يعد يشغل بالي البتة تلك الأمور كلها»

قال بقليل من الانفعال:

- «ولكن من حقي أن أقوم بتوضيح الأمر»

نظرتُ إليه، وقلت وأنا غاضبة:

- «حقك؟! عن أي حق تتحدث؟ وما فائدة الإيضاح الآن؟!! تركتني يوم خطبتنا والحيرة تنهش بعقلي، لم تتصل حتى لتوضح أمرك، ألم تفكر لحظة في موقفي أمام الناس؟ في شعوري باختفائك المفاجئ حينها؟ والآن تطلب مني الاستماع؛ لأنه من حقك أن توضح الأمر!! صدقني لم أعد بحاجة إلى هذا الإيضاح.. لم يعد له فائدة»

أكمل بصوت هادئ، وهو ما زال ينظر إليّ:

- «صدقينى الأمر كان صعبًا جدًّا، مرضت أمي فجأة مما اضطرني للذهاب إليها وكنتُ أنوي العودة لحضور خطبتنا، لكن عند خروجي من المنزل وجدتُ خالي وقد أخبرتْه أمي بأمري فحبسني في بيته وأخذ مني هاتفي ومنع عني أية وسيلة أستطيع التواصل بها معكم»

صمتُّ وأشحتُ بوجهي بعيدًا، فأكمل:

«أعترف أنني ربما استسلمتُ له، ولم أكن شجاعًا بالدرجة الكافية لأقف أمامه وأصر على ذهابي بقوة، ولكن السبب في ذلك هو خوفي عليكم فلقد هددني أنه سيلحق بكم المشاكل إنْ صممتُ على الرحيل، ولم أدرك حينها أنه لن يقدر على فعل شيء إذا واجهته بقوة، وأدركتُ هذا لاحقًا للأسف»

نظر إليّ وتابع:

- «وأنا قادم اليوم لأعتذر إليكِ على كل ما سببته لكِ وعلى كل ما حدث سابقًا، وسأفعل كل ما بوسعي لإصلاح ما أفسدته، كل ما أطلبه أن تعطيني فرصة لذلك»

ضيقتُ عيني مستغربة، وقلت:

- «ماذا تقصد؟»

قال وقد ظهر الحماس بعينه:

- «أريد أن نكمل ما وقفنا عنده منذ عشر سنوات.. أريد أن نتزوج»

رجعتُ بظهري إلى المقعد وأنا أنظر بعيدًا:

- «أرجوك كفى مزاحًا»

ظهر الضيق على وجهه، وقال:

- «أنا لا أمزح على الإطلاق، أنا جاد جدًّا في طلبي»

قلتُ:

- «و أنا لا أفكر في أمر الزواج مطلقًا.. أنا الآن أم لطفلين يتيمين، وكل هدفي في الحياة هو تربيتهما»

قال متعجبًا:

- «ومَنْ قال إنه لن يكون هدفي أنا الآخر؟! أريد أن أكون سندًا لهما معكِ يا حنين، أن نحميهما معًا ونرعاهما معًا، أن أضم طفليك إلى مريم ونصير جميعًا عائلة واحدة»

قلتُ بعد أن تنهدتُ:

- «الأمر ليس بتلك البساطة»

قال باستغراب:

- «وأين تكمن صعوبته؟»

- «تكمن صعوبته بشيء داخل نفسي»

- «وما هو؟»

قلتُ وأنا أهز رأسي:

- «لن أقدر.. لن أقدر أن أعيش مع رجل بعد هاشم رحمه الله، لن يقدر قلبي على حب رجل بعده فلن أجد رجلًا مثله أبدًا»

زفر حمزة بحزن، ثم قال:

«أنا لا أستطيع أن أعدك أنك ستجدينني مثل هاشم زوجك رحمة الله عليه، ولكن أستطيع أن أعدك أن تجدي حمزة أحسن مما تتوقعين»

صمتَ برهة، ووضع ذراعيه على الطاولة واقترب قليلًا:

- «حنين.. أنا لم أنسكِ لحظة.. لم أستطع أن أرتبط بأية فتاة بعدك؛ لتعلقي بكِ بالرغم من معرفتي بزواجك وأنه من المستحيل أن أجتمع بكِ ثانية، وما لا تعلمينه أنتِ أنني بعد أن مضى عام ونصف من اختفائي رجعتُ إليكم مرة أخرى لأتقدم إليكِ ولكن عرفت بأمر خطبتك، فانسحبتُ من حياتك والألم يعتصر قلبي، صدقينى أنا الآخر دفعتُ ثمن بعدي عنك ليال وليال من التحسر والوجع، وعندما رأيتُك أول مرة بالروضة تدفقتْ مشاعري نحوك بشكل كبير، ولكنني كنتُ أزجر نفسي على هذا لعلمي أنك متزوجة، راودتني نفسي أن أتحدث معكِ بأية طريقة، ولكن رجولتي منعتني من هذا فما لا أرضاه لنفسي لا أرضاه لغيري، حتى اتصلتِ بي وجلستِ معي وعلمتُ بوفاة زوجكِ تغيرتْ الأمور تمامًا بداخلي، وبالرغم من أنك تشعرين بالندم لاتصالك بي وتلومين نفسك كثيرًا على هذا، لكنه من وجهة نظري هذا أجمل فعل قمتِ به على الإطلاق»

زاد بصوت يملؤه الأمل:

- «الآن جميع أموري تغيرت.. سافرت بعد علمي بخطبتك ثم رجعت إلى البلد منذ سنتين، وجئتُ إلى هنا فلم يعد أحد لي في المنيا فقد ماتت أمي خلال سفري، وافتتحتُ شركتي الخاصة ونجحتُ بفضل الله في وقت

قياسي وأغدق الله عليَّ من فضله»

ثم همس بصوت يغلبه الرجاء:

«كل شيء في حياتي بمظهره الكامل يصيبه النقصان بغيابك عنه، كل شيء يريد أن يكتمل بك..

فقدتُك من قبل ولا أريد أن أفقدكِ ثانية»

أنهى كلامه بانتظار ردي، ولكنني التزمت الصمت.. نظر في عيني فشعر بعدم اقتناعي، فأكمل كلامه:

- «ألم تفكري في مجريات الأمور؟ ألا تتعجبي من ترتيب الأحداث بهذا الشكل؟

أن تأتوا إلى الإسكندرية، وتعملين في روضة مريم، ونتقابل صدفة، وأن يقودك تفكيرك للاتصال بي بعيدًا عن ندمك بعدها، ألم تفكري أنه لربما أراد الله أن نتقابل في هذا الوقت تحديدًا؛ ليقضي أمرًا كان مفعولًا»

نظر إليّ بترقب وهو ينتظر أن أقول أي شيء، تنهدتُ وأنا أتجه بنظري إلى البحر قائلة:

- «إِنْ كنتَ تنتظر أن تجد حنين التي قمتَ بخطبتها فيجب أن أخبرك أنكَ ستصاب بخيبة الأمل؛ لأنها لم تعد موجودة»

قال مسرعًا:

- «أريد حنين الموجوع قلبها فأضعه على أوجاع قلبي فتذهب جميع الأوجاع بعيدًا ونبدأ من جديد»

نظرتُ إليه وقلت بحدة بصوت متقطع:

- «كفى ضغطًا أرجوكَ.. لن أستطيع، أعتذر إليك ولكنني لن أستطيع»

ظهرتْ علامات خيبة الأمل والحزن على وجهه، وقال:

- «لا أقصد بالتأكيد الضغط عليكِ بكلامي، فمهما فعلتِ فهذا قرارك بالنهاية، ولن أكون سعيدًا إذا أحسستُ أنه تم تحت ضغط مني، ولكنني لن آخذ ردك الآن، خذي وقتك وفكري في كلامي، وتأكدي أنني سأظل دومًا بانتظارك»

قام حمزة من أمامي، وذهب إلى خالي، وسلم عليه وانصرف، جاء خالي وهو ينظر تجاهي، وعلى وجهه علامات التساؤل..

هززت رأسي بالنفي، وأنا أقول:

«لن أستطيع يا خالي.. لن أستطيع»...

●●●

(24)

«الهاتف الذي تحاول الاتصال به ربما يكون مغلقًا أو غير متاح..

حاول الاتصال في وقت لاحق»

وضعتُ الهاتف على قدمي وأنا أفرك بيدي، مسكته ثانية، وأنا ألمس شاشته مسرعة محاولة الاتصال مرة أخرى، سمعتُ أخيرًا صوت رنين الهاتف المتقطع وردت أمي:

- «السلام عليكم»

- «وعليكم السلام يا أمي.. حمدًا لله أخيرًا استطعتُ أن أصل إليكِ.. الشبكة اليوم سيئة للغاية.. طمئنيني على حالكم؟»

- «نحن جميعًا بخير يا حنين.. لا تقلقي يا حبيبتي»

- «والأطفال؟»

- «يلعبون ويستمتعون بوقتهم للغاية»

- «الحمد لله»

- «وكيف الحال عندك؟»

- «الأمور تسير على ما يرام»

- «حسنًا لا أريد أن أطيل عليكِ.. اعتنيا بنفسيكما جيدًا»

- «حاضر يا أمي.. في أمان الله.. مع السلامة»

- «مع السلامة»

أنزلتُ الهاتف من على أذني؛ لأرفعه سريعًا مرة أخرى وأقول:

- «أمي.. هل ما زلتِ معي؟»

أجابت أمى:

- «نعم يا حنين.. كنتُ على وشك أن أغلق الهاتف، هل هناك شيء؟»

قلت:

- «نعم.. نسيت أن أخبرك أن حمزة وجد فرصة عمل براتب جيد جدًّا لآسر، وسنحاول أن نقنعه بها، ربما يوافق ويترك ما هو فيه ويعيش بيننا من جديد»

زفرت أمي بحزن وقالت:

- «أرجو ذلك.. وإِنْ كنتُ أشك بقبوله، فمن الواضح أن الموضوع خرج عن دائرة احتياجه إلى المال لحب تلك الحياة التي يعيشها»

قلتُ:

- «ادعي له يا أمي فلا مستحيل مع الدعاء»

- «يعلم الله يا بنيتي أدعو له ليل نهار أن يرده الله إلى ما كان عليه ويرده إلينا»

سألتها:

- «و ما أخبار مريم هل تنسجم مع براء ومارية؟»

قالت:

- «في البداية كانت تهاب الوضع قليلًا ولكن بعد بضعة أيام اندمجت معهما، وأصبحت تستمتع باللعب، وأصبحوا جميعًا مرتبطين ببعضهم البعض، كما أنني أقوم بسرد الحكايات عليهم، وصنع الألعاب لهم، وأجعلهم يتعاونون مع بعضهم بعضًا»

قلتُ ضاحكة:

- «تمارسين معهم هوايتك القديمة»

ضحكتْ وهي تقول:

- «بالتأكيد»

قلت:

- «وهل تساعدك المربية؟»

- «نعم تساعدني وتقوم بمهامها»

- «وهل ترتاحين بغرفتك؟»

- «نعم.. ولكن أخبرك بشيء؟»

- «تفضلي»

- «بالرغم من رحابة هذا البيت واتساعه وشرفاته المطلة على الحدائق من جهة، وظهور جزء كبير من البحر من جهته الأخرى فإنني أشتاق أحيانًا لشقتنا المتهالكة»

ضحكتُ وأنا أقول:

- «حقًّا!! مازلتُ أتذكر نظرتك عندما دخلنا إليها أول مرة»

تنهدتْ أمي وقالت:

- «وما يبقى على حاله يا حنين.. القلوب بين يدي الرحمن، وما تكرهه اليوم ربما تحبه غدًا وما تحبه اليوم ربما تكرهه غدًا.. كنت أكره تلك الشقة والآن بقلبي حنين إليها.. كنا نستضيف حمزة عندنا بغرفة فوق السطح وهو يستضيفنا الآن في بيته الواسع.. كنتُ أعيب عليه في يوم من الأيام فقره وقلة يده فتجري الأيام ونسير نحن الفقراء ويغتني هو.. كنت لا أتقبله لسنوات طويلة والآن أحبه كثيرًا»

قلتُ ضاحكة:

- «هو يشعر بذلك وأظن أنه سعيد بشعورك نحوه أكثر من سعادته بزواجي منه»

علا صوت أمي بالضحك بعد جملتي، وصمتت برهة ثم أكملت:

- «سيظل الإنسان يتعلم ويتعلم مهما جرى به السن، وستظل تتغير أحواله حتى الموت»

قلتُ:

- «نعم يا أمي سنظل نتعلم طوال حياتنا»

سألتني أمي مسرعة، وكأنها تذكرت فجأة:

- «هل اتصلتِ بوالد هاشم ووالدته؟»

أجبتها:

- «نعم حدثتُهما وطمأنتُهما على الأولاد، وألححتُ عليهما بالزيارة في أقرب وقت»

- «فعلتِ حسنًا»

قلتُ لها بشيء من الحزن:

- «أشعر أنهما يتحدثان معي على مضض منذ أن أخبرتهما بقرار زواجي، ولكنهما متأكدان أنني لن أفعل شيئًا يضر ببراء ومارية بل سيكون في مصلحتهما»

قالت أمي وهي تحاول التخفيف عني:

- «مررتِ بالكثير يا حنين وجاء وقت أن ترتاحي قليلًا يا حبيبتي، وتلقي بقليل من عبئك على كتف آخر يحمل معكِ المسئولية، من حقهما بالتأكيد أن يأخذا وقتهما حتى ينتهي شعورهما بالضيق، ولكن صدقيني ستجري الأيام وسينسيان هذا الموقف بمجرد رؤيتهما للطفلين واطمئنانهما أنهما بخير مع رجل يرعاهما»

زادت بعد أن سمعت زفرتي:

- «على العموم لا تشغلي بالك الآن بهذه الأمور، سيُحل كل شيء لا تقلقي، وسأكلم أنا والدة هاشم وأؤكد عليها الزيارة وأطمئنها.. فنحن الكبار لنا كلامنا الذي نستطيع به وضع الأمور في نصابها الصحيح، استمتعي بوقتك وبأجازتك.. فاختراع شهر العسل وُجِدَ من أجل الاستمتاع لا التفكير»

لوح لي حمزة من وسط البحر، وبدأ يتحرك ويقترب من الرمال متجهًا ناحيتي.. لوحتُ له أنا الأخرى وقلت:

- «حسنًا يا أمي سأتركِكِ الآن ونكمل حديثنا فيما بعد.. وإِنْ حدث شيء اتصلي بي على الفور ولا ترددي»

- «حسنًا يا حنين في أمان الله»

خطى حمزة بقدميه تاركًا أثرها العميق على الرمال واقترب مني، نفض أطراف أنامله على وجهي ببعض قطرات المياه التي تتصبب منه..

ناولته المنشفة فمسح جسده، ثم جلس بجانبي وتناول يدي قائلًا:

«اشتقت لحبيبتي»

ضحكتُ وأنا أنظر إليه متعجبة:

«لم تغب في المياه سوى نصف ساعة واشتقت إليّ؟!»

نظر إلى عيني وقال:

«في قلبي اشتياق لن يرويه شيء سوى قربك لبقية العمر»

احمرت وجنتي خجلًا من كلامه، نظرتُ إلى بساط البحر الأزرق الممتد أمامي قائلة:

- «تغرقني بمشاعرك الجميلة يا حمزة.. أتمنى أن تظل هكذا دائمًا»

قال:

- «إن شاء الله ستكون عقدتنا على حالها كحال عقدة رسول الله وأمنا عائشة»

- «إن شاء الله»

سألني:

- «هل اطمئننتِ على براء ومارية ومريم؟»

- «نعم اطمئننتُ عليهم»

- «وكيف حال مريم معهما؟»

- «منسجمة للغاية ومستمتعة»

قال:

- «أحضّر لهم مفاجأة ستسعدهم كثيرًا ستصل إليهم يوم رجوعنا»

ابتسمتُ وأنا أنظر إليه، وأقول:

- «شكرًا لك يا حمزة كنتُ متخوفة من ردة فعل براء ومارية عندما يجدون رجلًا جديدًا ظهر في حياتنا، ولكنك استطعتَ أن تكسبهما بحسن معاملتك واهتمامك بهما»

ثم قلت بغضب كاذب:

- «وهذا طبعًا بجانب حب مريم الذي أغار منه أحيانًا»

ضحك حمزة قائلًا:

- «أنا أيضًا أحبهم كثيرًا وأشتاق لرؤيتهم جميعًا، أما بالنسبة لحب مريم فأظن أنه بعد انتقالك معنا سينتقل حب مريم إليكِ فهي متعلقة بكِ منذ أن كانت بالروضة»

ربتُّ على يده ومسحتُ عليها، ثم تذكرتُ شيئًا على سيرة موضوع الغيرة، فقلت:

- «حمزة عندي سؤال أريد أن أسألك إياه منذ عشر سنوات»

ضحك حمزة جدًّا، وهو يقول:

- «عشر سنوات وصبرتِ كل هذا الوقت؟!! وما هو يا ترى هذا السؤال؟»

نظرتُ إلى عينيه مباشرة وقلت:

- «مَنْ هي نور؟»

أرجع رأسه للخلف، وهو يعقد حاجبيه:

- «نور.. نور.. مَنْ نور؟»

قلتُ:

- «كانت تقوم بالرد عليك ومناقشتك في بعض الأمور على حسابك على موقع الـ Facebook وكانت تضع علامة إعجاب على جميع منشوراتك التي تنشرها»

هز رأسه متذكرًا:

«نعم.. نعم.. هي أخت عمر -رحمه الله- الكبرى الذي حدثتك عنه من قبل، عمر كان يحدثها عني، وعندما أتيت إلى منطقتكم أرشدني بعض الناس إلى منزلها لأذهب إليها وأعزيها وتفاجأت أنها تعرفني، كانت تتواصل معي وتقول لي إنني أذكرها بأخيها»

ابتسمتُ له ثم صمت، أكمل وكأنه أدرك سبب سؤالي الرئيس:

- «هي كبيرة بالسن ومتزوجة منذ زمن ولديها أولاد أصغر من عمري قليلًا»

ثم ضغط على يدي بحنو واقترب مني باسمًا:

- «حنين.. أنتِ أول حب دخل قلبي ولا حب بعدك»

ابتسمتُ له بخجل، قام حمزة قائلًا:

- «بقيت ساعة على غروب الشمس سأذهب لأسبح قليلًا، فالبحر اليوم رائع»

أومأتُ له برأسي موافقة، عاد إلى البحر بخطى مسرعة حتى توارى جسده شيئًا فشيئًا داخل المياه ولم يتبقَ غير رأسه والجزء الأعلى من كتفيه..

نظرتُ باتجاه الشمس وقد اتخذت من السحب الكبيرة برقعًا لحجب جمالها مرسلة أشعتها الذهبية من بينها في دلال، التي ما إنْ لامست البحر بأناملها الساحرة حتى انفرطت كحبات اللؤلؤ اللامعة على سطحه..

مرت أحداث حياتي جميعها أمامي كشريط تسجيلي..

أحببت حمزة وافترقنا، وتزوجت هاشم وفارقني، عملتُ رغبة في زيادة المال وافتقرنا، مات أبي وهُددنا ورحلنا من بيتنا إلى الإسكندرية، والآن عدت إلى حمزة من جديد..

كنتُ أتخيل أنه سيبتعد عني بعد جلستي معه ورفضي لعرضه، لكنه لم يستسلم ظل يحاول ويحاول، تحمل صدي له، وردودي الجافة، وحدة معاملتي، وقسوة عتابي وهو يردد أمام كل هذا جملة واحدة..

«فقدتُكِ من قبل ولن أفقدك ثانية»..

استطاع حمزة أن يجدد حبه في قلبي ويكسب ثقتي فيه مرة أخرى، فعل الكثير حتى أقتنع بفكرة الزواج بعد أن كانت مرفوضة من قبلي لأسباب عدة..

أحسستُ بصدقه وحسن نيته، والأهم من ذلك بحبه المخلص لي.. حبه الذي دفعه للإصرار والصبر على أفعالي بالرغم من استطاعته بالزواج من أخرى أفضل مني كثيرًا، ويريح نفسه هذا العناء، حبه الذي بث دفأه في قلبي من جديد فمنحه الأمان بعد أن فقده تمامًا، حبه الذي أعطاني الأمل أنه من الممكن أن أنسى ما حدث وأن أعود ثانية لتلك الطفلة الحالمة المفعمة بالمشاعر..

تصيبنا الجراح فتترك في قلوبنا ندوبًا نظن بعدها أن لا شفاء، فيرزقنا الله ولو بعد حين حبًّا صادقًا يكون بلسم العلاج..

عندما أنظر إلى حياتي.. تصيبني الغصة أحيانًا عند تذكر بعض المواقف، ولكني أراها الآن بمنظور آخر.. أصبحتُ أدرك جيدًا أن جميع المواقف التي مررت بها كانت عاملًا أساسيًّا لتربية قلبي؛ فلقد كانت تنقصني الثقة التامة في تدابير الله لي.. فلكم بكيتُ وتعبتُ وفقدتُ الأمل وتذمرتُ ولم أحسن التوكل، ولم أحسن الدعاء، ولم أحسن الظن به، ومع ذلك أرى جميل صنعه ولطف أمره أجمل مما أتوقع، وأستشعر برسالة فأجد صداها في نفسي في كل مرة ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾

فقط لو كنت أحسنت التوكل لأرحت نفسي من عناء جميع المشاعر التي مررت بها من خوف وعجز وقهر..

كنت أجزع وأتألم عند تذكر بعض ما مررت به، والآن أحمد الله عليها؛ فلقد أوصلتني لغاية كنت لا أستطيع أن أصل إليها لولا مروري بها..

وهي إِنْ رضيتُ عن تدابير الله فسيرضني بما يسرني..

وستتشبث بي السعادة كلما تعلقتُ به وحده..

بالله ...

***

مضى شهر العسل سريعًا وحان وقت رجوعنا..

كان حمزة طوال هذه الفترة رائعًا ورقيقًا للغاية، ويحاول أن يسعدني بشتى الطرق..

دلفنا إلى غرفتنا بالفندق بعد عودتنا من الشاطئ وقد تعالى صوت ضحكاتنا من تذكر بعض المواقف لكل واحد منا في الماضي..

نظر حمزة إلى الساعة المعلقة على الحائط، وقال:

- «أمامنا ساعة وسنغادر من هنا»

قلت بحزن طفولي:

- «نعم أمامنا ساعة»

اقترب مني قائلًا:

- «لا تحزني أعدكِ أنه كلما أُتيحت لنا فرصة الهروب سأخطفكِ ونأتي إلى هنا»

قلت:

- «إِنْ كان الخطف سيكون إلى هنا فأنا موافقة على خطفي»

ضحك حمزة من تعليقي، ثم سألني:

- «هل أغراضنا جاهزة؟»

- «نعم جمعت أكثرها بالبارحة وسأجمع بقيتها الآن»

- «حسنًا وخلال هذا الوقت سأستحمى سريعًا لأزيل الماء المالح عن جسدي»

أومأت له برأسي، دخل حمزة إلى الحمام بينما بدأت أنا بجمع بقية الأغراض بحقائبنا، كنت أجمعها وأنا أبتسم شوقًا لاقتراب رؤية براء ومارية فلقد اشتقت إليهما كثيرًا، أتخيلهما وهما يريان مفاجأة حمزة سيسعدان بها جدًّا، ولكن يجب أن أراعي أفعالي من هنا وصاعدًا تجاههما، ولا أُشعر مريم بأي فرق في المعاملة، فمريم أيضًا تلك الصغيرة تحتل مكانة كبيرة بقلبي..

فتحتُ الأدراج لأتناول ما بداخلها، أفرغتُ الدرج الأول والثاني ودفعته لولا أنني لاحظت في آخره أطراف خيوط مجمعة فسحبته ثانية.. أخرجتها ببطء وأنا أضعها على يدي وأتحسس ملمسها وأهمس لنفسي بسؤال مستغربة «ما الذي أتى بها إلى هنا؟» كانت كوفية فلسطينية خشنة الملمس بعض الشيء، ويبرز تطريزها الأسود.. دفعتني أمنيتي القديمة بامتلاك واحدة إلى أخذها وارتدائها حول عنقي أمام المرآة وأنا أنظر إليها يمنة ويسرة..

خرج حمزة من الحمام وهو يضع منشفة على رأسه ويحركها بسرعة؛ ليجفف شعره، ثم أرخاها على كتفيه ورآني، وقف ورائي وهو يفرق بأنامله خصلات شعره المتجمعة من آثار المياه الباقية بها سائلًا:

- «هل أعجبتكِ؟»

أجبته:

- «نعم.. كانت إحدى أمنياتي القديمة أن أمتلك واحدة»

تابعتُ:

- «ولكن ما الذي أتى بها إلى هنا؟ أيكون نساها مَنْ كان يقطن الغرفة قبلنا؟»

قال باسمًا:

«هذه الكوفية ملكي.. آخذها معي إذا سافرت إلى أي مكان»

ظهرتْ علامات السعادة على وجهي، وقلت بلهجة مسيطرة:

- «إذًا فقد صارت ملكي بالتبعية»

نظرت إلى نفسي في المرآة وأنا أضبطها، قربتها من أنفي وشممتها بعمق، وقلت:

- «رائحتها غريبة»

قال:

- «رائحة فلسطين»

رفعتُ حاجبيّ إلى أعلى وأنا أنظر إليه ساخرة:

- «مَنْ يسمعك وأنت تتكلم هكذا يقول إنك تعرف رائحة فلسطين»

اتجه إلى المشجب والتقط قميصًا، وهو يقول:

- «هو مَنْ أخبرني بذلك»

التفتُّ إليه مستغربة:

- «مَنْ هو؟»

قطع حوارنا صوت دقات تطرق الباب، فتح حمزة فأخبره أحد العاملين بالفندق أن السيارة في انتظارنا..

نزعتُ الكوفية سريعًا ووضعتها بجيوب إحدى الحقائب، وأكمل حمزة ارتداء ملابسه، صعدنا إلى السيارة بينما نقل أحد العاملين حقائبنا..

أخبرتُ أمي من قبل موعد عودتنا، ولكنني أوصيتها ألا تخبر الأولاد ليتفاجئوا بقدومنا..

التقط حمزة هاتفه بعدما سمعنا رنينه، وهو ينظر إليه قبل أن يجيب، وقال:

- «يتصلون بي من الشركة»

أجاب:

- «نعم.. نعم يا هيثم.. أنا بخير الحمد لله.. أنا في الطريق الآن وسأمر على الشركة غدًا»

صمتَ بضع دقائق، ثم قال:

- «ألم يخبرك مَنْ هو؟ حسنًا سأرى هذا الأمر عندما أعود.. مع السلامة»
أغلق الهاتف واتجه إليّ سائلًا:
- «موعد زيارة خالة مديحة للطبيب غدًا.. أليس كذلك؟»
- «بلى»
قال:
- «حسنًا سنذهب للطبيب أولًا، ثم نرجع إلى الشركة لأطمئن على أمورها كيف كانت في غيابي، ثم نعود»
قلت:
- «لا تشغل بالك بالأمر، اذهب أنت إلى الشركة وسيوصلنا السائق أنا وأمي إلى الطبيب»
- «لا لا سأذهب معكما، سأمر مرورًا سريعًا غدًا، وسأبدأ العمل من بداية الأسبوع القادم إن شاء الله، أريد أن أقضي بقية هذا الأسبوع معك ومع خالة مديحة والأولاد»
- «فكرة جيدة.. فالأولاد يفتقدونك بالتأكيد خاصة مريم»
- «نعم أشعر أنها غاضبة مني؛ لأني تركتها كل هذا الوقت»
أكملتُ كلامه:
- «وتشعر بالغيرة أيضًا.. فعم حمزة صار لديه حبيبة تشغله عنها،

ويجب أن نراعي هذا الأمر، ولا تشعرها أن اهتمامك قَلَّ بها.. بل تزداد بها اهتمامًا»

أومأ لي برأسه موافقًا، وهو يلتقط يديّ مبتسمًا، ويحتضنهما بين يديه..

قطب حاجبيه، وكأنه تذكر شيئًا، وقال:

- «لا أعلم مَنْ الرجل الذي حدثني عنه هيثم»

- «أي رجل؟»

- «قال لي إنه أتى رجل إلى الشركة منذ ثلاثة أيام أعرج ولكنته غريبة يسأل عني، ورفض إخبارهم باسمه، ويأتي كل يوم في الموعد نفسه، وعندما لا يجدني يرحل»

قلتُ:

- «ربما يكون أحد أصدقائك القدامى»

- «ليس لدي أصدقاء بهذه المواصفات»

- «ربما يكون أحد المحتاجين»

- «ومن أين يعرفني؟ وإذا كان محتاجًا سيطلب من أي شخص بالشركة ولا يطلبني تحديدًا»

اتجه برأسه نحو النافذة:

- «عامة لن أشغل بالي بالأمر.. سأنتظر حتى أذهب إلى الشركة وأعرف مَنْ هو»

- «معك حق»

كان الطريق خاليًا مما ساعدنا في الوصول إلى البيت سريعًا، قابلنا حارس البناية مُرحبًا هو وزوجته وبدءا بإنزال الحقائب من السيارة..

ركبنا المصعد متجهين إلى الشقة وبداخلي شعور كبير بالفرحة؛ لأنني سأرى الأطفال أخيرًا بعد هذه الفترة كلها..

فتحنا باب الشقة ببطء وكانت أمي في استقبالنا، سلمنا عليها، وهمست لها سائلة:

- «أين هم؟»

أشارت بيدها إلى الغرفة، اتجهنا نحو الغرفة بخطى خفيفة وفتحنا الباب فجأة..

قفز براء ومارية صارخين فرحًا عند رؤيتنا فجريا نحونا وهما يتسلقانا ويحتضناننا، وبقيت مريم في مكانها تنظر إلينا، جثوتُ على ركبتيّ وأنا أحتضن مارية بذراعي وفاتحة ذراعي الآخر لمريم قائلة:

- «حبيبتي مريم.. اشتقت إليكِ»نظرت إليّ وبقيت مكانها ولم تحرك ساكنًا، تقدم إليها حمزة بعد أن أنزل براء وحملها فوق كتفيه مداعبًا:

- «اشتقنا إليكِ يا مريم.. يا مريم.. يا مريم.. يا مريم»

قمتُ وأنا أتصنع الذعر قائلة:

- «لقد علق الرجل الآلي ويجب الضغط على الزر حتى يتوقف»

قال براء متحمسًا:

- «وأين هو الزر؟»

همستُ بصوت مسموع:

- «ما دام علق وهو ينادي اسم مريم فيجب هي مَنْ تضغط عليه»

ابتسمت مريم ونظرت إلى حمزة الذي ما زال يردد اسمها.. أخذت تلمس بيدها شعره وكتفه وعينه حتى لمست أذنه فتوقف..

هللتُ فرحة:

- «لقد وجدت مريم الزر» فهلل براء ومارية معي وبدأت مريم في الضحك، وحمزة يدور بها، ونحن وراءه احتفالًا بها لاكتشافها الزر..

قطع احتفالنا جرس الباب.. فقال حمزة:

- «حان موعد المفاجأة»

انطلق براء ومارية كالصاروخين خارجًا، وأنزل حمزة مريم التي تبعتهما عدوًا.. خرجنا وراءهم ونحن نضحك من سرعتهم..

استلمت الخادمة طردًا كبير الحجم ساعدها حمزة في نقله إلى منتصف الصالة ووضعه على الأرض..

كان الشغف يقفز من عين الأطفال وهم ينظرون إليه حتى بدأ حمزة في

فتحه، فظهرت ثلاث علب كبيرة الحجم متراصة بجانب بعضها.. تطلعوا إليها بشغف والفرحة تجتاح وجوههم..

أمرهم حمزة بفتح العلب وإخراج لعبهم، ففتحوها سريعًا وبدأوا في اكتشاف اللعب، لكن حمزة طلب منهم النظر جيدًا داخل العلب، فنظروا مرة أخرى وأخرج كل واحد منهم مظروفًا وهَمَّ بفتحه فوجدوا بداخلها بطاقة.. علق حمزة:

- «هذه هي المفاجأة.. تذاكر لمدينة الألعاب المائية وسنذهب إليها السبت القادم»

صاح الأولاد فرحًا وهم يقفزون ويعدون على أصابعهم الأيام؛ ليعرفوا كم بقي على يوم السبت..

شعرتُ بالفرحة كثيرًا، وأنا أرى تلك السعادة العارمة على وجوههم وبالامتنان إلى حمزة الذي نجح في تعويضهم عن فترة غيابنا عنهم..

قضينا ذلك اليوم وحمزة يلاعب الأطفال ويشاغبهم، وجلست أنا بجانب أمي أحدثها، كنت مشتاقة لها كثيرًا ولجلستنا اليومية التي اعتدت عليها..

أخبرتني أن خالي أتى لزيارتها هو وزوجته مرتين خلال شهر أجازتنا ، وأن زوجة خالي تحسنت معاملتها خلال هاتين الزيارتين، وكيف أنها لامت على خالي كثيرًا لتحويل أوراقه إلى القاهرة، فكان بإمكانهما أن يعيشا معنا بهذا البيت الواسع، وطلبت من أمي وهي ذاهبة أن توصي حمزة بإيجاد أي عمل مناسب لخالي في شركته براتب أفضل مما هو عليه الآن

مما دفع خالي للعراك معها وإخبارها أنه لن يترك عمله.. وعلقت أمي قائلة:

- «لا أفهم ما يدور برأس تلك المرأة.. هداها الله»

تأخرنا في النوم جميعًا ليلتها، فلم يرغب الأولاد في النوم تلك الليلة؛ لكي يستمروا في اللعب مع حمزة ولكنهم استسلموا من التعب في النهاية وغطوا في نوم عميق، استيقظنا باكرًا صباح اليوم التالي لكي نذهب إلى طبيب أمي الذي قام بفصحها وطمأننا أنها بخير، ولكنها تعاني من بعض الاضطراب في الضغط، وهمس لي أنا وحمزة دون أن تسمع هي أنه يشك أن السبب هو نفسيتها غير المستقرة.. عرفت السبب فور إخباري الطبيب بهذا، فبالرغم من استقرار أمورنا وتغيرها للأفضل فإن موضوع آسر ما زال يحزنها ويؤثر بقلبها..

رجعنا مع حمزة إلى الشركة ليطمئن على أمورها ونرحل جميعًا معًا.. بقيت أمي بالسيارة وذهبت أنا معه..

دخلنا مكتبه وأخبره هيثم، الذراع الأيمن لحمزة بالشركة أنه سيجد ملفًا به بعض الأوراق التي تحتاج إلى الإمضاء، وملفًا آخر به بعض الأعمال المتوقفة على اتصالات يجب أن يجريها حمزة بنفسه..

بدأ حمزة بالاطلاع على الملفات والقيام بعمله بشكل سريع حتى انغمس تمامًا ولم يشعر بوجودي، سكتُ ولم أنطق ببنت شفة، كنتُ أراقبه بشغف فهذه أول مرة أراه وهو يعمل..

مضى القليل من الوقت، فالتقطتُه من انغماسه قائلة:

- «هل ما زال أمامك الكثير؟»

رفع رأسه بسرعة وكأنه انتبه لوجودي..

أكملتُ:

- «مضت ربع ساعة ولا أريد أن نتأخر على أمي، فهي تجلس وحدها بالسيارة، إِنْ كنتَ منشغلًا يمكننا أن نذهب أنا وهي إلى البيت»

قال:

- «آسف انهمكتُ في العمل ولم أشعر بالوقت، سنتحرك الآن وسأجري الاتصالات من البيت»

أغلق الملف الذي بين يديه والتقط الملف الآخر، أطل هيثم برأسه من الباب بعد أن طرقه، وقال بصوت منخفض:

- «سيد حمزة.. الرجل الذي أخبرتك عنه، أتى الآن ويسأل عنك.. هل أخبره أنك هنا أم أتركه يرحل؟»

قال حمزة وقد بدا الاهتمام على وجهه:

- «أدخله الآن»

غاب هيثم دقيقتين، سمعنا صوت طرقاته وهو يفتح الباب، ثم دلف الرجل إلى الغرفة بعرجته..

وقف حمزة ببطء وهو ينظر إلى الرجل بتمعن فاغرًا فاه متسعة عينيه من المفاجأة، وقال مندهشًا:

- «غسان!!!»

اقترب الرجل أكثر، وأومأ له برأسه مبتسمًا، جرى حمزة تجاهه واحتضنه بقوة، ثم أفلته وهو يتحسس كتفيه، وما زالت المفاجأة تتملكه، فقال بصوت متقطع:

- «ولكن.. ولكن..كيف.. أليس من المفترض أن تكون .....؟!»

قال بصوت منخفض:

- «سأشرح لك كل شيء ولكن ليس هنا»

قال حمزة:

- «حسنًا سنذهب الآن إلى أي مكان مناسب نجلس به حتى أفهم.. ما زلت غير مصدق.. أشعر كأنه حلم وسأفيق منه»

انتبه حمزة لوجودي، فقال للرجل وهو يشير تجاهي:

- «أعرفك بزوجتي.. حنين»

بدت السعادة على وجه الرجل، وقال متفاجئًا:

- «تزوجتها؟!»

نظر إليّ حمزة مبتسمًا، وقال:

- «نعم»

- «لذلك رجعت إلى هنا؟»

- «لا.. تقابلنا صدفة.. وكان سبب لقائنا مريم»

قفز الشوق إلى عيني الرجل وقال بصوت حاني:

- «مريم»

- «لا تقلق.. هي في الحفظ والصون»

ثم سأله حمزة مسرعًا وكأنه تذكر شيئًا:

- «ولكن أين أسيل؟»

طأطأ الرجل رأسه إلى الأرض أسفًا، وقال:

- «توفيت»

ظهر الحزن على وجه حمزة، وربتَ على كتفه، وقال:

- «هون عليك يا صديقي»

ثم قال له:

- «هيا لنخرج من هنا.. فأنا أحتاج لسماع الكثير منك كي أفهم»

تقدمنا الرجل متجهًا إلى الخارج، أخذني حمزة من يدي وسرنا وراءه.. لم أكن أفهم شيئًا مما جرى.. مَنْ هذا الرجل؟ ومِنْ أين أتى؟ ومَنْ أسيل التي يسأل عنها حمزة؟..

وصلنا إلى السيارة وجلستُ بجانب أمي في الخلف بينما جلس الرجل في المقعد الأمامي..

أشارت إليَّ أمي بيدها متسائلة عن الرجل، رفعت كتفي وأخرجت شفتي السفلي قليلًا أجيبها بأنني لا أعرف..

انطلق حمزة في طريقه، وبدأ هو والرجل في الحديث عن الماضي وسرد بعض الذكريات بينهما، ظللنا أنا وأمي صامتتين حتى وصلنا إلى إحدى المقاهي ذات الطراز الحديث جلسنا على أريكتين حول طاولة بجانب نافذة تطل على كوبري استانلي*.. جاءنا النادل وطلبنا بعض المشروبات الباردة، أكمل حمزة والرجل حديثهما، فقررت أمي قطعهما لإشراكنا في الحوار قائلة:

- «لكنتك غريبة يا بني، من الواضح أنك لستَ من هنا»

أجاب حمزة مسرعًا:

- «يا إلهي.. أخذنا الكلام ونسيت أن أعرفكما على غسان»

نظر إلينا وتابع:

- «غسان فلسطيني الجنسية وزوجته أسيل سورية، تعرفت عليهما في أثناء سفري، كانا يسكنان في البناية نفسها التي أسكن بها.. اهتما بي وبأموري عندما عرفا ما مررت به وتقاربنا من بعضنا يومًا بعد يوم، اكتشفت

* إحدى الكباري الشهيرة بالإسكندرية

أن غسان يحب علم البرمجيات مثلي فأنشأنا أنا وهو شركة صغيرة هناك، وأثبتنا نجاحنا بوقت قصير، وبدأنا بجمع الأموال لتكبير شركتنا وتزويد العمالة بها، وفي هذه الأثناء رُزق غسان وأسيل بمريم، وكانت من أجمل الأشياء التي حدثت لنا»

أكمل حمزة:

- «ارتبطتُ بمريم جدًّا، وصرتُ ملازمًا لها في كثير من الوقت، وأحبتني هي وتعلقت بي، كانت لا تهدأ إلا مع أبيها وأمها وأنا.. اختلف كل شيء بعدما وُلدت وحلت بركة مجيئها على حياتنا.. كان كل شيء يسير على ما يرام.. الشركة تدر الأموال ومريم تكبر شيئًا فشيئًا، وتزداد جمالًا، وأزداد تعلقًا بها، تحسنت معيشتنا»

تنهد حمزة وتابع:

- «حتى ذلك اليوم عندما شاهدنا تلك الغارات الجوية على سوريا، وازداد عدد القتلى والجرحى بها، جَنَّ جنون أسيل حينها فالقصف كان على القرية التي تعيش بها أسرتها، وانقطعت الخطوط فلم تتمكن من الاتصال بهم للاطمئنان عليهم، اتصل بها ابن عمها الذي يعيش بالخارج أيضًا وأخبرها أنه تمكن من التوصل إليهم ومعرفة أحوالهم وأن أباه أُصيب إصابة بالغة جراء القصف ويشعر باقتراب الأجل ويريد أن يراها، هرولت أسيل بجمع أشيائها ورفضت الانتظار حتى تهدأ الأمور وتنتهي

الغارات بتلك المنطقة، أخبرني غسان أنه لن يتركها تسافر إلى هناك وحدها وسيسافر معها، ولكنهما سيتركان معي مريم؛ خوفًا عليها من أن يحدث أي شيء مفاجئ كما أنهما لن يستغرقا أكثر من أسبوع وسيعودان»

زاد، وهو ينظر تجاه غسان:

– «سافرا وتركا لي مريم، تابعتهما طوال الطريق حتى وصلا إلى هناك وانقطعت الاتصالات.. مر أسبوع ثم الثاني والثالث، شهر ولم يعودا واختفى أثرهما.. اتصلت بابن عم أسيل فأخبرني أنه لا يعلم شيئًا وطلب مني أن أعطيه يومين، وسيحاول خلالهما أن يصل إلى أية معلومات عنهما.. مرت أربعة أيام واتصل بي بعدها وأخبرني بصوت يشوبه الحزن أنه في أثناء مرورهما بإحدى القرى القريبة من قرية أسيل وهما في طريقهما إلى المطار، تعرضت تلك القرية للقصف وقُصفت شاحنتهما ومات السائق وكل من فيها»

بدأ صوت حمزة يتغير إثر تذكره لشعوره حينها قائلًا:

– «بكيت وقتها كما لم أبكِ من قبل، احتضنت مريم بقوة وأقسمتُ أن أُحسن تربيتها وأحافظ عليها برًّا ووفاءً لغسان وأسيل وما فعلاه معي، ولكن مع مرور الوقت بدأت أشعر بالوحشة الشديدة في غربتي خاصة بعد رحيلهما، فقررت حينها أن آخذ مريم وأعود إلى هنا، ورجعتُ بالفعل منذ سنتين وبضعة أشهر وافتتحت شركتنا»

اغرورقت عينا غسان بالدموع بعد أن انتهى حمزة من كلامه.. ربتَ حمزة على كتفه وقال:

- «واليوم كانت المفاجأة أن غسان ما زال حيًّا يُرزق»

ثم سأله:

- «والآن أخبرني يا صديقي ماذا حدث معك؟ وكيف أخبرني ابن عم أسيل أنكما قُتلتما وأنت مازلت على قيد الحياة؟ وكيف ماتت أسيل؟»

خَيَّمَ الصمت لدقائق، ثم أكمل غسان متأثرًا:

«بالفعل تم قصفنا كما أخبرك ابن عم أسيل رحمها الله في أثناء مرورنا بإحدى القرى المؤدية إلى طريق المطار، ماتت أسيل ومات كل مَنْ كان في الشاحنة إلا أنا وشخص آخر كانت إصابتنا خطيرة.. أنقذنا أهل القرية واستطاعوا نقلنا إلى مكان آخر به مشفى، ولكن كانت الاتصالات منقطعة عن هذا المكان، نجحوا في إسعافنا بالرغم من إمكاناتهم المتواضعة وكانوا متعجبين من نجاتنا وأخبرونا أننا حيِينا فقط؛ لأن الله أراد لنا ذلك، بقينا فترة طويلة بذلك المشفى حتى تحسنت حالتنا قليلًا وهدأت الأوضاع لكن أصيبت قدمي إصابة بالغة ولم أستطع المشي، فتم نقلي إلى مشفى آخر بإحدى الأماكن إمكانياته الطبية أفضل حتى يجدوا حلًّا لذلك، وهناك أخبروني أنه يجب إجراء عملية، وسيرون بعدها هل أستطيع أن أمشي عليها مرة أخرى مع العلاج الطبيعي أم لا.. أُجريت العملية الحمد لله ونجحت وبقيت بعدها

سنة أمارس العلاج الطبيعي حتى استطعت المشي عليها ثانية، وخلال هذه الفترة كنت أقوم بالاتصال عليك كلما أُتيحت الاتصالات فأجد هاتفك خارج الخدمة، اتصلت بابن عم أسيل وأخبرني أنه قال لك نبأ وفاتنا ومن وقتها لا يعلم عنك شيئًا، اتصلتُ بهواتف الشركة كثيرًا وما من إجابة، ولم أستطع إرسال رسالة إلى بريدك الإلكتروني فحاسوبي وهاتفي الذكي ذهبا مع الحادث، بقيت حتى أخبرني الأطباء أنني الآن أستطيع التحرك بمفردي، وكان أول ما فعلته تحركي إلى المطار مباشرة فأخذت طائرة العودة، حمدت الله أن جواز سفري كان بجيبي في أثناء الحادث وإلا كان ذهب مع بقية الأشياء ولم أستطع السفر، وفور وصولي عدتُ إلى بنايتنا وتفاجأ صاحبها عند رؤيتي حتى كاد أن يغشى عليه، وأخبرني أنك تركتَ المكان فلم تعد تتحمله بعد رحيلنا، طلبتُ منه أن أستخدم حاسوبه.. ظننتُ أنك من الممكن أن تعيد افتتاح شركتنا في المكان الذي ذهبت إليه.. وصدق حدسي عندما دخلت إلى موقع الشركة وجدت تنويهًا أن جميع نشاطات الشركة تحولت إلى مصر ومكتوب عنوانها الجديد، عرفتُ حينها أنك جئت إلى هنا، وذهبتُ بعدها إلى البنك فأخبروني عندما تأكدوا من هويَّتي أنه تم عمل حساب باسم مريم وتحولت جميع أموالي إليه، ونصيبي من الشركة، أما حساب الشركة الأساسي فقد تم تحويله إلى فرع مصر..حجزتُ تذكرة في أول طائرة قادمة إلى هنا وذهبتُ إلى شركتك.. لم أشأ أن أخبرهم مَنْ أنا، وأحببت أن ألتقيك بنفسي، والحمد لله أنني وجدتك اليوم»

انتهى غسان من كلامه وهو ينظر إلى حمزة باسمًا.. تنهدت أمي مستغربة، ثم قالت وهي تضرب كفيها ببعضهما:

- «سبحان الله سنظل نرى العجائب في هذه الدنيا حتى نموت»

قال غسان:

- «كل شيء في هذه الدنيا يقدره الله لسبب.. ومن المؤكد أن كل هذا حدث لسبب ما.. ربما حدث هذا كله ليقرر حمزة العودة إلى هنا ويلتقي هو وحنين مرة أخرى ويتزوجان»

ثم التفتَ إليّ قائلًا:

- «حكى لنا حمزة عنكِ كثيرًا، وكان حزينًا للغاية لأنه لم يستطع الارتباط بك ولن أُخفي عليك ألححنا عليه مرارًا وتكرارًا أنا وأسيل في أمر الزواج، وكنا نأتي له بالفتيات، وكان يرفض تمامًا وأحيانًا كان يوقفنا مازحًا أنه ينتظر مريم حتى تكبر وسيتزوجها»

نظرتُ إلى الأرض خجلًا من كلامه..

اتجه إلى حمزة سائلًا:

- «ولكن كيف تزوجتما؟»

- «قصة طويلة سأخبرك تفاصيلها لاحقًا»

أومأ برأسه ثم قال:

- «هل سنذهب الآن إلى البيت؟ أشتاق لرؤية مريم كثيرًا.. أوحشتني تلك الصغيرة»

قال حمزة بحماس:

- «بالتأكيد ستتفاجأ كثيرًا عند رؤيتك وستفرح»

قاطعتهما:

- «مع احترامي لرغبتك يا سيد غسان.. أنا أعلم مدى اشتياقك لمريم.. ولكنها لم ترك منذ عامين، بالتأكيد ستتعجب من ظهورك المفاجئ مرة أخرى، وربما لن تتذكرك ولن يستوعب عقلها هذه الأحداث كلها، ولو أخذتها من بيننا فجأة سيؤثر هذا على نفسيتها كثيرًا»

علقت أمي:

- «إِنْ كنا نحن الكبار لم نستوعب بعد فما بالها الصغيرة»

وأكد حمزة:

- «معكِ حق فيما تقولين»

قال غسان مستنكرًا:

- «هل معنى هذا أنني لن أستطيع أخذها اليوم؟!»

قلتُ:

- «لا للأسف»

– «ومتى أستطيع أخذها؟»

أجبته:

– «أنا أرى أن تظل مريم كما هي بيننا، وتأتي أنت لزيارتنا وتقضي اليوم معنا حتى تعتاد عليك من جديد فتأخذها حينها»

قال مستنكرًا:

– «ولكن ليس لدي وقت لهذا فموعد طائرتي يوم الثلاثاء القادم»

سأله حمزة متعجبًا:

– «ولِمَ العجلة؟»

قال:

– «غبتُ سنتين يا حمزة والكثير يعتقد أنني ميت.. يجب أن أُعيد إجراء الكثير من الأشياء، وسأبدأ ببناء كل شيء من جديد فلا يوجد وقت أضيعه»

صمتَ برهة ثم قال متحمسًا:

– «لماذا لا تعود معي ونفتح شركتنا من جديد، وتترك أي شخص تثق به لإدارة فرع الشركة هنا، ونتابع عملها أيضًا وتلحقك زوجتك بعد ذلك ونعيش هناك معًا من جديد»

قال حمزة:

– «سافرتُ في البداية لأن جميع الأبواب أُغلقت بوجهي أما الآن فلا

جدوى من السفر بعد أن تزوجنا.. سأتابع أنا فرع الشركة هنا وتهتم أنت بالشركة هناك ونتواصل معًا»

قلتُ:

- «لنعُد إلى موضوعنا الأساسي مريم.. أرى أنه ما دام اقترب موعد سفرك يا سيد غسان، إذًا يجب أن تبدأ بالمجئ إلى بيتنا من اليوم.. فاليوم الأربعاء وبقي أقل من أسبوع على سفرك، وأتمنى أن يكون هذا وقتًا كافيًا لتستوعب مريم الأمر، وتذهب ونحن مطمئنين أنها ستكون بخير»

قالت أمي:

- «نعم يجب أن نطمئن عليها أنها لن تشعر بالخوف من هذه التغيرات المفاجئة.. يكفيها يا حبيبتي أنها فقدت والدتها»

قمنا متجهين إلى البيت بعد أن اتفق الجميع على اقتراحي.. أتى حمزة ببعض الحلوى قبل وصولنا إلى البيت وأعطاها لغسان لكي يعطيها للأولاد، فهذا مدخل جيد ليتقبلوه ويقبلوا عليه، وصلنا إلى البيت وكان بانتظارنا الأولاد كعادتهم لكنهم انكمشوا قليلًا عند رؤية غسان.. اغرورقت عين غسان بالدموع عند رؤية مريم.. مَدَّ ذراعيه لها وناداها بحنو:

- «مريم»

بقيت في مكانها وهي تتمعنه وتحاول أن تتذكره، لكنها اختبأت خلف رجل حمزة عندما ناداها ثانية، حملها حمزة واقترب بها إلى غسان، فأعطاها

شيئًا من الحلوى التي معه فأخذتها منه وابتسمت له، مسح غسان على شعرها وقبلها، كنتُ أوصيته قبل أن نصعد أن يعاملها بلطف ولا ينكب بمشاعره عليها فتخاف، وستعتاد عليه رويدًا رويدًا، ظل براء ومارية بمكانهما وهما يتابعان الموقف وتبدو عليهما علامات التساؤل مما يحدث، أخبرتهما بصوت منخفض أنه والد مريم.. ظهرت الدهشة على ملامحهما دون أن ينطقا..

بقي غسان معنا طوال هذا اليوم يلاعب الأطفال هو وحمزة وكان سعيدًا للغاية أن مريم بدأت تعتاد عليه وتلاعبه، دخلتُ إلى المطبخ لمساعدة الخادمة سمر في تحضير العشاء، أتى براء بجانبي وأنا أقطع الخضروات على اللوح الخشبي لتحضير السلطة، وقال:

- «أمي»
- «نعم»
- «هل ستذهب مريم اليوم مع والدها؟»
- «لا ليس اليوم.. بعد عدة أيام إن شاء الله»
- «ولكن كيف عاد والدها؟ ألم تخبريني أن أباها وأمها ذهبا إلى الله»
- «اممم، كان من المفترض أن يكون ذهب إلى الله ولكن تفاجأنا اليوم أنه ما زال بيننا»
- «وهل هذا يعني أنه من الممكن أن يفاجئنا أبي ذات يوم ويأتي أيضًا؟»

نظرتُ إليه وقد علتْ المفاجأة وجهي من كلامه، تابع:

- «ألم تخبريني أن أبي ذهب إلى الله إذًا يمكنه أن يعود كما عاد والد مريم»
تركتُ ما في يدي ونزلت على ركبتيّ لتكون عيني بعينه وقلت:
- «براء حبيبي، أبوكَ وضع مختلف.. فأبوك لن يعود لأنه الآن بمكان أفضل إن شاء الله فلماذا يعود.. نحن مَنْ سنذهب إليه»
قال متفاجئًا:
- «حقًّا؟»
أومأت له برأسي قائلة:
- «نعم.. سنذهب جميعنا إلى هناك إن شاء الله وسنلعب ونمرح وسنأكل رقائق البطاطس كما يحلو لنا فلن تكون وقتها مضرة والآيس كريم أيضًا فلن يكون هناك شتاء قارص»
اتسعت حدقتا براء ولمعت عيناه حماسة وهو يقول:
- «حقًّا؟»
- «نعم.. أرأيت، أليس من الأفضل أن نذهب نحن له بدل أن يأتي هو»
- «نعم ذلك أفضل كثيرًا»
سألني:
- «ومتى سنذهب إليه؟»
- «عندما يشاء الله»
سرح براء بخياله قليلًا، فقاطعته قائلة:
- «هيا الآن اذهب وامرح معهم ريثما يُوضع طعام العشاء»

أومأ لي برأسه وهَمَّ بالذهاب.. ناديته بعد أن خرج:

- «براء»

- «نعم يا أمي»

- «بأية نكهة ستطلب رقائق البطاطس حينها؟»

عقد ذراعيه ووضع يده اليمنى تحت ذقنه مفكرًا، ثم قال بعد تفكير عميق:

- «بالفراولة»

تعجبتُ من اختياره وأنا أقول:

- «أتوق لتذوقها معك»

ابتسم لي براء ثم ذهب.. وضعنا العشاء وأكلنا جميعًا وودعنا غسان بعدها ورحل..

أتى بعدها يومين آخرين فلزمنا فيهما طوال اليوم، ويلعب مع الأطفال وبالأخص مريم حتى أتى يوم السبت وذهبنا جميعًا إلى مدينة الألعاب المائية، سعدوا الأطفال كثيرًا فهذه أول مرة يذهبون إلى هناك، مر اليوم سريعًا واستأذننا غسان أن تبيت معه مريم ابتداءً من الليلة لكن حمزة عارضه قائلًا:

- «لا يا غسان ستبقى مريم معنا لموعد السفر حتى لا تتأثر»

قاطعته:

- «بعد إذنك يا حمزة ولكن أرى أن اقتراح السيد غسان مناسبٌ بهذا الوقت، يجب أن تبيتَ معه مريم هذين اليومين قبل السفر حتى تعتاد أنها

ستكون بجانبه، كما أنها اعتادت عليه في الأيام السابقة، وأظنها لن تشعر بالخوف إِنْ ذهبت معه وسنقوم بتبديل الأداور، ونحن مَنْ سنأتي لزيارتها بالفندق»

ظهر الضيق على وجه حمزة وهو يومئ برأسه موافقًا، أخذ غسان مريم وقمنا بوداعهما وإخبارها أننا سنأتي لزيارتها غدًا، رجعنا إلى البيت، ونام براء ومارية فورًا من فرط الإرهاق، وأخبرتني الخادمة أن أمي ذهبت للنوم منذ ساعة، دخلنا إلى الفراش بعد أن بدلنا ملابسنا، ومازالت علامات الضيق على وجه حمزة وهو ينظر إلى السقف..

قلتُ وأنا أنظر إليه:

- «أظن أن أحدًا هنا متضايق من ذهاب مريم وكان يرفض ذهابها ليس لأنها لم تعتد كما ادعى ولكن لأنه لا يريد ذلك من الأساس»

أشاح حمزة بنظره بعيدًا قائلًا:

- «لا أتخيل فراقها يا حنين فجأة هكذا، لازمتني آخر سنتين من عمري.. نفطر معًا ونأكل معًا وننام معًا ونسافر معًا.. اعتدتُ على وجودها بحياتي»

التقطتُ يديه وربتُّ عليها:

- «أعلم جيدًا ما تمر به يا حمزة، ولكن ألا ترى معي أن غسان ظهر بالوقت المناسب.. فبعد زواجنا تغيرت الأمور كثيرًا.. كنت تنام بجانب مريم ستنام الآن بجانبي.. كنتما تأكلان بمفردكما الآن سنأكل جميعًا معًا..

هذه التغيرات الكبيرة كانت ستؤثر عليها بالتأكيد بشكل سلبي، وأنا أرى أن الله أرسل إليها غسان بهذا الوقت لنبقى بذاكرتها ذكرى طيبة جميلة لم تجرحها أو تؤذيها يومًا»

هز رأسه مؤيدًا لكلامي.. زدتُ:

- «كما أننا سنتواصل معهما دومًا وسنكلمهما باستمرار فالإنترنت الآن قَرَّبَ كل شيء فلم يعد أحدٌ بعيدًا»

نظر إلي ثم قال:

- «الحمد لله أنكِ معي.. فلو تركتني مريم وأنا وحدي كنتُ سأتأثر كثيرًا فما يخفف عني ذهابها هو وجودك بجانبي أنتِ وبراء ومارية والخالة مديحة»

مسحتُ بيدي على وجنته ولحيته ببطء، وأنا أبتسم له قائلة:

- «نحن أيضًا نشعر بالسعادة لأنك معنا»

تابعتُ وأنا يغلبني التثاؤب:

- «يجب أن ننام الآن حتى نريح أجسادنا من إرهاق اليوم حتى نستطيع الاستيقاظ غدًا باكرًا للذهاب إلى مريم»

أومأ لي برأسه وقال:

- «تصبحين على خير»

- «وأنت من أهله»

أطفأنا الأباجورات المجاورة للسرير، وغططنا في نوم عميق.. مرت الأيام بعدها سريعًا ونحن نذهب إلى مريم ونقضي معها اليوم بأكمله.. لم

أشعر بخوفها بل بالعكس شعرتُ بسعادتها واختلافها بجوار غسان حتى أتى يوم سفرهما، أوصلنا غسان ومريم إلى المطار، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها دموع حمزة وهي تجري على وجهه وهو يحتضنها، ودَّعناهما على وعد من غسان أن يأتيا لزيارتنا مرة أخرى قريبًا، وأنه سيبقى على تواصل معنا كي نطمئن عليهما باستمرار.. بدءا بالابتعاد شيئًا فشيئًا ونحن نراقبهما من وراء الحاجز الزجاجي حتى وقفا أمام بوابة فلوَّحا لنا واختفيا من أمام أعيننا متجهين لليمين..

رجعنا إلى البيت، ودخل حمزة إلى غرفته، وأغلق عليه الباب.. لم أحب أن أقتحمه وتركته؛ فمن حقه أن تأخذ مشاعره وقتها في الحزن.. خرج حمزة بعد بضع ساعات وقد بدا أفضل حالًا.. احتضنته فور خروجه، ثم قلت له باسمة:

- «اشتقنا إليك»

تصنعتُ الغضب وأكملتُ:

- «بالمناسبة بدأت أغير من مريم»

فضحك حتى بدت نواجذه، تابعتُ:

- «هيا انضم إليهم على المائدة، دقائق وسيكون العشاء جاهزًا»

أومأ لي حمزة برأسه واتجه إليهم.. سمعت أمي وهي تحكي له عن بعض ذكرياتها مع أبي رحمه الله عند أول زواجهما، وكم مرة أحرقت فيها الطعام، وكان أبي يتناوله رغمًا عنه لكي لا تغضب حتى جاء يومًا

وصارحها أنه لن يغامر بصحته بأكل هذا الأكل ثانية وبدأ يعلو صوت حمزة بالضحك..

انتهينا أنا والخادمة من وضع الأطباق على المائدة، وأخذتُ أنا الأخرى في سرد بعض المواقف المضحكة التي حدثت لي عندما كنت صغيرة مع أبي وأمي..

كنا نحاول أنا وأمي أن نخفف عن حمزة فنصنع جوًّا من المرح يشترك فيه الجميع فبراء ومارية تأثرا أيضًا بذهاب مريم..

انتهينا من الطعام وتوجهنا إلى غرفة المعيشة.. أتت الخادمة بالعصائر وبدأت بصبها في الأكواب.. توقفت فجأة عند سماع جرس البيت.. قلت مستغربة:

- «مَنْ يأتينا بهذه الساعة؟»

نظرتُ إلى حمزة سائلة:

- «أتنتظر أحدًا ما؟»

أجاب حمزة وهو ينظر إلى ساعة يده:

- «أظنه قد حان وقت المفاجأة»

قفز براء ومارية وهما يصيحان فرحًا لولا أن حمزة قطع عليهما حماسهما قائلًا:

- «هذه المفاجأة ليست لكما»

نظر إليّ وأكمل:

- «هذه مفاجأة لمن لم يحظوا بمفاجأة بعد.. أمكما وجدتكما»

تعجبت أمي:

- «مفاجأة لي أنا!!»

نظرتْ إليه سائلة:

- «أيوجد مدينة ألعاب مائية لمن هم في سني؟»

علا صوتنا بالضحك من سؤال أمي.. وقال حمزة:

- «لا.. مفاجأة أحلى من الألعاب المائية»

رن الجرس ثانية فاتجهت الخادمة لفتح الباب.. وضعتُ الكوب من يدي وأنا أحدق بالباب غير مصدقة وأقول بفرح:

- «آسر»

عبس وجه أمي وأشاحت بوجهها بعيدًا.. جريت نحوه واحتضنته.. كان يعاملني بشيء من التكلف، دخل واتجه صوب أمي التي لم تتحرك من مكانها، وألقى عليها السلام، فردت باقتضاب شديد، جلس بجانبها وقال:

- «أمي أرجوكِ كفى.. لقد تركتُ عملي وقدمتُ إلى هنا فلا تصعبي الموضوع على نفسي»

نظرتْ إليه أمي متشككة قائلة:

- «هل تركتَ عملك حقًّا؟»

قال مؤكدًا:

- «أقسم لكِ تركتُ عملي وتركتُ كل شيء وأتيت»

اقتربت منه أمي واحتضنته وهي تقول:

- «الحمد لله.. الحمد لله يا بني أن مَنَّ الله عليك بترك هذا العمل.. كنت أدعو الله ليل نهار أن يهديك ويردك إلينا»

قبَّل آسر يد أمي وظل بقربها..

قال حمزة:

- «أظن آسر يشعر بالإجهاد من السفر.. ستقوم سمر بتحضير غرفته لينام ويرتاح ريثما يتناول العشاء»

بقينا تلك الليلة حول آسر ونحن نرحب به ونعبر عن سعادتنا بقدومه.. كان يرد ببعض الكلمات البسيطة وأحيانًا يكتفي بإيماءات رأسه..

استأذن آسر للنوم، وقامت أمي معه وأخبرتنا أنها ستنام بجواره الليلة.. نام براء ومارية واستسلم حمزة للنوم سريعًا.. وبقيتُ مستيقظة أفكر بشأن آسر ومجيئه.. راودتني الكثير من الأفكار والظنون كنتُ أحاول أن أُذهبها من رأسي وأُطمئن نفسي أن الأمور ستكون بخير ويكفي أنني على تأكد تام أن أمي تنام الليلة وهي بكامل سعادتها لعودة آسر إلى أحضانها مرة أخرى..

بقيت أتقلب في السرير حتى سمعت أذان الفجر، أيقظت حمزة للصلاة وأيقظت أمي..

صلت أمي وعادت للنوم ثانية، وعاد حمزة من المسجد إلى مكتبه وقال إنه سيراجع بعض الأوراق التي يحتاجها في اجتماع اليوم للشركة وسيذهب للنوم بعدها حتى يحين موعد ذهابه.

ذهبت إلى السرير مجددًا ولكن تمكّن الأرق مني فلم أستطع النوم..

قمتُ إلى المطبخ وأعددت كوبًا من الشاي باللبن وارتديت حجابي ودلفت إلى الشرفة، جلست على إحدى المقاعد البلاستيكية وأنا أنظر لزرقة البحر البعيدة، وأتأمل السماء وقد بدأتْ تلمع بنور الصباح..

تناولتُ رشفة من الكوب وأنا احتضنه بكلتا يدي، أحسستُ بيد تلتف حول رقبتي بحنان من الخلف، ثم طبع قبلة على وجنتي، وقال بصوت منخفض:

- «لماذا لم تكملي نومك؟»

ابتسمت له قائلة:

- «لم أذق النوم من الأساس لأكمله»

بدتْ علامات الاستغراب على وجه حمزة، وهو يجذب المقعد ويجلس أمامي قائلًا:

- «ولِمَ؟»

قلتُ:

- «أرقٌ ممزوجٌ بكثير من التفكير»

- «وفيمَ تفكرين؟»

تنهدتُ ثم نظرت إليه:

- «أشعر أن آسر لم يأتِ بكامل إرادته وكأنه أتى مضطرًا»

سألته:

- «كم الراتب الذي عرضته عليه للإتيان والعمل معك؟»

قال:

- «وبماذا سيفيد معرفة هذا الأمر؟»
- «سيفيد أنني سأعرف هل عاد من أجلنا أم من أجل المال»
- «وإِنْ عاد من أجل المال ما الضرر؟!»

نظرتُ بعيدًا ولم أجد إجابة لسؤاله.. تابع:

- «حنين لا تتعمقي في التفكير في الأمور لهذه الدرجة لن يفيدك إذا عرفتِ أنه رجع من أجلكم أم من أجل الأموال بل معرفة هذا الأمر من الممكن أن يصيبك بالحزن، إذًا لماذا تبحثين عن شيء يحزنك؟! انظري إلى الأمر بمجمله، إلى الفائدة من ورائه.. حتى إن رجع من أجل الأموال يكفي أنه عاد إلينا من جديد وأنه ترك عمله وهذا مكسب بحد ذاته، أنا متأكد أنه سيعود إلينا بروحه كما كان ولكن شيئًا فشيئًا.. حدثت الخطوة الأصعب وكل ما بعدها من خطوات ستأتي لاحقًا إن شاء الله»

اقتنعتُ بكلامه، وأومأت له برأسي موافقة، وأنا أقول:

- «معك حق.. يكفي أنه عاد إلينا من جديد وإن لم نجنِ شيئًا من وراء عودته إلا راحة أمي كفى بها»

قال:

- «نعم.. ألم تري كيف تبدلت ملامحها حينما أخبرها آسر أنه ترك وظيفته؟»

قلتُ:

- «اجتاح الفرح وجهها دفعة واحدة.. لم أرها بهذه الفرحة منذ زمن»

خَيَّمَ الصمت قليلًا وشعرتُ أنه الوقت المناسب.. توجهتُ إليه باسمة وقلتُ:

- «قمتَ بالعديد من المفاجآت الفترة الماضية للأولاد ولي ولأمي»

قال:

- «أتمنى أن يكون كل شخص قد فرح بمفاجأته»

- «نعم جميعنا فرِحنا»

ثم قلتُ بحماس:

- «وبقي أنت وحان وقت مفاجأتك الآن»

اندهش، وهو مبتسم، وقال:

- «مفاجأتي؟»

- «نعم مفاجأتك.. دقيقة وسآتي بها»

قمتُ من مكاني واتجهتُ إلى غرفة النوم، وفتحتُ أحد أدراج الخزانة، التقطتُ منه مظروفًا وعدتُ إليه..

وضعته أمامه على الطاولة.. التقطه وهو يقلبه مستغربًا ويقول:

- «أهذه مفاجأتي؟!»

- «نعم»

بدأ بفتح المظروف وهو يقول ساخرًا:

- «أتمنى ألا تكون تذكرة لمدينة الألعاب المائية»

ضحكتُ قائلة:

- «لا.. لا.. اطمئن»

ضاقت عيناه وهو يحدق بداخله.. أخرج ذلك المستطيل الأبيض البلاستيكي الصغير وبوسطه خطان أحمران..

تأمله برهة مستغربًا، ثم رفع رأسه إليّ ببطء وكأنه قد استنتج شيئًا ما، بدأت حدقتا عينيه تتسع فرحًا، فسألني بتردد:

- «هل.. هل.. هل أنتِ ...»

اقتربتُ منه ووضعتُ يديّ فوق يديه، ونظرت إلى عينيه، وقلت وقد توردت وجنتاي خجلًا:

- «أنا حامل»

(تمت)

صباحًا 3:09

السبت

26 - **ديسمبر** - 2015

صفحة الرواية

https://www.facebook.com/YasmineQandil